@ketab_n
Follow Me
4.6.2016

هنري جيمس

الأوروبيون

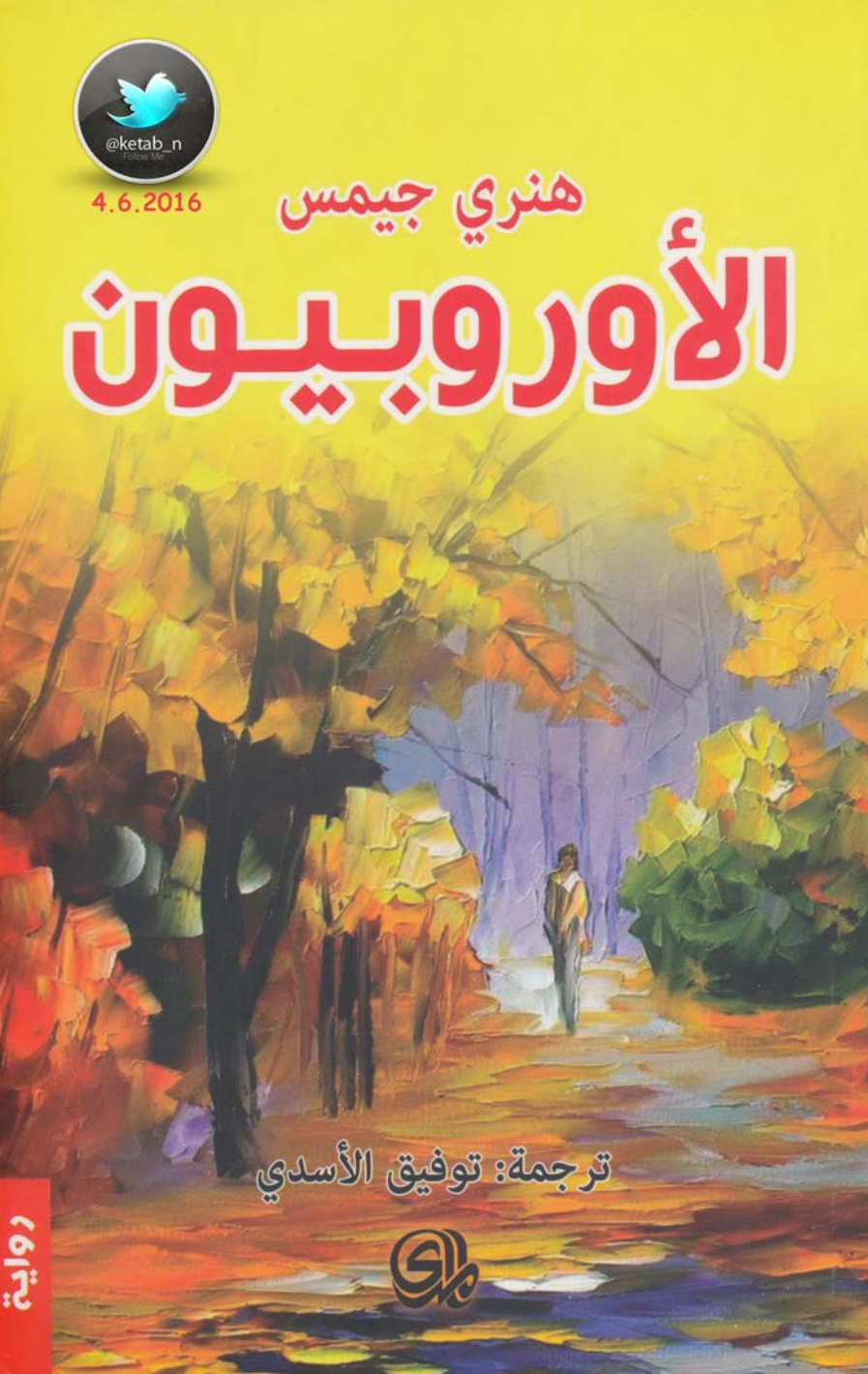

ترجمة: توفيق الأسدي

رواية

هنري جيمس

الأوروبيون

Twitter: @ketab_n

الأوروبيون

Twitter: @ketab_n

رواية

Author: **Henry James**
Translator: **Tawfic Alaasadi**
Tittle: **The Europeans**
Cover designed by: **Roula Majed**
P.C.: **Almada for media, culture & arts**
First Edition: **2015**

المؤلف: **هنري جيمس**
ترجمة: **توفيق الأسدي**
عنوان الكتاب: **الأوروبيون**
تصميم الغلاف: **رولا ماجد**
الناشر: **دار المدى**
الطبعة الاولى: **٢٠١٥**

جميع الحقوق محفوظة

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290
www.almada-group.com email: info@almada-group.com

بيروت: الحمرا– شارع ليون– بناية منصور– الطابق الاول
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617
www.daralmada.com info@daralmada.com

دمشق: شارع كرجية حداد– متفرع من شارع 29 أيار
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289
ص.ب: ٢٧٢٨

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

Twitter: @ketab_n

(١٨٧٨)

١

لا يمكن لمقبرة ضيقة في قلب مدينة صاخبة لامبالية، تُرى من نافذة نزل كئيب المظهر، أن تكون موضوعاً لإيحاء مفعم بالحياة. ولا يكون المشهد في أفضل أحواله بعد أن تكون شواهد القبور والمظلات الجنائزية التي علاها العفن قد تلقت الإنعاش غير المجدي من هطول ثلجي باهت ورطب. وإذا كان التقويم يظهر أن الفصل الربيعي المبارك قد بدأ منذ ستة أسابيع، بينما الجو مشحون بهذا الرذاذ المثلج، فلا بدّ من الإقرار بأن التأثير الموحي بالكآبة لا يغيب عن المشهد. وقد تم الإحساس بهذه الحقيقة بشكل حاد من قبل سيدة معينة وذلك في اليوم الثاني عشر من أيار (مايو) قبل ثلاثين عاماً من الآن، وهي تتطلع من إحدى نوافذ أفضل فندق في مدينة بوسطن القديمة. هاهي تقف هناك منذ نصف ساعة: أي وقفت على مراحل، لأنها كانت تلتفت بين الحين والآخر نحو الغرفة ثم تذهب لتقيس طولها بخطوات قلقة. في المدفأة كانت النار الحمراء المتوهجة تبث لهباً أزرق ضئيلاً! وأمام النار، جلس إلى منضدة شاب كان يعمل بقلم رصاص. كان أمامه عدد من الأوراق قصّت بشكل مربعات متساوية، وكان يرسم عليها، بشكل جليّ تصاميم تصويرية: أشكالاً غريبة المظهر. كان يعمل بسرعة واهتمام، ويُلقي برأسه إلى الخلف أحياناً وهو يمسك برسمته مـاداً ذراعـه إلى الحد الأقصى، ويواصل همهمة وصفيراً ناعمين

Twitter: @ketab_n

مرحين. مسته السيدة خلال مشيها مساً رقيقاً، فقد كانت تنورتها مزركشة جداً وفضفاضة . لم تكن تنظر إلى عمله قط، بل كانت تلتفت بعينيها بين الحين والآخر، خلال مرورها، إلى مرآة معلقة فوق منضدة الزينة على الجانب الآخر من الغرفة. توقفت هناك للحظة، وقرصت خصرها بيديها، أو كانت ترفعهما– وكانتا ممتلئتين وجميلتين– إلى خصل شعرها الكثيفة، بحركة هي بين التربيت والتصحيح. ربما كان من شأن مراقب يقظ أن يتخيل أنه خلال تلك الفترات التي كانت تفحص فيها صورتها بصورة عابرة، كان وجهها ينسى حزنه. ولكنها ما أن تقترب من النافذة ، حتى يبدأ هذا الوجه من جديد بالإعلان عن أنها امرأة حزينة جداً. وبالفعل، فإن كل ما كانت تراه عيناها لم يكن يدعو إلى السرور. كان المطر المتجمد يضرب زجاج النافذة؛ بينما تبدو شواهد القبور في المقبرة إلى الأسفل وكأنها تنأى بنفسها لتبعد المطر المتجمد عن وجوهها. كان سياج مرتفع من الحديد يفصلها عن الشارع، وعلى الجانب الآخر من السياج، راح حشد من سكان بوسطن يسير بصعوبة فوق الثلج السائل. وكان الكثير منهم ينظر إلى الأعلى وإلى الأسفل. بدوا كمن ينتظر شيئاً ما. بين الحين والآخر كانت عربة غريبة المنظر تقترب من المكان الذي يقفون فيه – عربة لم يسبق للسيدة الواقفة عند النافذة أن شاهدت مثلها من قبل، رغم معرفتها الكبيرة باختراعات البشر: كانت تلك العربة هي الأومنيبوس الضخم الخفيض وقد طلي بألوان براقة وزيّن بأجراس رنانة على ما يبدو، وقد ربط إلى نوع من الأخدود على الرصيف، يدفعه زوج من الجياد الصغيرة إلى حد ملحوظ عبر ذلك الأخدود مع كثير من القعقعة والارتداد والاحتكاك. وحين يصل إلى نقطة محددة، كان الناس أمام المقبرة، ومعظمهم من النساء، الحاملين للحقائب والرزم، يدخلون إليه بتراص: بحركة توحي بالتدافع في زورق نجاة في عرض البحر، ولكنه كان يبتلعهم جميعاً في جوفه الكبير. ثم كان أن انطلق زورق

Twitter: @ketab_n

النجاة – أو "عربة النجاة" كما أسمته السيدة التي عند نافذة الفندق بأسلوب مبهم– وهو يقعقع بأجراس مجلجلة مبتعداً على عجلاته غير المرئية ، بينما يقوم السائق بتوجيه مساره على نحو متضارب من مقدم الأومنيبوس. كانت هذه الظاهرة تتكرر مرة كل ثلاث دقائق، ولكن هذا الإمداد من النساء المتحركات بحماسة المرتديات المعاطف الفضفاضة والحاملات للحقائب النسوية الصغيرة والصرر، كان يجدّد نفسه بوفرة كبيرة. على الجانب الآخر من المقبرة كان صف من المنازل الآجرية الحمراء الذي يكشف سلسلة من الجهات الخلفية للمنازل التي تبدو شديدة البساطة والألفة . وفي النهاية مقابل الفندق، كانت قمة مستدقة شاهقة لبرج كنيسة مبني من الخشب ومطلي بدهان أبيض تنتصب عالياً ضمن غموض رقائق الثلج. نظرت السيدة التي عند النافذة إليه لبعض الوقت، ولأسباب تخصها هي، فقد اعتبرته أقبح شيء سبق لها أن رأته . شعرت بالكره والاحتقار تجاهه. لقد جعلها منظر البرج في حالة من الغضب لا تتناسب إطلاقاً مع أي دافع معقول. لم تكن تعرف أنها تهتم إلى ذلك الحد بأبراج الكنائس.

لم تكن جميلة، ولكن كان وجهها حتى وهو يعبر عن السخط المرتبك، شديد الإثارة للاهتمام والقبول. لم تكن في ريعان الشباب ، ومع ذلك فقد كانت رشيقة القوام مع كثير من الاستدارة في خطوطه، مما يوحي بالنضج كما باللدونة. كانت تحمل سنواتها الثلاث والثلاثين كما كان من شأن "هيبي"[1] الرشيقة اليد أن تحمل كأس خمر مترعة. كانت بشرتها "متعبة" كما يقول الفرنسيون وفمها كبيراً، وشفتاها شديدتي الامتلاء، وأسنانها غير مستوية. أما ذقنها فكانت ذات

(١) هيبي: آلهة الشباب عند اليونان ابنة زيوس وهيرا.(جميع الهوامش وضعها المترجم)

Twitter: @ketab_n

تكوين شائع بالأحرى، وكان لها أنف مكتنز. وحين تبتسم– وكانت تبتسم على الدوام– كانت الخطوط المجاورة لأنفها تبرز عالياً نحو عينيها. ولكن تينك العينين كانتا ساحرتين، رماديتين، لامعتين سريعتي اللمح لطيفتي الاستقرار ومترعتين بالذكاء. كان جبينها منخفضاً جداً : وكان ذلك هو الملمح الوحيد الوسيم في وجهها. كما كان لديها شعر غزير متموج داكن ومجعد تجعيدات ناعمة، وكانت تضفره على الدوام بأسلوب يوحي بأنها امرأة أجنبية جنوبية أو شرقية قادمة من مكان بعيد. كما كانت لديها مجموعة كبيرة من الأقراط، وكانت تزين أذنيها بها بالتناوب، إلا أنها كانت تبدو وكأنها تعزز مظهرها المشرقي أو الغريب. وقد سمعت ذات مرة إطراء كان حين يتكرر، يمنحها من السرور أكثر من أي شيء سبق لها أن سمعته: "امرأة جميلة؟ ولكن ملامحها رديئة جداً." هكذا قال أحدهم، ولكن ردّ عليه مراقب شديد الملاحظة قائلاً:" لا أعرف شيئاً عن الملامح، ولكنها ترفع رأسها كامرأة جميلة." ويمكنك أن تتصور ما إذا كانت سترفعه على نحو أقل جاذبية بعد سماعها لهذه العبارات.

التفتت بعيداً عن النافذة أخيراً، وهي تضغط على عينيها بيديها. صاحت:"هذا رهيب جداً. سأعود... سأعود!" ورمت بنفسها على مقعد أمام الموقد.

قال الشاب بنعومة وهو يرسم على قطع الورق التي أمامه:" انتظري قليلاً يا طفلتي العزيزة."

رفعت السيدة قدمها؛ كانت صغيرة جداً، وكان على خفّها وردة هائلة الحجم من القماش. ثبتت عينيها لفترة على هذه الزينة، ثم نظرت إلى تلك الطبقة المتوهجة من فحم الأنتراسايت في الموقد. سألت :" هل سبق لك أن شاهدت شيئاً أبشع من هذه النار؟ هل سبق لك أن

Twitter: @ketab_n

شاهدت شيئاً أفظع[٢] من هذا، كما هو شأن كل شيء آخر؟ كانت تنطق الإنكليزية بصفاء كامل، ولكنها كانت تستعمل هذه الأوصاف الفرنسية بأسلوب يوحي بأنها اعتادت استخدام النعوت الفرنسية.

قال الشاب وهو يرنو إلى النار لبرهة:" أعتقد أن النار جميلة جداً. تلك الألسنة الزرقاء الصغيرة الراقصة فوق الجمرات القرمزية رائعة جداً. إنها أشبه بنار في مخبر كيميائي."

أعلنت رفيقته:" أنت ذو مزاج بهيج جداً يا عزيزي."

رفع الشاب إحدى رسومه ورأسه مائلة إلى جانب واحد. مرر لسانه بلطف على شفته السفلى: " ذو مزاج بهيج... أجل. بهيج جداً... كلا."

قالت السيدة وهي تنظر إلى خفّها:" أنت مثير للسخط!"

بدأ ينقح رسمته. "أعتقد أنك تعنين ببساطة أنك ساخطة."

قالت رفيقته وهي تطلق ضحكة صغيرة مرة:"آه، فيما يخص ذلك فهو صحيح. هذا أكثر أيامي عتمة... وأنت تعرف ما يعنيه ذلك."

أجابها الشاب قائلاً:" انتظري حتى الغد."

"أجل، لقد ارتكبنا خطأ كبيراً. وإن كان هناك أي شك بالأمر هذا اليوم، فلن يكون هناك شك في الغد. سيتضح هذا على أي حال."

صمت الشاب بضع لحظات وهو يحرك قلمه الرصاص. ثم أكد قائلاً:" ليس هناك ما يسمى أخطاء."

---

(٢) (أفظع) هناك عبارات كثيرة وردت في هذه الرواية باللغة الفرنسية على لسان يوجينيا وفيليكس ، وسوف تظهر بحرف مائل على هذا النحو.

Twitter: @ketab_n

مضت السيدة تقول وهي ما تزال تنظر إلى قدمها الجميلة:" صحيح جداً... بالنسبة لمن هم ليسوا أذكياء بما فيه الكفاية ليدركوها. ألاّ تدرك أخطاءك يعني أنك سعيد في الحياة."

قال الشاب وهو ما يزال على الدوام مركّزاً اهتمامه على رسمته:" يا أعز الأخوات، هذه أول مرة تقولين لي فيها إني لست ذكياً."

أجابت الأخت على نحو وثيق الصلة بالموضوع إلى حد كاف: " حسب نظريتك أنت، لا أستطيع أن أسميها خطأ."

أطلق الشاب ضحكة صافية نقية:" أنت على الأقل ذكية بما فيه الكفاية يا أعز الأخوات."

" لم أكن كذلك حين اقترحت هذا الاقتراح."

سألها أخوها: "هل كنت أنت من اقترحه؟"

التفتت برأسها وحدقت إليه قليلاً:" هل تريد أن تحظى بشرف تبنّيه؟"

قال وهو يرفع رأسه ويبتسم:" إن شئت تحملت وزره."

أجابت بعد لحظة: "أجل، فأنت لا تحسن التمييز في مثل هذه الأمور. ليس لديك حس بالتملك."

أطلق الشاب من جديد ضحكته المرحة. "إن كان ذلك يعني أني لا أملك شيئاً، فهذا صحيح."

قالت أخته:"لا تمزح بشأن فقرك. هذا مبتذل بقدر التفاخر به."

"فقري! لقد أنهيت للتو رسمة ستجلب لي خمسين فرنكاً."

قالت السيدة وهي تمد يدها:" لنر!"

Twitter: @ketab_n

أضاف لمسة أخرى أو اثنتين ثم أعطاها رسمته. نظرت إليها، ولكنها تابعت فكرتها التي خطرت لها قبل لحظة: "لو طلبت منك امرأة الزواج ستقول لها: (بكل تأكيد يا عزيزتي، بكل سرور!) ثم ستتزوجها وتكون سعيداً إلى حد مضحك. وبعد مضي ثلاثة أشهر ستقول لها: (أتذكرين ذلك اليوم السعيد حين رجوتك أن تتزوجيني!)".

كان الشاب قد نهض من خلف الطاولة وبسط ذراعيه قليلاً، ثم سار إلى النافذة ، وقال:" هذا وصف لطبيعة فاتنة."

"أوه، أجل، لديك طبيعة فاتنة. أعتبرها رأسمالنا. لو لم أكن على قناعة بذلك، ما كنت لأخاطر بجلبك إلى هذا البلد البغيض."

صاح الشاب:" هذا البلد المضحك، هذا البلد الممتع!" ثم انفجر ضاحكاً بحيوية شديدة.

سألت رفيقته:" هل هن أولئك النسوة المتسلقات الأومنيبوس؟ ما الذي تعتقد أنه الشيء الذي يجذبهن؟"

قال الشاب:" أعتقد أن هناك شاباً شديد الوسامة في الداخل."

"في كل واحد من تلك الأومنيوسات؟ إنها تأتي بالمئات ولا يبدو الرجال في هذا البلد وسيمين إطلاقاً. أما فيما يخص النساء، فلم يسبق لي أن شاهدت كل هذا العدد منهن دفعة واحدة منذ أن غادرت الدير."

أعلن شقيقها: "النساء جميلات جدا، والمسألة كلها مسلية. عليّ أن أرسمها." ثم عاد إلى الطاولة مسرعاً، والتقط أحد أدواته، وهو لوح صغير يستخدم للرسم، وصحيفة من الورق وثلاثة أو أربعة أقلام. اتخذ مكانه عند النافذة وهو يحمل هذه الأشياء، ثم وقف هناك وهو ينظر إلى الخارج ويستعمل قلمه الرصاص بأسلوب من يتمتع بالمهارة والسلاسة. وبينما راح يرسم، كانت ترتسم على وجهه ابتسامة

Twitter: @ketab_n

لامعة. وعبارة "لامعة" ملائمة جداً الآن فقد كان وجهه مضاء بقوة. كان في الثامنة والعشرين ويتمتع بقوام قصير نحيل جيد التكوين. ورغم أنه كان يشبه أخته بشكل لافت للنظر، إلا أنه كان أكثر حظاً منها من حيث الشكل: كان ذا شعر أشقر ووجه مشرق ومظهر يدل على الظَرف مع ملامح دقيقة وتعبير هو في الآن ذاته مهذب وليس جدياً على الإطلاق، مع عينين زرقاوين دافئتين وحاجبين مرسومين بشكل جيد ومقوسين إلى حد الإفراط – كانا حاجبين من النوع الذي لو كتبت النساء قصائد إلى عشاقهن لكنّ سيجعلن منهما موضوعاً لإحدى تلك القصائد، وشارب خفيف كان ينمو نحو الأعلى كأنما تدفعه إلى هناك نسمة من تلك الابتسامة الدائمة. كان هناك شيء ما في ذلك الوجه يوحي في الوقت نفسه بحب الخير والفتنة. ولكن، كما ألمحت سابقاً، لم يكن جدياً على الإطلاق. كان وجه ذلك الشاب في هذا الخصوص، فريداً. لم يكن جدياً على الإطلاق، ومع ذلك، فقد كان يوحي بثقة شديدة الحيوية.

قالت الأخت:" تأكد من رسم الكثير من الثلج. يا رحمة الرب! يا له من طقس رهيب!"

أجاب الشاب ضاحكاً: " سأجعل الرسمة كلها بيضاء، وسأرسم الأشخاص صغار الحجم باللون الأسود. وسوف أسميها: ما كان ذلك البيت من قصيدة كيتس[٣]؟ كبير أطفال منتصف أيار!"

قالت السيدة: "لا أتذكر أن أمي قد ذكرت لي قط أن الطقس على هذه الشاكلة."

---

(٣) جون كيتس (١٧٩٥-١٨٢١) شاعر إنكليزي يعد أحد زعماء المدرسة الرومانتيكية.

Twitter: @ketab_n

" لم تذكر لك أمنا أي شيء مزعج. والأمر ليس على هذا المنوال كل يوم. سترين أن الغد سيكون رائعاً."

"وكيف لك أن تعلم؟ سأرحل غداً."

"إلى أين؟"

"إلى أي مكان بعيد عن هنا. سأعود إلى سيلبرشتات. سأكتب للأمير الحاكم."

التفت الشاب قليلاً ونظر إليها وقد توقف عن الرسم. همهم:" عزيزتي يوجينيا، هل كنت سعيدة جداً ونحن في البحر؟"

نهضت يوجينيا. كانت ما تزال تمسك بيدها الرسمة التي أعطاها لها أخوها. كانت رسمة معبرة وجريئة تمثل مجموعة من الأشخاص البائسين على متن باخرة، وهم يتمسكون ويتشبث الواحد منهم بالآخر، بينما الباخرة تميل إلى الأسفل، بزاوية رهيبة، في جوف موجة. كانت الرسمة بارعة جداً ومترعة بنوع من القدرة التراجيكوميدية. نظرت يوجينيا إلى الرسمة وظهرت تكشيرة حزينة على وجهها. " كيف يمكنك أن ترسم مثل هذه المشاهد الكريهة ؟ أودّ لو أرميها في النار!" ثم رمت بالورقة بعيداً. راقبها أخوها بهدوء ليرى إلى أين ستصل. رفرفت الورقة حتى وصلت الأرض، فتركها هناك. اقتربت من النافذة وهي تقرص خصرها. سألت:" لم لا تلومني ... تشتمني؟ أعتقد أني كنت سأشعر أني في أفضل حال. لم لا تقول لي إنك تكرهني لأني جلبتك إلى هنا؟"

"لأنك لن تصدقي الأمر. أنا أعبدك يا أختي العزيزة! أنا مسرور بوجودي هنا، وأنا مفتون بالمشهد."

مضت يوجينيا تقول: " لا أعرف ما حلّ بي. لقد فقدت عقلي."

Twitter: @ketab_n

أما الشاب فتابع من جانبه الرسم بقلمه. "من الواضح أن هذا البلد شديد الإثارة للفضول والاهتمام. هانحن هنا، وأنا أنوي الاستمتاع بذلك."

التفتت رفيقته مبتعدة بخطوة تدل على نفاد الصبر، ولكنها عادت فوراً لتقول:" المعنويات العالية أمر ممتاز دون شك، ولكنك تمنحني الكثير منها، وأنا لا أرى أنها قد أفادتك على الإطلاق."

حدق الشاب بحاجبين مرفوعين مبتسماً؛ ربت على أنفه الوسيم بالقلم، ثم قال:"لقد أسعدتْني!"

"كان هذا أقل شيء يمكنها أن تفعله، ولكنها لم تقدم لك شيئاً آخر. أنت تقضي حياتك شاكراً الحظ على منحه الخدمات الصغيرة جداً حتى أنه لم يأبه قط بأن يزعج نفسه من أجلك."

" لا بد أنه قد بذل بعض الجهد، على ما أعتقد، حين منحني هذه الأخت الرائعة. "

" كن جدياً يا فيلكس. أنت تنسى أني أكبر منك سناً."

أجابها ضاحكاً: " مع أخت كبيرة إلى هذا الحد في السن! كنت آمل أن نترك الجدية لأوروبا."

" أتصور أنك ستجدها هنا. تذكر أنك تقترب من سن الثلاثين، ولكنك لست سوى بوهيمي مغمور... مراسل مفلس لمجلة مصورة."

"مغمور بقدر ما تحبين، ولكني لست بوهيمياً بقدر ما تعتقدين. كما أني لست مفلساً على الإطلاق! في جيبي مائة جنيه ، كما أن لدي التزاماً برسم خمسين رسمة، وأنوي أن أرسم وجوه جميع أقربائنا وجميع أولاد عمومتهم، بسعر مائة دولار للرأس الواحدة."

Twitter: @ketab_n

قالت يوجينيا: " أنت لست طموحاً."

أجاب الشاب: " أنت كذلك يا بارونتي العزيزة."

صمتت البارونة للحظة، وهي تنظر إلى المقبرة التي جعلها المطر الجليدي أكثر عتمة والعربات التي تجرها الجياد المتخبطة في سيرها. قالت أخيراً: "أجل، أنا طموحة، وطموحي قد جلبني إلى هذا المكان الرهيب!" نظرت في ما حولها – كان للغرفة نوع من العري المبتذل، فقد كان السرير والنافذة دون ستائر؛ ثم أطلقت تنهيدة صغيرة منفعلة. صاحت: " الطموح الفقير القديم!" ثم رمت بنفسها على الكنبة الطويلة التي كانت مسندة إلى الجدار قريباً منها، وغطت وجهها بيديها.

تابع أخوها الرسم، بسرعة ومهارة. وبعد لحظات، جلس إلى القرب منها وأراها رسمته. سألها: "والآن ألا تظنين أن هذه جيدة جداً بالنسبة لبوهيمي مغمور؟ لقد كسبت خمسين فرنكاً آخر."

نظرت يوجينيا إلى الصورة الصغيرة وهو يضعها على حجرها.

قالت:"أجل، إنها تدل على موهبة كبيرة. " ثم أضافت بعد لحظة: " هل تفترض أن أولاد خالنا يفعلون ذلك؟"

" يفعلون ماذا؟"

"ينخرطون في مثل هذه الأشياء، ويبدون هكذا."

فكر فليكس لفترة. " لا أعرف. سيكون أمراً مثيراً للاهتمام أن نستكشف ذلك."

قالت البارونة:" أوه، الأغنياء لا يستطيعون!"

سأل فليكس بمرح: " هل أنت على ثقة من أنهم أغنياء؟"

Twitter: @ketab_n

التفتت شقيقته ببطء نحوه، وهي تنظر إليه. همهمت:" يا للقوى السماوية! لديك أسلوب خاص في توضيح الأمور!"

صرح فليكس:" سيكون الأمر أكثر مدعاة للسرور لو كانوا أغنياء."

"هل تفترض أني ما كنت لأحضر إلى هنا لولا ثقتي بأنهم أغنياء؟"

واجه الشاب نظرة شقيقته الوقائية بنظرة وضاءة راضية. كرر قائلاً:" أجل، سيكون الأمر أكثر مدعاة للسرور."

قالت البارونة: "هذا كل ما أتوقعه منهم. لا أعتمد على كونهم أذكياء أو ودودين– أولاً– أو أنيقين أو مثيرين للاهتمام. ولكني أؤكد لك أني أصر على كونهم أغنياء."

أسند فليكس رأسه إلى ظهر الكنبة ونظر لوهلة إلى البقعة المستطيلة من السماء التي كانت النافذة تشكل إطاراً لها. كان الثلج يتوقف عن الهطول: بدا له أن السماء قد بدأت تصبح أكثر إشراقاً. قال أخيراً: " أعتمد على كونهم أغنياء وأقوياء وأذكياء وودودين وأنيقين ومثيرين للاهتمام، وعموماً أن يكونوا ممتعين. سترين." ثم انحنى نحو الأمام وقبل أخته. مضى يقول:" انظري إلى هناك! كمعجزة، حتى وأنت تتكلمين، فإن السماء يتحول لونها إلى الذهبي. سيكون النهار رائعاً."

وبالفعل، خلال خمس دقائق كان الطقس قد تغيّر. اندفعت الشمس عبر الغيوم الثلجية وقفزت إلى غرفة البارونة. صرخت السيدة. " يارحمة الرب!، يا له من طقس عجيب!"

قال فيليكس: "سنخرج ونتفرج على الدنيا".

وبعد برهة خرجا. كان الهواء قد أصبح دافئاً ونيّراً، وقد جففت الشمس الأرصفة. تمشيا في الشوارع دون هدف، وهما يتفرجان

Twitter: @ketab_n

على الناس والمنازل والحوانيت والعربات ، السماء الزرقاء الملتهبة والمعابر الموحلة، الرجال المسرعين والفتيات اللواتي يتمشين ببطء، الآجر الأحمر الجديد والأشجار الخضراء اللامعة، المزيج الاستثنائي من الأناقة والرثاثة. من ساعة إلى ساعة كان النهار قد أضحى ربيعياً نضراً؛ وحتى في الشوارع المزدحمة كان هناك عبير التربة والزهور. كان فيليكس شديد الاستمتاع. كان قد أطلق على البلد اسم "البلد الكوميدي"، وقد مضى ضاحكاً من كل ما يراه. كان بإمكانك أن تقول إن الحضارة الأمريكية كانت تعبر عن نفسها حسب إحساسه هو من خلال نسيج من النكات الممتازة. كانت النكات ممتازة بالفعل وكان مرح ذلك الشاب شديد الابتهاج واللطف. فقد كان يتمتع بما يسمى الحس التصويري، وقد حركت فيه هذه اللمحة الأولى من العادات الديموقراطية النوع نفسه من الاهتمام الذي كانت ستمنحه لحركات شاب حيوي وذي بشرة صافية. وكان من شأن مثل هذا الاهتمام أن يكون علنياً ومجاملاً ، وكان يمكن لفيليكس في الحالة الراهنة أن يعتبر كمغترب شاب متفائل يعود لزيارة أشباح طفولته. وقد بقي ينظر إلى السماء الزرقاء البنفسجية وإلى الهواء المتلألئ وبقع اللون المتناثرة والمتجمعة.

قال لأخته بتلك اللغة الأجنبية التي بدا أنهما يشعران بدافع غامض في بعض الأحيان لاستعمالها: " لكم هو مبرقش! "

أجابت البارونة: " نعم، إنه مبرقش بالفعل. لا أحب هذه الألوان؛ إنها تؤذي عينيّ."

قال الشاب:" إنه يبدي كيف تلتقي الحدود القصوى. بدلاً عن أن نأتي إلى الغرب نبدو كأننا ذهبنا إلى الشرق. فالطريقة التي تلمس بها السماء أسقف المنازل تشبه ما يحدث في القاهرة. كما أن اللافتات

Twitter: @ketab_n

الحمراء والزرقاء الملصقة على وجه كل شيء تذكر المرء بالزخرفة المحمّدية."

قالت رفيقته: "ولكن الشابات لسن بالمحمديات. لا يمكن أن يقال إنهن يخفين وجوههن. لم يسبق لي أن رأيت ما هو جريء إلى هذا الحد."

صرخ فيليكس: "الحمد للسماوات لأنهن لا يخفين وجوههن! فوجوههن جميلة إلى حد غير عادي."

"أجل، وجوههن غالباً ما تكون جميلة جداً" ، "قالت البارونة التي كانت امرأة شديدة الذكاء. كانت ذكية إلى حد أنها لم تكن قادرة على إبداء مقدار كبير من الملاحظات الدقيقة. وقد راحت تتشبث إلى حد غير عادي بذراع أخيها . لم تكن تشعر بالانتعاش كما يشعر هو. كانت تقول القليل ولكنها لاحظت كثيراً من الأشياء، وراحت تتأمل. كانت تشعر ببعض الاستثارة؛ لقد شعرت أنها قد جاءت بالفعل إلى بلد غريب لتنال النجاح. كانت تشعر، سطحياً، بمقدار كبير من السخط والاستياء. كانت البارونة امرأة رقيقة شديدة الحساسية. في الأيام الغابرة ذهبت أكثر من مرة ، على سبيل المتعة والصحبة الجميلة، إلى معارض في بلدات ريفية. وقد بدا لها الآن أنها في معرض هائل الحجم : إن التسلية وعدم الانسجام هما الشيء نفسه. وقد وجدت نفسها تبتسم وتنكمش من الألم؛ فقد كان الاستعراض شديد الغرابة، ولكنه كان محتملاً بين اللحظة والأخرى أن يصطدم بها شخص ما. لم يسبق للبارونة أن شاهدت كل هذا العدد من الناس يمشون في الطريق من قبل. لم يسبق لها أن اختلطت بأناس لم تعرفهم. ولكنها أحست بالتدريج أن هذا المعرض كان مشروعاً أكثر جدية. دخلت مع أخيها حديقة عامة كبيرة بدت جميلة جداً، ولكنها دهشت حين لم تر أي

Twitter: @ketab_n

عربات. كان العصر على وشك الزوال، وأشعة الشمس الأفقية قد طلت العشب الخشن الحيّ وجذوع الأشجار الرشيقة بطلاء ذهبي: بذهب جديد خارج من المنجم لتوه. كانت تلك هي الساعة التي يكون فيها على السيدات الخروج لشم الهواء والتجول عبر سياج من المشاة الحاملين لمظلاتهم بازدراء. وهنا لم تلاحظ يوجينيا على أي حال أي دليل على وجود هذه العادة التي كان غيابها أكثر غرابة، حيث كانت هناك جادة رائعة من أشجار الدردار في سلسلة متواصلة ملائمة لشارع واسع بهيج، كان يمشي فيه عدد كبير من المشاة المنتمين بشكل واضح إلى الطبقة البورجوازية الأكثر ثراء. خرج صديقانا نحو الممشى جيد الإنارة، ولاحظ فيليكس وجود عدد كبير من الفتيات الجميلات، ولفت انتباه أخته إليهن. وهذه الحركة الأخيرة كانت غير ضرورية على أي حال، فقد كانت البارونة تدقق عن كثب في أولئك النساء الشابات.

قال فيليكس: " أشعر بقناعة عميقة أن بنات خالنا جميلات على شاكلة هؤلاء الفتيات."

تمنت البارونة ذلك، ولكنها لم تقله. قالت:" هؤلاء جميلات جداً ولكنهن مجرد فتيات صغيرات. أين النساء... النساء اللواتي هن في الثلاثين من العمر؟"

"هل تعنين في الثالثة والثلاثين؟"، هذا ما كان أخوها سيقوله لها؛ فقد كان يفهم غالباً ما تقوله وما لا تقوله على حد سواء. ولكنه صرخ متعجباً فحسب لجمال منظر الغروب، بينما راحت البارونة، التي قدمت إلى أمريكا لتنشد الثروة والنجاح، تفكر في أنه سيكون أمراً في صالحها لو أن النساء اللواتي قد تحتاج إلى أن تقيس نفسها بهن سيكنّ مجرد فتيات صغيرات. كان الغروب رائعاً؛ توقفا ليتفرجا عليه. صرخ

Twitter: @ketab_n

فيليكس بأنه لم يسبق له أن شاهد مثل هذا المزيج الفاتن من الألوان. قالت البارونة إنها تعتقد أنه باهر، وربما كانت الأكثر ابتهاجاً من حقيقة أنها بينما كانت تقف هناك، فإنها كانت واعية محط أنظار مليئة بالإعجاب من جانب كثير من أشخاص لطيفي المظهر كانوا يمرون في تلك الطريق، و لم يكن ممكناً ألا تلفت انتباههم امرأة متميزة المظهر ترتدي ملابس لافتة للنظر، ويبدو عليها أنها أجنبية، وتصرخ أمام جماليات الطبيعة في زاوية شارع من شوارع بوسطن بلسان فرنسي. ارتفعت معنويات يوجينيا. استسلمت لأحضان مرح هادئ. لو أنها قدمت إلى هنا لتبحث عن الثروة والنجاح، فهي ستجدهما بسهولة. لقد كان الوعد بهما متواجداً في ذلك النقاء الجميل للأفق الغربي. كان هناك جو من الحميمية والألفة في التحديقة الخالية من الوقاحة للمارة توخي بسهولة طبيعية للأشياء.

سألها فيليكس: "لن تعودي إلى سيلبرشتات، أليس كذلك؟"

قالت البارونة: "ليس غداً".

" ولن تكتبي إلى الأمير الحاكم؟"

" سأكتب إليه لأبلغه أنه لأمر جليّ أنهم لا يعرفون عنه شيئاً هنا."

قال الشاب: " لن يصدقك. أنصحك بأن تتركيه بحاله."

استمر فيليكس في كونه يمر بحالة سامية من المرح. فقد كانت نشأته في جو تسوده العادات العتيقة في مدن جميلة، ومع ذلك فقد وجد الكثير من اللون المحلي في هذه المدينة الطهرانية الصغيرة. في ذلك المساء، وبعد العشاء، قال لأخته إنه سيذهب في الصباح الباكر ليتعرف إلى بنتي خاله.

قالت يوجينيا: " أنت نافد الصبر إلى حد كبير."

Twitter: @ketab_n

سألها:" ما الذي يمكن أن يكون أكثر طبيعية بعد مشاهدة كل أولئك الفتيات الجميلات اليوم؟ إن كانت بنات خال المرء من ذلك النمط، فكلما أسرع كان الأمر في صالحه."

قالت يوجينيا: "ربما لسن من ذلك النمط نفسه. كان علينا أن نحضر بعض الرسائل ... إلى بعض الأشخاص الآخرين".

"الآخرون ليسوا أقرباءنا".

أجابت البارونة: "ربما لن يكون الأمر أسوأ بسبب ذلك".

نظر أخوها إليها وقد رفع حاجبيه: "لم يكن هذا ما قلته حين اقترحت عليّ لأول مرة أن نسافر إلى هنا ونتصادق مع أقربائنا. قلت إن ذلك كان ينبع من العواطف الطبيعية. وحين طرحت أنا بعض الأسباب ضد ذلك قلت إن صوت الدم أقوى من كل شيء".

سألت البارونة: "هل تتذكر كل هذا؟"

"بشدة! فقد تأثرت مشاعري بقوة بذلك الكلام".

كانت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، شأن ما فعلته في الصباح. توقفت ثم نظرت إلى أخيها. من الواضح أنها كانت ستقول شيئاً ما، ولكنها كبحت نفسها واستأنفت المشي. ثم وخلال لحظات قليلة، قالت شيئاً مختلفاً كان له تأثير أشبه بالتفسير لكبحها فكرتها السابقة. " كنت وستبقى طفلاً إلى الأبد يا أخي العزيز".

أجاب فيليكس ضاحكاً:" قد يفترض المرء أن عمرك يا سيدتي هو ألف عام."

قالت البارونة:" أنا كذلك... أحياناً."

"سأذهب إذاً وأعلن لبنات خالنا وصول شخصية شديدة الروعة.

Twitter: @ketab_n

وسوف يحضرن فوراً ويقدمن فروض الاحترام".

ذرعت يوجينيا الغرفة مجدداً ، ثم توقفت أمام أخيها، ووضعت يدها على ذراعه. قالت: "لن يحضرن لمشاهدتي. لن تسمح أنت بذلك. لن تكون هذه هي الطريقة التي أقابلهن بها لأول مرة". ورداً على نظرته الاستفهامية مضت تقول: "ستذهب أنت وترى الأمور لتقدم لي تقريراً. ستعود وتخبرني من هم وما الذي هم عليه: عددهم وجنسهم وأعمارهم كل بدوره... كل ما يتعلق بهم. ولكن لا شك أنك ستلاحظ كل شيء. كن مستعداً لكي تصف لي المكان وكل ما يتعلق به ... كيف أعبر لك عن ذلك؟ أعني... الميزانسين (وصف المشهد بالكامل). ثم وفي الوقت الملائم لي سأقدم نفسي... سأظهر لهم!" هذا ما قالته البارونة ولكنها كانت في هذه المرة تعبر عن فكرتها بصراحة معينة.

سألها فيليكس الذي كان يتحلى بثقة قوية في عدالة تدابير أخته: "وما الرسالة التي سأحملها لهم؟"

نظرت إليه لبرهة، إلى تعبير الصدق اللطيف في وجهه، وبتلك الثقة بالنفس التي كان هو معجباً بها، أجابت: "قل ما يحلو لك. احك لهم قصتي بالطريقة التي تبدو لك أكثر ... طبيعية!" ثم أدنت جبينها منه ليقبله.

Twitter: @ketab_n

-٢-

كان الجو اليوم التالي رائعاً، كما تنبأ فيليكس: إن كان الشتاء قد قفز فجأة متحولاً إلى ربيع، فإن الربيع قد قفز فجأة متحولاً إلى صيف. كانت هذه ملاحظة عبّرت فتاة شابة خرجت من دارة كبيرة مربعة الشكل في الريف، وراحت تتمشى في الحديقة الواسعة التي تفصلها عن الطريق الموحل. كانت الشجيرات ببراعمها والنباتات المعتنى بها بأناقة تتشمس في النور والدفء الوافرين. كان الظل الشفاف لأشجار الدردار الضخمة– وكانت تلك أشجاراً عظيمة بالفعل– يبدو كأنه أكثر كثافة مع مرور الوقت. كما كان السكون المألوف جداً يوفر وسيطاً مذعناً لصوت ناقوس الكنيسة البعيد. أصغت الفتاة الشابة إلى ناقوس الكنيسة؛ وإن لم تكن قد ارتدت ملابس مناسبة للكنيسة. كانت حاسرة الرأس ترتدي صدرة من الموسلين الأبيض ذات الحاشية المطرزة ، كما كانت تنورتها من الموسلين الملون. كانت شابة في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر، ولكن رغم أن شابة من جنسها تتمشى في حديقة في صباح يوم من أيام الأحد في فصل الربيع، لا يمكن أن تكون من حيث طبيعة الأمور موضوعاً للاستياء، إلا أنك ما كنت ستعتبر هذه الفتاة البريئة التي تخالف طقوس هذا اليوم المقدس جميلة على نحو خاص. كانت طويلة القد وذات بشرة شاحبة، نحيلة الجسم وتعوزها الرشاقة قليلاً. أما شعرها فكان أشقر وسبطاً تماماً. أما عيناها

Twitter: @ketab_n

فكانتا داكنتين وتتميزان بخصوصية كونهما تبدوان غائمتين وقلقتين في آن معاً: وتختلفان بالتالي، كما يمكنك أن ترى، وعلى نحو حاسم عن "العيون الجميلة" التي نتصورها دائماً على أنها لامعة وهادئة. كانت أبواب ونوافذ الدارة الكبيرة المربعة الشكل مشرعة كلها، وذلك لاستقبال أشعة الشمس المطهّرة، والتي كانت تتوضع في بقع سخية على أرضية الشرفة الواسعة العالية المغطاة والتي كانت قد نصبت على جانبي الدار – شرفة كان قد وضع فيها بشكل متناظر عدة كراس هزازة مقششة ونصف دزينة من تلك الكراسي الصغيرة الأسطوانية التي دون مسند ظهر أو ذراعين، مصنوعة من البورسلان بلونيه الأزرق والأخضر مما يوحي بصلة بين القاطنين والتجارة الشرقية. كانت دارة قديمة : أي بمعنى أن عمرها كان ثمانين عاماً. وكانت مبنية من الخشب المطلي بلون رمادي أنيق صاف وباهت، وقد زيّنت على امتداد الواجهة بأعمدة خشبية مسطحة تفصل بينها فرجات متساوية، وطليت باللون الأبيض. وهذه الأعمدة بدت وكأنها تدعم نوعاً من القوصرة[٤] الكلاسيكية التي زينت في الوسط بنافذة مثلثة كبيرة ضمن إطار منحوت بشكل نافر ، وفي كل واحدة من زواياها الأصغر فتحة دائرية مزججة. هناك باب كبير أبيض مزود بقارعة نحاسية مصقولة جيداً كان ممكناً مشاهدته بوضوح من الطريق الريفي المظهر والذي كانت البوابة متصلة به بواسطة ممر واسع ممهد بالآجر المهترئ والمتشقق إنما النظيف جداً. خلف الدارة كانت مروج وبساتين، حظيرة بركة ماء، كما كان يواجهها، على مسافة قصيرة على امتداد الطريق، من الجانب المقابل، منزل صغير مطلي باللون الأبيض ولنوافذه مصاريع

---

(٤) القوصرة: مثلث في أعلى واجهة المبنى.

Twitter: @ketab_n

مطلية باللون الأخضر، وحديقة على أحد جانبيه وبستان على الجانب الآخر. وكان هذا كله يومض في الهواء الصباحي الذي يمكن من خلاله أن تبدو التفاصيل البسيطة لهذه الصورة وهي تصل إلى العين بشكل واضح جداً شأن كلمة "المجموع" في لائحة الحساب.

خرجت الآن شابة أخرى من الدارة، وسارت عبر الشرفة وهبطت إلى الحديقة واقتربت من الشابة التي سبق ذكرها. وهذه الشابة الثانية كانت أيضاً نحيلة وشاحبة. ولكنها كانت أكبر سناً من الأخرى. كما كانت أقصر قامة. كان شعرها داكناً أملس، أما عيناها، وخلافاً للأخرى، فكانتا ذكيتين ولامعتين، إلا أنهما لم تكونا قلقتين إطلاقاً. وكانت ترتدي قلنسوة من القش ذات شرائط بيضاء، ووشاحاً هندياً أحمر طويلاً والذي كان يصل من مقدمة ثوبها إلى قدميها. في يدها كانت تحمل مفتاحاً صغيراً.

قالت:"غرترود، هل أنت واثقة من أنك تفضلين عدم الذهاب إلى الكنيسة؟"

نظرت غرترود إليها لبرهة، ثم قطفت غصيناً صغيراً من شجيرة من شجيرات الليلك، وشمته ثم رمت به بعيداً. أجابت:"لست واثقة جداً من أي شيء!"

نظرت الشابة الأخرى باستقامة عبر الأخرى، إلى البركة البعيدة، التي كانت تلتمع بين الضفاف الطويلة من أشجار التنوب، ثم قالت بصوت ناعم جداً:"هذا مفتاح خزانة غرفة الطعام. أعتقد أنه من الأجدر بك أن تأخذيه، فربما يحتاج شخص ما إلى شيء ما".

سألتها غرترود: " ومن هنا ليطلب أي شيء؟ سأكون وحيدة في الدار."

Twitter: @ketab_n

قالت رفيقتها:" قد يأتي شخص ما."

"هل تعنين السيد براند؟"

" أجل يا غرترود. قد يحب تناول قطعة من الكعك".

" لا أحب الرجال الذين يأكلون على الدوام قطعاً من الكعك! " هذا ما صرحت به غرترود وهي تقطف شيئاً من شجيرة الليلك."

نظرت إليها رفيقتها، ثم نظرت إلى الأرض. قالت: " أعتقد أن أبانا يتوقع منك أن تحضري إلى الكنيسة. ماذا سأقول له؟"

" قولي إني أعاني من صداع ثقيل."

سألت الشابة الأكبر سناً وهي تنظر مباشرة إلى البركة مجدداً: "وهل ستكون هذه هي الحقيقة؟"

قالت الشابة الأصغر سناً ببساطة: "كلا يا شارلوت."

نقلت شارلوت عينيها الهادئتين إلى وجه رفيقتها. " أخشى أنك تشعرين بالقلق."

أجابت غرترود بالنبرة نفسها:" أشعر بما هو شعوري دائماً."

التفتت شارلوت، ولكنها بقيت في مكانها لبرهة. والآن نظرت إلى مقدمة ثوبها. سألت : " ألا يبدو لك أن وشاحي طويل جداً ؟"

دارت غرترود من حولها وهي تنظر إلى الوشاح. "لا أعتقد أنك ترتدينه بالشكل الصحيح."

"وكيف عليّ أن أرتديه يا عزيزتي؟"

" لا أعرف. على نحو مختلف عن هذا. عليك أن تجذبيه بشكل مختلف من فوق كتفيك، ومن حول مرفقيك. ينبغي أن يكون مظهرك

Twitter: @ketab_n

من الخلف مختلفاً."

سألتها شارلوت: " وكيف ينبغي أن أبدو؟"

قالت غرترود وهي تشدّ الوشاح إلى الخلف قليلاً: " لا أعتقد أني أستطيع أن أخبرك. أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي ولكني لا أظنّ أني أستطيع شرحه."

صححت شارلوت بحركة من مرفقيها الارتخاء الذي سببته لمسة رفيقتها. أضافت قائلة:" حسناً، في أحد الأيام سيكون عليك أن تؤدي هذا الأمر لي. لا يهم الآن. حقاً، لا أعتقد أن في هذا ما يهمّ، أي كيف يبدو المظهر من الخلف."

قالت غرترود:" عليّ أن أقول إنه يهم أكثر. لأنك عندئذ لا تعرفين من هو الذي يراقبك. لا تكونين منتبهة. لا يمكنك أن تحاولي أن تبدي جميلة."

تلقت شارلوت هذا التصريح بجدية بالغة. أجابت بلهجة صارمة: " لا أظن أن على الواحدة منا أن تحاول أن تبدو جميلة على الإطلاق."

بقيت رفيقتها صامتة. ثم قالت: " حسناً، ربما ليس هناك من فائدة كبيرة في ذلك."

نظرت إليها شارلوت قليلاً، ثم قبلتها: " آمل أن تكوني في حال أفضل لدى عودتنا."

قالت غرترود: " يا أختي العزيزة، أنا في أحسن حال."

سارت شارلوت على امتداد الممشى الآجري الواسع نحو بوابة الحديقة. أما رفيقتها فتمشت ببطء باتجاه الدارة. صادفت شارلوت شاباً كان قد دخل للتو: طويل القامة، أشقر الشعر، يرتدي قبعة غالية

Twitter: @ketab_n

وزوجاً رقيقاً من القفازات . كان وسيماً إنما شديد البدانة. وكانت له ابتسامة لطيفة. صاحت الشابة:" أوه، السيد براند!"

قال الشاب: " جئت لأرى إن كانت شقيقتك لن تذهب إلى الكنيسة."

" قالت إنها لن تذهب، ولكني مسرورة جداً لقدومك. أظن أنه يجدر بك أن تكلمها قليلاً..." ثم خفضت شارلوت صوتها لتقول:" إذ يبدو أنها قلقة."

ابتسم السيد براند للشابة وهو ينظر إليها من فوق نظراً لطوله الفارع. " سيسرني جداً أن أكلّمها. ولذلك سأكون راغباً بالتغيب عن كل مناسبة للعبادة تقريباً مهما بدت جذابة."

قالت شارلوت بصوت خفيض وكأن القبول الإيجابي لاقتراحه قد يكون خطراً : "حسناً، أفترض أنك تعرف. ولكني أخشى أني سأتأخر."

قال الشاب:"آمل أن تحظي بموعظة لطيفة."

أجابت شارلوت: "أوه، السيد غيلمان لطيف على الدوام." ثم مضت في طريقها.

دخل السيد براند الحديقة، حيث كانت غرترود التي سمعت البوابة تغلق من خلفه، فالتفتت ونظرت إليه. ولبرهة، راحت تراقبه وهو يقترب منها، ثم التفتت بعيداً. ولكنها قامت على الفور تقريباً بتصحيح حركتها، ووقفت ساكنة في مواجهته. خلع قبعته ومسح جبينه وهو يقترب منها. وبعد أن خلع قبعته فإنك ستدرك أن جبهته كانت عريضة وملساء جداً، كما أن شعره كثيف إنما دون لون. كان أنفه كبيراً جداً أما فمه فكان صغيراً جداً وكذلك عيناه. ولكنه رغم

Twitter: @ketab_n

ذلك كله فقد كان، كما سبق أن قلت، شاباً ذا مظهر لافت للنظر. كان التعبير في عينيه الزرقاوين الصغيرتين الصافيتين لطيفاً وجاداً على نحو لا يمكن مقاومته. كان يبدو، كما يقول المثل "كالذهب الرنان جودة". نظرت الشابة، وهي تقف في ممشى الحديقة، إلى قفازه الرقيق وهو يتقدم منها.

قال:" كنت آمل أن تذهبي إلى الكنيسة، فقد أردت أن أتمشى معك."

أجالت غرترود:" أنا شديدة الامتنان لك. لن أذهب إلى الكنيسة."

كانت قد صافحته، وقد أمسك بيدها لبرهة. "هل لديك أي سبب خاص لعدم ذهابك؟"

قالت الشابة:" أجل يا سيد براند."

"هل لي أن أسألك ما هو؟"

نظرت إليه وهي تبتسم. وفي ابتسامتها، كما سبق أن ألمعت، كان هناك فتور معين. ولكن كان يمتزج بذلك الفتور شيء عذب وموح. قالت: "لأن السماء زرقاء جداً!"

نظر إلى السماء التي بدت رائعة، ثم قال وهو يبتسم أيضاً:" لقد سمعت عن سيدات شابات يقين في المنزل بسبب الطقس الرديء، ولكن ليس بسبب الطقس الجميل. قالت لي شقيقتك، التي قابلتها عند البوابة، إنك مكتئبة."

"مكتئبة؟ أنا لا أعرف الاكتئاب إطلاقاً."

أجاب السيد براند وكأنه ظنّ هذا وصفاً مؤسفاً للذات: " أوه طبعاً في بعض الأحيان."

Twitter: @ketab_n

كررت غرترود: " لا أعرف الاكتئاب إطلاقاً. ولكني أكون شريرة في بعض الأحيان. حين أكون شريرة تكون معنوياتي عالية. وكنت تصرفت للتو بشكل شرير مع أختي."

"ما الذي فعلته لها؟"

"قلت أشياء حيّرتها... وفعلت ذلك عن عمد."

سأل الشاب:" ولماذا فعلت ذلك يا آنسة غرترود؟"

بدأت تبتسم مجدداً: "لأن السماء زرقاء جداً!"

صرح السيد براند:" تقولين أشياء تحيرني."

استأنفت غرترود: "أعرف دائماً عندما أفعلها، ولكن الناس يحيرونني أكثر، كما أعتقد. ولا يبدو عليهم أنهم يعرفون."

قال السيد براند وهو يبتسم:"هذا مثير للاهتمام."

استأنفت الشابة كلامها فقالت: "طلبت مني أن أحكي لك عن ... صراعاتي".

"فلنتحدث عنها. لديّ الكثير لأقوله."

التفتت غرترود بعيداً لبرهة، ثم عادت والتفتت إليه. قالت:" الأجدر بك أن تذهب إلى الكنيسة."

ألح الشاب قائلاً: "تعرفين أن لديّ دائماً شيئاً واحداً أقوله."

نظرت غرترود إليه لبرهة. "أرجو ألا تقوله الآن!"

تابع قائلاً وهو يخلع قبعته :" نحن وحدنا، وحدنا في هذا الهدوء الجميل ليوم من أيام الأحد."

Twitter: @ketab_n

تلفتت غرترود من حولها ونظرت إلى البراعم المتفتحة والرقعة المنبسطة المومضة من الأرض والسماء الزرقاء التي ألمحت غرترود إليها على أنها السبب في تصرفاتها الشاذة، ثم قالت: "هذا هو السبب في أني لا أريدك أن تتكلم. اصنع لي معروفاً واذهب إلى الكنيسة."

سألها السيد براند:" هل لي أن أتكلم حين أعود؟" أجابت: إن كنت ما تزال تجد ميلاً إلى ذلك."

قال: "لا أعرف إن كنت شريرة، ولكنك محيّرة بكل تأكيد."

كانت قد التفتت مبتعدة عنه. رفعت يديها إلى أذنيها. نظر إليها لبرهة، ثم سار ببطء باتجاه الكنيسة.

تجولت لبرهة في الحديقة، في حالة من الإبهام ودون هدف. كان ناقوس الكنيسة قد توقف عن الرنين وأصبح الهدوء شاملاً. كانت هذه الشابة تستمتع إلى حد كبير، في بعض الأحيان، بالبقاء وحيدة: أي في غياب أفراد الأسرة كافة وخلو الدار. وفي هذا اليوم، كان من الواضح أن الخدم قد ذهبوا إلى الكنيسة أيضاً: لم يكن هناك أي شكل بشري يرى من خلف النوافذ؛ وخلف الدار لم تكن هناك زنجية بدينة ترتدي عمامة حمراء وتدلي بالدلو في البئر الكبيرة ذات الرأس الخشبية. كما كان الباب الأمامي للدارة الكبيرة غير المحروسة مفتوحاً بداعي الثقة المتأتية من العصر الذهبي، أو المتأتية من تلك الفترة الذهبية التي عرفتها نيو إنغلند(٥)، وهذا هو الأصح هنا. مرت غرترود ببطء عبر الباب وراحت تتجول بين الغرف الفارغة : كانت الغرف كبيرة مطلية بألوان فاتحة مكسوة جدرانها الداخلية بالخشب الأبيض

---

(٥) نيو إنغلند.

Twitter: @ketab_n

ومزينة بأثاث من خشب الماهوغاني بأرجل نحيلة، بنما زينت الجدران بنقوش قديمة الطراز تمثل مواضيع من الإنجيل ومعلقة عالياً. كان الحس اللطيف بالعزلة، وبأن الدارة لها وحدها، والذي سبق أن ذكرته، يثير مخيلة غرترود على الدوام. لم تكن تستطيع أن تخبرك بالسبب ولا يستطيع ذلك راوي حكايتها المتواضع. كان يبدو لها دائماً أن عليها أن تفعل شيئاً معيناً: أن عليها أن تعطي المناسبة حقها. وبينما تروح تتجول في أنحاء الدارة وهي تتساءل عما يمكنها فعله، تكون المناسبة قد انتهت في العادة. واليوم تساءلت أكثر من أي وقت مضى. وأخيراً تناولت كتاباً. لم تكن هناك مكتبة في الدار، ولكن كانت هناك كتب في جميع الغرف. لم يكن أي منها محظوراً، و لم تكن غرترود قد بقيت في البيت من أجل أن تنتهز الفرصة لتتسلق نحو الرفوف العليا التي يصعب الوصول إليها. وقد تناولت كتاباً ظاهراً جداً للعيان: واحداً من سلسلة " ألف ليلة وليلة"، وخرجت به إلى الشرفة وجلست ووضعته في حجرها. وبقيت هناك تقرأ لربع ساعة حكاية غرام الأمير قمر الزمان والأميرة بدور. وأخيراً رفعت نظرها لترى، كما بدا لها، الأمير قمر الزمان واقفاً أمامها. كان شاب جميل ينحني لها بشدة: وكانت الانحناءة رائعة إلى حد لم يسبق لها أن شاهدت لها مثيلاً. بدا وكأنه قد سقط من بين الغيوم؛ كما كان وسيماً إلى حد مدهش. ابتسم لها، وكانت ابتسامته تبدو متعمدة. أبقت الدهشة الشديدة غرترود، ولبرهة، جالسة في سكون. ثم نهضت دون أن تبقي إصبعها في الكتاب. وقف الشاب وقبعته في يده وهو ما يزال ينظر إليها ويبتسم ويبتسم. كان أمراً غريباً جداً.

قال الزائر الغامض أخيراً :"هل لك أن تتكرمي وتقولي لي إن كنت أنال شرف التحدث إلى الآنسة ونتويرث؟"

Twitter: @ketab_n

همهمت الشابة قائلة:" اسمي غرترود ونتويرث."

" إذن... إذن ... يشرفني... يسعدني... أن أكون ابن عمتك."

كان الشاب يتحلى إلى حد كبير بصفات شبح إلى حد أن تصريحه بدا وكأنه يتمّم صفته كشيء لاحقيقي. قالت غرترود: " أي ابن عمة؟ من أنت؟"

تراجع بضع خطوات قليلة ثم نظر إلى الدارة. ثم تلفت من حوله ناظراً إلى الحديقة والمنظر البعيد. وبعد ذلك انفجر ضاحكاً. قال:" أرى أن هذا قد يبدو لك شديد الغرابة. " وقد كان هناك على أي حال شيء مادي في ضحكته. نظرت غرترود إليه من الرأس إلى القدمين. أجل، كان وسيماً إلى حد لافت للنظر، ولكن ابتسامته كادت تكون تكشيرة. استأنف كلامه وهو يقترب مجدداً:" المكان هادئ جداً." وحين نظرت إليه فحسب كجواب، أضاف:" هل أنت وحدك؟"

قالت غرترود: " لقد ذهب الجميع إلى الكنيسة."

صاح الشاب:" كنت أخشى ذلك! ولكني آمل أنك لست خائفة مني."

أجابت غرترود: "عليك أن تخبرني من تكون؟"

قال الشاب: "أنا خائف منك! كانت لديّ خطة مختلفة. توقعت أني يأخذ الخادم بطاقتي وأنكما ستطلان معاً قبل إدخالي والتأكد من هويتي."

كانت غرترود تتساءل بحدة سريعة مما أوصلها إلى نتيجة؛ وبدت النتيجة جواباً- جواباً عجيباً وساراً- لرغبته الغامضة في أن يقع لها أمر ما. قالت:" أعرف.. أعرف.. أنت قادم من أوروبا."

Twitter: @ketab_n

" لقد وصلنا قبل يومين. لقد سمعت إذن بنا... أنت تؤمنين بوجودنا."

قالت غرترود:" لقد عرفنا ولكن بشكل مبهم أن لنا أقرباء في فرنسا."

سأل الشاب:" وهل سبق لكم أن رغبتم برؤيتنا؟"

صمتت غرترود لبرهة. " لقد أردت رؤيتكم."

"أنا سعيد إذن لأني صادفتك أنت. لقد أردنا أن نراكم، لذلك جئنا."

سألت غرترود: " لهذا الغرض بالذات؟"

تلفت الشاب من حوله وهو ما يزال يبتسم. "حسناً، أجل؛ لهذا الغرض بالذات." ثم أضاف قائلاً:" هل يبدو الأمر وكأننا سنثقل عليكم؟ لا أعتقد أننا سنفعل ذلك... حقاً لا أظن ذلك. نحن بالأحرى مولعان بالتجوال أيضاً. وقد سررنا لوجود حجة لذلك."

"وهل وصلتما للتو؟"

" وصلنا إلى بوسطن قبل يومين. في الفندق سألت عن السيد ونتويرث . لا بد أنه والدك. وقد وجدوا لي عنوان سكنه. لقد بدا وكأنهم قد سمعوا عنه كثيراً. وقد قررت القدوم دون مراسم. وهكذا حدث في هذا الصباح الجميل أن وجهوني في الاتجاه الصحيح وقالوا لي إن عليّ أن أسير باستقامة إلى خارج البلدة. وقد جئت سيراً على الأقدام لأني أردت التفرج على الريف. وقد سرت وسرت وهاأنذا! لا بد أن المسافة تبلغ أميالاً عديدة."

قالت غرترود بصوت خافت:"إنها سبعة أميال ونصف الميل.

Twitter: @ketab_n

والآن وبعد أن تبين أن هذا الشاب الوسيم حقيقة واقعة فقد وجدت نفسها ترتجف بغموض. لقد استثيرت مشاعرها بعمق. لم يكن قد سبق لها أن حادثت شخصاً أجنبياً طوال حياتها، وغالباً ما ظنت أن القيام بمثل هذا الأمر سيكن أمراً ممتعاً. وها هو شخص أجنبي يتخلّق من سكون يوم الأحد من أجلها هي بالذات. ويا له من شخص رائع ومهذب ومبتسم! وقد وجدت الوقت والوسيلة لتهدئ نفسها عل أي حال. وأيضاً لتذكر نفسها أن عليها أن تمارس نوعاً من الضيافة الرسمية. قالت:"يسرنا كثيراً ... جداً...أننا تعرفنا عليك. ألن تتفضل بالدخول إلى الدار؟" ثم تحركت نحو الباب المفتوح.

سأل الشاب مجدداً وهو يطلق ضحكته الخفيفة:" إذن أنت لست خائفة مني؟"

تساءلت لبرهة، ثم قالت: " نحن لا نخاف هنا."

صاح الشاب:" لكم يتوجب عليك أن تكوني على حق!" وذلك وهو يتطلع من حوله بإعجاب. كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها غرترود هذا العدد من الكلمات الفرنسية. وقد أثارها هذا إلى حد ما. لحق بها رفيقها وهو يراقب، مستثاراً هو أيضاً، هذه الفتاة طويلة القد ذات المظهر المثير للاهتمام، والتي ترتدي ثوب الموسلين النضر المتموج. توقف في حجرة الجلوس الرئيسية حيث كان هناك درج أبيض عريض بدرابزين أبيض. قال: " يالها من دارة لطيفة! وإنها أكثر نوراً في الداخل منها في الخارج."

قالت غرترود:" المكان ألطف هنا"، ثم قادته نحو الردهة: وهي غرفة عالية السقف نظيفة وتبدو فارغة بالأحرى. وهنا وقفا ينظر الواحد منهما إلى الآخر... الشاب يبتسم أكثر مما فعل سابقاً. أما

Twitter: @ketab_n

غرترود فكانت جادة وتحاول الابتسام.

قال: " لا أعتقد أنك تعرفين اسمي. أدعى فيليكس ينغ. أبوك خالي. كانت أمي أخته غير الشقيقة، وأكبر سناً منه."

قالت غرترود: "أجل، وقد اعتنقت مذهب الروم الكاثوليك وتزوجت في أوروبا."

قال الشاب:" أرى أنك تعرفين. لقد تزوجت ثم توفيت. لم تعجب أسرة أبيك بزوجها. كانوا يدعونه بالأجنبي، ولكنه لم يكن كذلك. كان والدي المسكين قد ولد في صقلية، إلا أن أبويه كانا أمريكيين."

همهمت غرترود: " في صقلية؟"

قال فيليكس ينغ : " صحيح أنهما قضيا عمرهما في أوروبا. ولكنهما كانا يتمتعان بالروح الوطنية. ونحن كذلك."

قالت غرترود:" وأنت صقلّي."

" صقلّي ، كلا! لنر. لقد ولدت في مكان صغير ... مكان صغير عزيز... في فرنسا. أما شقيقتي فولدت في فيينا."

قالت غرترود: "إذن فأنت فرنسي."

صاح الشاب:" لا سمح الله !" كانت عينا غرترود مثبتة عليه بإلحاح تقريباً. بدأ يضحك مجدداً. أستطيع بسهولة أن أكون فرنسياً، إن كان من شأن هذا أن يدعوك إلى السرور."

قالت غرترود: " أنت أجنبي من نوع ما."

" من نوع ما... أجل. أفترض ذلك. ولكن من يمكنه أن يقرر أي نوع من الأجانب أنا. لا أعتقد أنه قد سبق وأتيحت لنا الفرصة لتسوية

Twitter: @ketab_n

هذه المسألة. أنت تعلمين أن هناك أشخاصاً من هذا النوع. إنهم لا يستطيعون أن يقولوا لك إلى أي بلاد أو أديان أو مهن ينتمون."

وقفت غرترود هناك وهي تحدق. لم تكن قد طلبت منه الجلوس. لم يسبق لها أن سمعت عن أشخاص من هذا النوع. وقد أرادت أن تسمع المزيد. سألته:" وأين تقيم؟"

قال فيليكس: " لا يمكنهم أن يقولوا لك عن ذلك أيضاً. أخشى أنك ستعتقدين أننا لسنا سوى شخصين أفضل قليلاً من متشردين. لقد عشت في أي مكان... وفي كل مكان. أعتقد حقاً أني عشت في كل مدينة من مدن أوروبا." زفرت غرترود زفرة صغيرة طويلة. وهذا ما جعل الشاب يبتسم لها مجدداً. وقد جعلتها ابتسامته تتورد قليلاً في الوجنتين. وحتى تخفي تورد وجنتيها سألته إن لم يكن جائعاً أو ظمآن بعد كل تلك المسافة الطويلة التي قطعها سيراً على الأقدام. كانت يدها في جيبها، وكانت تعبث بمفتاح صغير كانت أختها قد أعطتها إياه. قال وهو يصفق بيديه قليلاً: " يا سيدتي الشابة، أتمنى قدحاً من النبيذ."

ابتسمت غرترود وطأطأت برأسها، ثم خرجت بسرعة من الغرفة . وسرعان ما عادت وهي تحمل إناء كبيراً جداً في يد وصينية بالأخرى، كان فوقها كعكة كبيرة مستديرة مزينة من الأعلى. وحين أخرجت غرترود الكعكة من الخزانة فقد مرت بها لحظة وعي حادة بأن هذا الطعام كانت أختها قد قصدت أن تقدمه هي للسيد براند. أما قريبها من عبر البحار فكان يتطلع إلى النقوش الباهتة المعلقة عالياً. وحين دخلت التفت وابتسم لها وكأنهما كانا صديقين قديمين يلتقيان بعد انفصال. سألها:" هل ستخدمينني بنفسك؟ أشعر أني أعامل كواحد من الآلهة". كانت قد خدمت الكثير من الناس، ولكن لم يسبق لأي منهم أن قال لها ما قاله هذا الشاب. وقد أضافت هذه الملاحظة خفة

Twitter: @ketab_n

معينة على الخطوة التي سارت بها نحو المنضدة الصغيرة حيث كانت أقداح حمراء صغيرة... أقداح مزينة بغصينات ذهبية دقيقة، اعتادت شارلوت أن تنظفها من الغبار كل صباح بيديها. كانت الأقداح جميلة الشكل في رأي غرترود، وقد سرّها أن تعرف أن النبيذ كان جيداً: فقد كان ذاك نبيذ أبيها من صنف الماديرا[٦]. وقد وجده فيليكس ينغ ممتازاً. وقد تساءل عن السبب في أنه قيل له إنه لا يوجد نبيذ في أمريكا. وقد اقتطعت له مثلثاً كبيراً من الكعكة، وفكرت مجدداً بالسيد براند. جلس فيليكس هناك، وقدحه في يد والقطعة الضخمة من الكعكة في الأخرى ، وراح يأكل ويشرب ويبتسم ويتكلم. قال: " أنا جائع جداً. ولكني لست متعباً بالمرة. أنا لا أتعب قط. ولكني جائع جداً."

قالت غرترود: "عليك أن تمكث حتى الغداء في الساعة الثانية. سيكونون قد عادوا جميعاً من الكنيسة. ستقابل الآخرين."

سألها الشاب: " ومن هم الآخرون؟ صفيهم لي جميعاً."

"سترى بنفسك. أنت الذي عليك أن تحكي لي الآن عن شقيقتك."

قال فيليكس: "شقيقتي هي البارونة مونستر."

حين سمعت أن شقيقته بارونة، نهضت غرترود وراحت تتجول في أنحاء الغرفة ببطء أمامه. صمتت لبرهة. كانت تفكر في الأمر. سألت: " و لِمَ لم تأت معك؟"

" لقد أتت. إنها في بوسطن، في الفندق."

قالت غرترود وهي تنظر إليه: " سنذهب لمقابلتها."

---

(٦) الماديرا: خمر منسوبة إلى جزر ماديرا على الساحل الغربي لأفريقيا.

Twitter: @ketab_n

أجاب الشاب:"إنها ترجو ألا تفعلوا ذلك وهي ترسل لكم تحياتها. لقد أوفدتني لأعلن مقدمها. ستأتي وتقدم فروض الاحترام إلى والدك."

شعرت غرترود أنها ترتجف مرة أخرى. بارونة مونستر ترسل شاباً لامعاً لـ "يعلن" مقدمها، شأن ملكة سبأ حين حضرت لملاقاة سليمان؛ وذلك لتقدم "فروض احترامها" إلى السيد ونتويرث هادئ الطباع. وقد فرضت هذه المرأة نفسها على مخيلة غرترود على نحو فجائي فعال. ولبرهة، لم تكن تعرف إلا بالكاد ما تقوله، ولكنها سألت أخيراً:" ومتى ستأتي؟"

أجاب فيليكس الذي أراد أن يكون دمثاً: " حالما تسمحون بذلك. إنها نافدة الصبر."

قالت غرترود: " غداً إذن." كانت ترغب في أن تطرح مزيداً من الأسئلة عنها، ولكنها لم تكن تعرف إلا بالكاد ما يمكن توقعه من البارونة مونستر. "هل هي ... متزوجة؟"

كان فيليكس قد انتهى من تناول قطعة الكعك وقدح النبيذ. نهض وهو يثبّت على الشابة عينيه اللامعتين المعبرتين. "إنها متزوجة من أمير ألماني: الأمير أدولف، من سيلبرشتات– شركنشتاين. وهو ليس الأمير الحاكم ، بل الأخ الأصغر له."

حدقت غرترود إلى ذاك الذي أخبرها بتلك المعلومة: كانت شفتاها قد افترتا قليلاً. سألته أخيراً:" هل هي أميرة؟"

قال الشاب:" كلا، مركزها بالأحرى فريد من نوعه. فزواجها من

Twitter: @ketab_n

النوع المرغنطي[٧].

"مرغنطي؟" كانت تلك أسماء وكلمات جديدة بالنسبة إلى غرترود المسكينة.

" هذا هو الاسم الذي يطلقونه على الزواج الذي يعقد- كما تعرفين- بين سليل أسرة حاكمة وشخص من العامة. وقد منحوا يوجينيا لقب بارونة، تلك المرأة المسكينة. ولكن كان هذا هو كل ما استطاعوا فعله لها. إن الأمير أدولف- وهذا بيني وبينك- شخص مغفل، ولكن أخاه، الذي هو شخص ذكي، لديه مشاريع تخص هذا الأخ. ويوجينيا بالطبع تمثل صعوبات له. ولا أعتقد على أي حال أنها تكترث كثيراً لهذا الأمر، فهي امرأة شديدة الذكاء. وأنا على ثقة من أنك ستحبينها. ولكنها تريد أن تضايقهم. والآن، فإن كل شيء معلق."

بالنسبة إلى غرترود، بدت هذه اللهجة المرحة المرتجلة التي روى بها زائرها تلك الحكاية الرومانسية الغامضة، بدت شديدة الغرابة. ولكنها بدت أيضاً وكأنها تعبر عن إطراء لها، اعترافاً بحكمتها ونبلها. وقد أحست بوجود دزينة من الانطباعات تتحرك في داخلها، وأخيراً وجد أقوى هذه الانطباعات سبيله إلى التعبير بالكلمات؛ فسألت: " هل يريدون أن يفسخوا زواجها؟"

"هذا ما يبدو عليه الأمر."

" وضد إرادتها؟"

---

(٧) الزواج المرغنطي: زواج غير متكافئ بين شخص من أسرة أوروبية مالكة أو نبيلة وشخص من طبقة اجتماعية أدنى مقاماً، بشرط أن تظل منزلة الفريق الأدنى على حالها وأن لا يرث الأبناء لقب الفريق الأسمى أو ممتلكاته.

Twitter: @ketab_n

" ضد ما هو حقها."

قالت غرترود: " لا بدّ أنها تعيسة جداً!"

نظر زائرها إليها وهو يبتسم. رفع يده إلى قفا رأسه وأبقاها هناك لبرهة. أجابها:" هذا ما تقوله هي. هذه حكايتها. لقد طلبت مني أن أرويها لكم."

قالت غرترود: " احك لي المزيد."

"كلا، سأترك ذلك لها. إنها ترويها بشكل أفضل."

أطلقت غرترود تنهيدة صغيرة أخرى. قالت:" حسناً، إن كانت تعيسة، فسوف يسرني أنها جاءت إلينا."

كانت مهتمة جداً إلى حد أنها لم تلاحظ صوت وقع الخطوات على الشرفة. ومع ذلك فقد كان ذلك وقع خطوات استطاعت دائماً تمييزه. سمعته في حجرة الجلوس الرئيسية، ثم تطلعت إلى النافذة. كانوا جميعاً عائدين من الكنيسة: أبوها وأختها وأخوها وأولاد عمومتهم الذين كانوا يحضرون دوماً للغداء أيام الأحد. دخل السيد براند أولاً، وكان قد تقدم على الآخرين، لأنه كان ما يزال، على نحو جلي، ميالاً إلى أن يقول ما لم ترغب هي بأن يقوله قبل ساعة من الزمن. وقد دخل إلى الردهة وهو ينظر إلى غرترود. كان معه كتابان صغيران في يده. ولدى مشاهدته لرفيق غرترود توقف ببطء وهو ينظر إليه.

سأل فيليكس: "هل هذا ابن عمتي؟"

عندها رأت غرترود أن عليها أن تعرفهما الواحد إلى الآخر؛ ولكن أذنيها وأيضاً شفتيها– من التعاطف– كانت مليئة بكل ما كان قد سبق له ورواه لها. قالت: " هذا الأمير... أمير سيلبرشتات– شركنشتاين!"

Twitter: @ketab_n

انفجر فيليكس ضاحكاً، ووقف السيد براند وهو يحدق، بينما ظهر الآخرون، الذين دخلوا الدار، من خلفه في المدخل المفتوح.

Twitter: @ketab_n

-٣-

في ذلك المساء، وعلى وجبة العشاء، راح فيليكس ينغ يروي انطباعاته لشقيقته، بارونة مونستر. لقد لاحظت أنه عاد بأعلى معنويات ممكنة. ولكن هذه الحقيقة، كما رأتها، لم تكن سبباً في الابتهاج. لم يكن لديها سوى ثقة محدودة في أحكام أخيها: فقد كانت قدرته على تبني آراء تفاؤلية من النوع الذي يمكنه أن يجعل أجمل الألوان أشدها ابتذالاً. ومع ذلك، فقد افترضت أنه يمكن الوثوق من أنه يستطيع إعطاءها الحقائق المجردة. وبالتالي، فقد طلبت منه ببعض التوق أن يرويها لها. قالت:" أفترض، على الأقل، أنهم لم يطردوك من الباب، فقد مضى على غيابك نحو عشر ساعات."

صاح فيليكس: " يطردونني من الباب! لقد احتضنوني بقلوبهم. لقد ذبحوا العجل المسمّن."

"اعرف ما تريد قوله: إنهم مجموعة من الملائكة."

قال فيليكس: " بالضبط. إنهم مجموعة من الملائكة... هكذا ببساطة."

قالت البارونة: "هذا غامض جداً. وكيف بدوا لك؟"

" بدوا كما لم يسبق لك أن رأيت."

"أنا واثقة من أني ممنونة؛ ولكن هذا ليس واضحاً إلا بالكاد. هل

Twitter: @ketab_n

كانوا – أعني جدياً – مسرورين بمشاهدتك؟"

" كانوا مسحورين. كان هذا أكثر أيام حياتي مدعاة للفخر. لم يسبق أن احتفي بي على هذا النحـــو من قبل! أؤكد لك أني كنت سيد الموقف، يا أختي العزيزة، ليس أمامنا سوى أن نثبت اقدامنا. سنكون بارزين جداً في مجتمعهم."

نظرت المدام مونستر إليه، وأظهرت عيناها شرارة استجابة خفيفة. لمست شفتيها بقدح النبيذ، ثم قالت: "صفهم لي. أعطني صورة."

أفرغ فيليكس قدحه. "حسناً بيتهم في الريف بين المروج والغابات. مكان موحش نوعاً ما، ومع ذلك ليس بعيداً جداً من هنا. ولكن يا له من طريق! يا إلهي! تخيلي واحداً من الأنهار الجليدية في جبال الألب وقد تحول إلى وحل. ولكنك لن تقضي وقتاً طويلاً عليه، فهم يريدون منك أن تذهبي إليهم وتمكثي هناك بشكل دائم."

قالت البارونة:" آه، يريدون مني الحضور والبقاء بشكل دائم ؟ حسناً."

" المكان ريفي إلى حد كبير وطبيعي إلى حدّ هائل. ويتدلى فوقه ذلك النور الأبيض الغريب وتلك السماء الزرقاء البعيدة. هناك دارة كبيرة من الخشب... نوع من البيوت الريفية بثلاثة طوابق. يبدو كتلك البيوت المنمنمة التي تصنع في نورنبرغ كألعاب ولكن بشكل مضخم. وكان هناك رجل نبيل أتحفني بخطاب عن الدارة ودعاها بـ (القصر الجليل). ولكنها تبدو وكأنها بنيت في الليلة الماضية."

سألت البارونة: "هل هي جميلة... هل هي أنيقة؟"

نظر إليها فيليكس لبرهة وهو يبتسم. "إنها نظيفة جداً! لا توجد أشياء فخمة، أو طلاء بالذهب، ولا ذلك العدد الكبير من الخدم. هناك

Twitter: @ketab_n

بالأحرى كراس ذات مساند ظهر مستقيمة."

" لا بدّ أن هذه ميزة. والسكان من ذوي الظهور المستقيمة أيضاً بالطبع."

قال فيليكس: " يا أختي العزيزة، السكان فاتنون."

" بأي أسلوب؟"

" بأسلوب خاص بهم. كيف لي أن اصف ذلك؟ إنه بدائي، بطريركي. له نفحة العصر الذهبي."

"وماذا عنهم؟ أليس لديهم أي شيء ذهبي عدا تلك النفحة؟ أليس هناك أي أعراض تدل على الثروة؟"

"عليّ أن أقول إن هناك ثروة دون أعراض. أسلوب حياة بسيط غير متكلف. لا شيء للتظاهر، والقليل ... ما يمكنني أن أدعوه؟... من الذي يخاطب الحواس. ولكن هناك رغد عظيم، والكثير من المال، بعيداً عن الأنظار، وهو يتقدم بهدوء للمساهمة في تمويل المؤسسات، ولترميم المسكن؛ وربما حتى دفع دوطات للبنات."

سألت المدام مونستر: "والبنات؟ كم عددهن؟"

"هناك اثنتان: شارلوت وغرترود."

" هل هما جميلتان؟"

قال فيليكس: "إحداهما."

"أيهما؟"

صمت الشاب وهو ينظر إلى أخته. وأخيراً قال: "شارلوت."

نظرت إليه هي أيضاً. "أرى ذلك. لقد وقعت في حب غرترود.

Twitter: @ketab_n

لا بد أنهما بيوريتانيتان حتى رؤوس أصابعهما، أي شيء عدا أنهما مرحتان."

أقر فيليكس: "أجل، ليستا مرحتين. إنهما جديتان. إنهما متزمتتان حتى. إنهما من النوع الميال إلى التأمل والحلم. إنهما تأخذان الأمور بجد. أعتقد أن هناك أمراً ما يقلقهما. لديهما ذكرى كئيبة ما أو أنهما تتوقعان حدوث أمر حزين ما. ليس ذاك هو المزاج الأبيقوري[٨]. أما خالي، السيد ونتويرث، فهو رجل عجوز رفيع الأخلاق إلى حد كبير. ويبدو عليه وكأنه يمر بحالة استشهاد، ليس حرقاً بالنار، وإنما برداً بالتجميد. ولكننا سنرفع لهم معنوياتهم. سنكون مفيدين لهم. سيحتاجون إلى الكثير من الحثّ، ولكنهم كرماء ولطيفون إلى حد مدهش. وهم يقدّرون الأمور حق قدرها. كما أنهم يعتبرون المرء ذكياً ويعتبرونه رائعاً."

قالت البارونة: "هذا جيد جداً، حتى الآن. ولكن هل سيقتصر أمرنا على وجود هؤلاء الثلاثة فقط، أعني السيد ونتويرث والشابتين... ما كان الاسمان اللذان ذكرتهما؟ ديبورا وهفزيباه؟[٩]

"أوه كلا. هناك بنت صغيرة أخرى، ابنة خال لهما . فتاة صغيرة وجميلة جداً، بنت أمريكية بالكامل. ثم هناك ابن الأسرة."

قالت البارونة: "جيد. وصلنا أخيراً إلى السادة. كيف هو ابن الأسرة ذاك؟"

---

(٨) الأبيقوري: المنغمس في اللذات الحسية.

(٩) ديبوراه : عرافة والأنثى الوحيدة بين قضاة "العهد القديم". أما "حفصيبة" فهي زوجة الملك حزقيا وأم الملك منسّى في "العهد القديم".

Twitter: @ketab_n

"أظن أنه من النوع الثمل."

"إذن فهو يتحلى بالمزاج الأبيقوري! كم يبلغ عمره؟"

"إنه فتى في العشرين؛ شاب وسيم، ولكني أخشى من أنه يتمتع بذوق سوقي.. ثم هناك السيد براند... شاب طويل القامة جداً، نوع من الواعظين غير الإكليركيين. ويبدو أنهم يحترمونه جداً، ولكني لم أفهمه بالضبط."

سألت البارونة:" ولكن أليس هناك أي شيء بين هذه الحدود القصوى: أعني هذا الكاهن الغامض وذلك الشاب المدمن على المسكرات؟"

قال الشاب وهو يومئ برأسه إلى شقيقته: "أوه أجل. هناك السيد أكتون. كما أظن، وأعتقد أنك ستميلين إليه."

قالت البارونة: " تذكر أني صعبة الإرضاء إلى حد كبير. هل يتحلى بسلوك جيد جداً؟"

" سيكون سلوكه جيداً جداً معك . إنه رجل مجرّب واسع الخبرة. لقد زار الصين."

أطلقت المدام مونستر ضحكة صغيرة. "رجل من العالم الصيني! لا بد أنه سيكون مثيراً جداً للاهتمام."

قال فيليكس: " أظن أنه عاد إلى الوطن بثروة."

" هذا مثير للاهتمام على الدوام. هل هو شاب ووسيم وذكي؟"

أضاف الشاب: "عمره أقل من الأربعين وهو أصلع الرأس. يقول أشياء ذكية. أعتقد أنه سيعجب البارونة مونستر."

Twitter: @ketab_n

قالت السيدة: " هذا ممكن جداً." لم يكن شقيقها قادراً أبداً على معرفة الطريقة التي تفهم بها الأمور. إلا أنها أعلنت بعد قليل أن وصفه كان جيداً جداً، وأنها ستذهب في الغد وترى بنفسها.

وهكذا ركبا بروشة[١٠] كبيرة ... وهي عربة لم تستطع البارونة أن تجد فيها ما تنتقده سوى الأجر الذي طلب لأجلها وأن سائقها كان يرتدي قبعة من القش. (في سيلبرشتات كان خدم المدام مونستر يرتدون بزات باللونين الأصفر والقرمزي.) وهكذا سارت بهما العربة في الريف، وكانت البارونة تستند إلى الخلف في مقعدها وتؤرجح مظلتها ذات الحواف المزركشة، وتنظر يميناً وشمالاً وهي تراقب الأشياء على جانبي الطريق. وبعد فترة قصيرة وصفتها بأنها "رهيبة". لا حظ شقيقها أنه ريف صورته الأمامية أقل شأناً من الأماكن المنزوية. فأضافت البارونة أن المنظر الطبيعي يبدو كله وكأنه صورة أمامية. كان فيليكس قد ضرب موعداً مع أصدقائه محدداً الساعة التي سيصل بها مع شقيقته؛ وكانت الرابعة بعد الظهر. وقد بدا المنزل ذو الواجهة النظيفة، مع اقتراب العربة منه، ودوداً في عيني الشاب. كانت شجرات الدردار الرشيقة السامقة تعطي ظلالاً طويلة أمام المنزل. ترجلت البارونة . كان أقرباؤها الأمريكيون واقفين في الرواق المعمد أمام المدخل. لوح فيليكس بقبعته لهم، وتقدم رجل طويل نحيل ذو جبين مرتفع ووجه حليق من بوابة الحديقة. كانت شارلوت ونتويرث تسير إلى جانبه. أما غرترود فسارت خلفهما ببطء أكبر. ارتدت كل من الشابتين ثوباً حريرياً ذا حفيف. قاد فيليكس شقيقته نحو البوابة وقال لها:" كوني شديدة اللطف. " ولكنه رأى أن هذا التحذير لم يكن

---

(١٠) بروشة: مركبة ذات أربع عجلات ومقعدين متقابلين وغطاء قابل للطي.

Twitter: @ketab_n

ضرورياً إذ كانت يوجينيا مستعدة لأن تكون لطيفة بقدر ما يمكن فقط ليوجينيا أن تكون. لم يعرف فيليكس سعادة أكبر من سعادته لأنه قادر على الإعجاب بشقيقته دون حدود. ورغم أن الفرصة كانت متكررة الحدوث، إلا أنها لم تصبح مستحكمة بعد. وحين كانت ترغب في أن تبث السرور والرضا، فقد كانت بالنسبة إليه، كما إلى كل شخص آخر، أكثر نساء العالم فتنة. ثم نسي أنها كانت أي شيء آخر؛ وأنها كانت أحياناً قاسية ومناكدة، وأنه كان يخاف منها أحياناً. والآن، وبينما كانت تمسك بذراعه لتمر عبر الحديقة، شعر أنها كانت راغبة في أن تبث السرور والرضا، وأن هذا الوضع يجعله في منتهى السعادة. يوجينيا ستبث السرور والرضا.

وصل السيد الطويل القامة لمقابلتها، وهو يبدو شديد التصلب والجدية. ولكنه كان تصلباً دون معنى ينم عن ضيق العقل. كان سلوك السيد ونتويرث مترعاً، على الضد من ذلك، بحس المسؤولية العظيمة، بمهابة المناسبة، وأنه من الصعب إظهار الاحترام الكافي لسيدة هي في آن معاً متميزة جداً وتعيسة جداً. كان فيليكس قد لاحظ في اليوم السابق شحوب خاله المميز؛ والآن أدرك أن هناك شيئاً يكاد يكون شحوباً كشحوب الأموات في وجه خاله الأبيض الشامخ الملامح. ولكن كانت عواطف وأحاسيس هذا الشاب السريعة ذكية جداً حتى أنها جعلته يدرك سلفاً أن هذه العلامات الموحية بالموت لا تدعو إلى القلق. كانت مخيلته المشرقة قد خطفت لمحة من آلية السيد ونتويرث الروحية، وأعلمته هذه أن الرجل العجوز ذو ضمير حيّ إلى حد لا نهائي ، إذ كانت العملية الخاصة لضميره في داخله تعلن عن نفسها بعدد كبير من المؤشرات الظاهرة في ضعفه البدني.

أمسكت البارونة بيد خالها، ووقفت وهي تنظر إليه بوجهها

Twitter: @ketab_n

القبيح وابتسامتها الجميلة. سألته: " هل أنا محقة في القدوم إليكم؟"

قال السيد ونتويرث بوقار: " محقة جداً، محقة جداً." كان قد حضّر في ذهنه خطاباً صغيراً؛ ولكن هذا الخطاب تلاشى تماماً. شعر بالخوف تقريباً. لم يكن قد سبق له وتعرض لأن ينظر إليه على هذا النحو – مع تلك الابتسامة الثابتة المركّزة – من قبل أي امرأة. وقد أربكه وأثقل عليه الآن أن المرأة التي تبتسم له على هذا النحو، والتي قد سببت له الشعور بذلك الحس الحيوي بأنها تمتلك مميزات أخرى لا نظير لها، كانت ابنة أخته، أي ابنة ابنة أبيه. كانت فكرة أن ابنة أخته هذه يجب أن تكون بارونة ألمانية متزوجة " زواجاً مرغنطياً" من أمير، قد سبق لها وجعلته يفكر في كثير من الأمور. هل كان ذلك صحيحاً، هل كان عادلاً، هل كان مقبولاً؟ كان يعاني من مشاكل في النوم، وفي الليلة السابقة استلقى مستيقظاً أكثر بكثير من المعتاد، وهو يطرح على نفسه هذه الأسئلة. أما الكلمة الغريبة "مرغنطي" فكانت ترنّ باستمرار في أذنيه. وقد ذكرته بامرأة كان اسمها "السيدة مورغان" كان يعرفها ذات مرة، وكانت امرأة جريئة غير لطيفة. كان لديه إحساس بأن من واجبه، مادامت البارونة تنظر إليه وتبتسم بتلك الطريقة، أن يواجه نظرتها بعينيه الشكاكتين والباردتين عل نحو متعمد: ولكن فشل في هذه المناسبة في تأدية واجبه حتى النهاية. التفت إلى ابنتيه. قال: "يسرنا كثيراً مشاهدتك. اسمحي لي أن أقدم لك ابنتيّ: الآنسة شارلوت ونتويرث والآنسة غرترود ونتويرث."

فكرت البارونة في أنه لم يسبق لها أن شاهدت أشخاصاً متحفظين إلى هذا النحو. ولكن شارلوت قبّلتها وأمسكت بيدها وهي تنظر إليها بعذوبة ووقار. بدت غرترود شديدة الكآبة، رغم أنه كان من شأن غرترود أن تجد مصدراً للمرح من حقيقة أن فيليكس، بابتسامته

Twitter: @ketab_n

الرائعة، كان يحادثها. كان قد حيّاها كصديقة قديمة جداً. وحين قبّلت البارونة كانت هناك دموع في عينيها. أمسكت المدام مونستر كلتا الشابتين بيديها وراحت تمعن النظر فيهما. رأت شارلوت أن هذه المرأة غريبة جداً وأن ملابسها فريدة من نوعها. لم تكن تستطيع أن تقرر إن كانت جيدة أم سيئة. كانت سعيدة، على أي حال، لأنها و أختها رتدتا ثوبيهما الحريريين .... قالت البارونة: "ابنتا خالي جميلتان جداً"، وذلك وهي تنقل عينيها بين الواحدة والأخرى. " ابنتاك وسيمتان جداً يا سيدي."

توردت وجنتا شارلوت بسرعة. لم يسبق لها أن سمعت تلميحاً إلى مظهرها الشخصي بصوت عال ومعبر. أما غرترود فأشاحت بنظرها ... ولكن ليس باتجاه فيليكس. كانت مسرورة جداً. لم يكن الإطراء هو من سرّها، فهي لم تصدقه؛ إذ كانت تعتبر نفسها عادية المظهر إلى حد كبير. و لم تكن تستطيع إلا بالكاد أن تخبرك بسبب شعورها بالرضا. وقد حدث بسبب شيء ما في الطريقة التي كانت البارونة تتكلم بها، و لم يقلل منه – بل ويا للعجب فد زاد فيه – عدم تصديق الشابة لذلك الإطراء. كان السيد ونتويرث صامتاً؛ ثم قال: " ألن تدخلوا إلى المنزل؟"

قالت البارونة:" ليست هاتان الفتاتان كل نسلك. لديك أنجال آخرون."

قال السيد ونتويرث: " لديّ ابن."

صاحت يوجينيا: " و لم لا يأتي لمقابلتي؟ أخشى أنه ليس فاتناً بقدر ما هما شقيقتاه."

صرح الرجل المسن: "لا أعرف. سأنظر في الأمر."

Twitter: @ketab_n

قالت شارلوت بصوت خفيض:" إنه يخشى السيدات بعض الشيء. "

قالت غرترود بأعلى صوت تستطيعه: " إنه وسيم جداً."

"سنذهب ونجده. سنخرجه من مخبئه". تأبطت ذراع السيد ونتويرث الذي لم يكن مدركاً أنه قدم لها ذراعه، والذي تساءل – وهم يسيرون نحو المنزل– ما إذا كان عليه أن يقدم لها ذراعه، وما إذا كان أمراً أكثر ملاءمة بالنسبة إليها أن تكون هي من تابط ذراعه لو لم يكن هو قد قدمها لها. قالت البارونة وهي تقاطع هذه التأملات: " أريد أن أتعرف عليكم جيداً. وأريد منكم أن تتعرفوا عليّ."

قال السيد ونتويرث: "يبدو من الطبيعي أن نتعرف جميعاً واحدنا على الآخر. نحن أقرباء لحاً."

قالت يوجينيا:"آه، تطرأ في الحياة تلك اللحظة التي يلوذ بها المرء، دون أن يستطيع المقاومة، بروابطه الطبيعية، بعواطفه الطبيعية. لا شك أنك قد تعرف ذلك."

كان فيليكس قد أبلغ السيد ونتويرث في اليوم السابق أن يوجينيا حادة الذكاء وشديدة الألمعية. وكانت هذه المعلومة قد جعلته يقع في حالة ترقب. كان هذا هو الذكاء الذي افترضه؛ أما الألمعية فكانت قد بدأت تظهر. همهم قائلاً: " أجل العواطف الطبيعية قوية جداً."

أعلنت البارونة: " لدى بعض الناس وليس جميعهم." كانت شارلوت تسير إلى جانبها. أمسكت بيدها مجدداً وهي تبتسم على الدوام. استأنفت قائلة:" وأنت يا ابنة خالي، من أين حصلت على هذه البشرة الساحرة؟ هذه السوسنات والورود!" بدأت الورود في وجنتي شارلوت المسكينة تكسف السوسنات، فأسرعت في سيرها

Twitter: @ketab_n

ووصلت إلى الرواق المعمّد. تابعت البارونة قائلة وهي تخاطب السيد ونتويرث: " هذه بلد البشرات ذات الألوان الجميلة. أنا على ثقة أنها أكثر رقة. هناك بشرات جيدة جداً في إنكلترا وهولندا، ولكن من شأنها أن تكون خشنة. هناك الكثير من اللون الأحمر فيها."

قال السيد ونتويرث: "أعتقد أنك ستجدين هذا البلد متفوقاً في نواح كثيرة فيما يخص الموضوع الذي ذكرت. لقد زرت إنكلترا وهولندا."

صاحت البارونة:"أوه، هل سبق وزرت أوروبـا؟ لم لم تحضر لرؤيتي؟ ولكن الأمر أفضل هكذا على أي حال." كانوا يدخلون المنزل. توقفت ونظرت فيما حولها. "أرى أنك رتبت منزلك– منزلك الجميل – حسب الذوق الهولندي."

قال السيد ونتويرث: " المنزل قديم جداً. لقد أمضى فيه الجنرال واشنطن أسبوعاً ذات مرة."

صاحت البارونة: "أوه، لقد سمعت بواشنطن. كان أبي يمجده."

صمت السيد ونتويرث لبرهة ثم قال: " وجدت أنه معروف جيداً في أوروبا."

كان فيليكس قد تمهل في الحديقة مع غرترود. كان يقف قبالتها ويبتسم كما فعل في اليوم السابق. بدا لها ما حدث في اليوم السابق كنوع من الحلم. لقد وصل يوم أمس وبدّل كل شيء. كان الآخرون قد شاهدوه وتحدثوا إليه. ولكن أن يأتي مجدداً، وأن يكون جزءاً من المستقبل، جزءاً من حياتها الصغيرة المألوفة كثيرة التأمل؛ كان كل هذا في حاجة من جديد إلى دليل تبرهن عليه حواسها. ولكن الدليل كان قد بلغ حواسها الآن، وبدا أن حواسها كانت مغتبطة به. سألها

Twitter: @ketab_n

فيليكس: " ما رأيك بيوجينيا؟ أليست فاتنة؟"

قالت غرترود: " إنها ألمعية. ولكني لا أستطيع أن أحكم الآن. تبدو لي وكأنها مغنية تؤدي أغنية ما. لا يمكنك أن تحزر حتى تنتهي الأغنية."

هتف الشاب ضاحكاً: "أوه، لن تنتهي الأغنية أبداً! ألا ترينها وسيمة؟"

كانت غرترود قد شعرت بخيبة الأمل فيما يخص جمال البارونة مونستر. كانت قد توقعت، لأسباب غامضة، أن تشبه لوحة جميلة جدا للإمبراطورة جوزفين كان نقش لها معلق في إحدى غرف الاستقبال، والتي كانت الآنسة ونتويرث الصغرى تتأملها بإعجاب باستمرار. ولكن البارونة لم تكن كتلك الصورة ... إطلاقاً. ورغم اختلافها على أي حال، فقد كانت رائعة جداً، وأحست غرترود بنفسها وكأنه تم تصحيح رأيها بشكل موح. كان أمراً غريباً على أي حال، أن يتكلم فيليكس بكل ذلك الأسلوب الإيجابي عن جمال شقيقته. قالت غرترود: "أعتقد أني سأظن أنها وسيمة. لاشك أنه سيكون أمراً ممتعاً جداً أن أعرفها. لا أشعر أني سأتمكن من ذلك أبداً."

" آه، ستعرفينها جيداً. ستصبحان صديقتين عظيمتين"، هكذا صرح فيليكس وكأنه كان أسهل الأمور في هذا العالم.

قالت غرترود وهي تنظر إلى البارونة التي كانت تتعلق بذراع أبيها:" إنها رشيقة جداً. " كان من دواعي سرورها أن تقول عن أي شخص إنه رشيق.

كان فيليكس يتلفت في ما حوله. قال: " وابنة خالك الصغيرة التي رأيتها البارحة، والتي كانت جميلة إلى حد رائع... ما الذي حل بها؟"

Twitter: @ketab_n

أجابت غرترود: "إنها في غرفة الاستقبال. أجل، إنها جميلة جداً." شعرت وكأنه كان من واجبها أن تدخله إلى البيت مباشرة، حيث يمكن له أن يكون قريباً من ابنة خالها. ولكن بعد أن ترددت لبرهة فقد توقفت. قالت: " لم أصدق أنك ستعود."

صاح فيليكس ضاحكاً: " لا أعود؟ أنت لم تدركي إذن الانطباع الذي تركت على قلبي الرقيق هذا."

تساءلت ما إذا كان يعني بذلك الانطباع الذي تركته ابنة خالها ليزي. قالت: " حسناً، لم يخطر لي أننا سنراك مرة أخرى."

"أرجوك، ما الذي ظننت أنه سيحدث لي؟"

"لا أعرف. ظننت أنك ستذوب وتختفي."

قال فيليكس:"هذا إطراء لصلابتي! فأنا غالباً ما أذوب، ولكن هناك دائماً شيء ما يتبقى مني."

مضت غرترود قائلة:" لقد جئت وانتظرتكما قرب الباب لأن الآخرين فعلوا ذلك. ولكن لو أنك لم تظهر قط، لما كنت سأفاجأ."

صرح فيليكس وهو ينظر إليها:"آمل ألا تكوني قد أصبت بخيبة الأمل."

نظرت إليه قليلاً وهزت رأسها. قالت: " لا...لا!"

صاح الشاب: "آه، مثلاً! أنت تستحقين ألا أتركك أبداً."

ما أن دخلا غرفة الاستقبال حتى وجدا السيد ونتويرث يقوم بتقديم البارونة إلى الآخرين. كان هناك شاب يقف قبالة البارونة ووجهه يتورد كثيراً، ويضحك قليلاً، وهو ينقل وزنه من قدم إلى أخرى... شاب نحيل ذو وجه رقيق الملامح وسيمها، ويشبه السيد ونتويرث.

Twitter: @ketab_n

أما الرجلان الآخران، خلفه، فكانا قد نهضا من مقعديهما، بينما كانت تقف بعيدة عنهما قليلاً، قرب إحدى النوافذ، فتاة صغيرة جميلة بصورة لافتة للأنظار. كانت الفتاة تحوك جورباً، ولكن بينما كانت أناملها تتحرك بسرعة، فقد كانت تنظر بعينيها الواسعتين اللامعتين إلى البارونة.

قالت يوجينيا وهي تبتسم للشاب: "وما هو اسم ابنك؟"

قال بصوت مرتجف: "اسمي هو كليفورد ونتويرث."

سألت البارونة بابتسامتها الجميلة: " و لم لم تخرج لمقابلتي يا سيد كليفورد ونتويرث؟"

قال الشاب وهو يتحرك جانبياً ببطء:" لم أعتقد أنك تريدين مقابلتي."

" يود المرء على الدوام أن يلتقي بابن خاله لحاً ... إن كان لديه ابن خال كهذا! ولكن لو كنت لطيفاً جداً معي في المستقبل فلن أتذكر هذا الأمر ضدك." ثم نقلت المدام مونستر ابتسامتها إلى الشخص الآخر الحاضر هناك. وقد حطتها أولاً على الوجه الصريح وجسم السيد براند المغطى بثياب طويلة الحواشي، الذي كانت عيناه مثبتتين بتصميم على السيد ونتويرث، وكأنه يرجوه ألا يطيل هذا الوضع الشاذ. تلفظ السيد ونتويرث باسمه . نظرت إليه يوجينيا بطريقة فاتنة جداً، ثم نظرت إلى الرجل الآخر.

كان الشخص الآخر رجلاً أقصر قامة وأخف وزناً من المعتاد، مع عينين قاتمتين سريعتين يقظتين لطيفتين، وكمية قليلة من الشعر الداكن الخفيف وشارب صغير. كان واقفاً ويداه في جيبيه. وحين نظرت إليه يوجينيا، فقد أخرجهما. ولكنه لم يفعل ما فعله السيد براند، أي أنه

Twitter: @ketab_n

لم ينظر نظرات مراوغة وملحّة إلى مضيفهم. لقد واجه عيني يوجينيا. بدا عليه وكأنه يثمن ميزة مواجهة تينك العينين. شعرت المدام مونستر على الفور أنه كان– من حيث الجوهر– أكثر الحاضرين أهمية. لم تكن غافلة عن أن هذا الانطباع كان يتجلى إلى حد ما في الهزة المتعاطفة الصغيرة من رأسه والتي ردّ بها على إعلان السيد ونتويرث: "ابن خالي، السيد أكتون!"

قالت البارونة: " ابن خالك، أليس هو قريبي أنا أيضاً؟"

أعلن السيد أكتون ضاحكاً: "هذا يعتمد عليك فحسب."

نظرت البارونة إليه لبرهة ولاحظت أن أسنانه كانت بيضاء جداً. قالت: "سيعتمد ذلك على سلوكك. أعتقد أنه يجدر بي الانتظار. لديّ ما يكفي من أولاد الخال، هذا ما لم أتمكن أنا أيضاً من الزعم بوجود صلة قربى مع هذه السيدة الصغيرة الفاتنة." وهنا أشارت إلى الفتاة الصغيرة عند النافذة.

قال السيد أكتون: "هذه شقيقتي". وأحاطت غرترود ونتويرث الفتاة الصغيرة بذراعها وقادتها نحو الأمام. لم تكن على ما هو ظاهر في حاجة إلى من يقودها. تقدمت نحو البارونة بخطوات خفيفة وسريعة، وبرباطة جأش تامة، وهي تلف الجورب حول صنارتها. كانت عيناها زرقاوين داكنتين وشعرها بنياً غامقاً. كانت جميلة إلى حد رائع.

قبّلتها يوجينيا كما سبق وقبّلت الشابتين الأخريين، ثم أبعدتها عنها قليلاً وهي تنظر إليها: "والآن هذه ذات نمط مختلف" وقد استعملت أسلوب اللفظ الفرنسي وهي تنطق بهذه الكلمة الأخيرة. "هذه صورة مختلفة يا خالي، صورة مختلفة عن صورة ابنتيك." ثم استأنفت قائلة:

Twitter: @ketab_n

" هذا يا فيليكس هو النمط الذي اعتقدنا دائماً أنه النمط الأمريكي."

كانت الفتاة الصغيرة خلال هذا العرض تبتسم بارتياب لكل شخص على حدة، ثم تبتسم لفيليكس دون أن تلتزم بالترتيب الصحيح.. صاح فيليكس ضاحكاً: : "ما أراه هنا نمط واحد فحسب! النمط الفاتن جداً!"

تم استقبال هذه العبارة المفاجئة بصمت تام، ولكن فيليكس، الذي كان سريع التعلم في جميع الأمور، قد سبق له وأدرك أن الصمت الذي غالباً ما يلاحظ حصوله بين الأشخاص الذين تعرفوا للتو الواحد منهم على الآخر، لم يكن بالضرورة حصرياً أو يدل على الامتعاض. لقد كان، كما يمكننا أن نقول، صمت التوقع والتواضع. كانوا جميعاً يقفون من حول شقيقته، وكأنهم يتوقعون منها أن تبرئ نفسها من استعراض بعض المقدرة الشخصية العجيبة أو الموهبة الألمعية. كان موقفهم يبدو وكأنه يوحي بأن البارونة كانت نمطاً من أنماط النساء المشعوذات البارعات بالحديث ، ولكنها ترتدي – فكرياً– ملابس من الغزّ والترتر. وقد أضفى هذا الموقف قوة تهكمية على العبارات التالية التي تلفظت بها المدام مونستر. قالت لخالها: " إذن، هذه هي حلقتك. هذا صالونك. هذه هي عاداتك المألوفة، أليس كذلك؟ أنا سعيدة جداً لمشاهدتكم جميعاً معاً."

قال السيد ونتويرث: " أوه، إنهم يدخلون ويخرجون إلى الدوام. وعليك أن تفعلي الشيء نفسه."

تدخلت شارلوت ونتويرث قائلة:" يا أبي، عليهما أن يفعلا ما هو أكثر." ثم التفتت بوجهها العذب الجدي الذي بدا في آن معاً خجولاً وهادئاً، نحو زائرتهم المثيرة للاهتمام. سألت: " ما اسمك؟"

Twitter: @ketab_n

قالت البارونة وهي تبتسم: "يوجينيا – كاميليا– دولوريس. ولكن لا حاجة بك إلى أن تناديني بها كلها."

" سأناديك بيوجينيا إذا سمحت لي. عليك أن تأتي وتسكني معنا."

وضعت البارونة يدها على ذراع شارلوت برقة شديدة، ولكنها عادت لتتحفظ. كانت تتساءل ما إذا كان ممكناً "السكن" مع هؤلاء الناس. قالت: " سيكون أمراً رائعاً جداً... رائعاً جداً." ثم جالت بعينيها على وجوه الصحبة من حولها، ثم في أرجاء الغرفة. تمنت لو تستطيع أن تكسب بعض الوقت قبل أن تلزم نفسها. سقطت نظرتها على السيد براند الشاب، الذي كان واقفاً هناك وقد طوى ذراعيه ووضع يده على ذقنه، وهو ينظر إليها. أضافت مخاطبة السيد ونتويرث وهي تخفض من نبرة صوتها: " أعتقد أن هذا السيد كاهن من نوع ما."

أجاب السيد ونتويرث: " إنه قس."

سألت يوجينيا: " بروتستانتي؟"

أجاب السيد براند بلجة مثيرة للإعجاب: " أنا موحّد[١١] يا سيدتي."

قالت يوجينيا: "آه، أرى ذلك. هذا شيء جديد." لم يكن قد سبق لها وسمعت بهذا النوع من الطوائف."

بدأ السيد أكتون بالضحك، ونظرت غرترود بقلق إلى السيد براند.

---

(١١) موحّد : الموحدون طائفة مسيحية ترفض التثليث وتقول بالتوحيد.

Twitter: @ketab_n

قال السيد ونتويرث: " لقد جئتما من مكان بعيد جداً."

" بعيد جداً... بعيد جداً" ، قالت البارونة بهزة رشيقة من رأسها، هزة كان يمكنها أن تعني كثيراً من الأشياء.

قال السيد ونتويرث بذلك الجفاف في اللفظ والذي لم يفت على يوجينيا ملاحظته بذكائها وإن لم يكن قد خفف من رقة معناه: " هذا هو السبب الذي يوجب عليكما أن تستقرا معنا."

نظرت إليه، ولبرهة، بدأت ترى في وجهه البارد الساكن شبهاً قصياً مع صورة أمها التي تتذكرها بشكل غامض. كانت يوجينيا امرأة تتحلى بعواطف فجائية، والآن، ودون توقع، أحست بعاطفة تبزغ في قلبها. ظلت تتطلع إلى وجوه أفراد الحلقة، وعرفت بوجود إعجاب في تلك العيون كلها التي كانت مثبتة عليها. ابتسمت لهم جميعاً.

قالت: "جئت لأرى ... لأحاول... أن أطلب. يبدو لي أني قمت بعمل جيد. أنا متعبة جداً. أريد أن أرتاح." كانت هناك دموع في عينيها. كان ذلك الجزء الداخلي النيّر من الدار، والأشخاص اللطيفون الهادئون، والحياة البسيطة الجدية... الإحساس بهذه الأمور قد مارس ضغطه عليها بقوة قاهرة، وأحست بنفسها تستسلم أمام واحدة من أكثر العواطف الحقيقية صدقاً في حياتها كلها. قالت: "أحب أن أسكن هنا. أرجو أن تقبلوني بينكم."

ورغم أنها كانت تبتسم، إلا أن الدموع كانت في صوتها وفي عينيها أيضاً. قال السيد ونتويرث برقة: " يا ابنة أختي العزيزة". ومدّت شارلوت ذراعها وجذبت البارونة إليها. بينما التفت روبرت أكتون بعيداً، ويداه تتسللان إلى جيبيه.

Twitter: @ketab_n

-٤-

بعد أيام قليلة من تقديم البارونة مونستر نفسها لأقربائها الأمريكيين، قدمت مع أخيها واتخذت لها مسكناً في ذلك البيت الأبيض الصغير المجاور لدارة السيد ونتويرث التي سبق ذكرها. وقد حدث خلال قيام السيد ونتويرث برد زيارة البارونة مع ابنتيه أن وضع هذا الكوخ المريح في خدمتها. وكان هذا العرض نتيجة لحديث منزلي استمر خلال الأربع والعشرين ساعة التالية، والذي جرى خلاله مناقشة موضوع الزائرين الأجنبيين وتحليله بكثير من الجدية والدقة. وقد استمر النقاش، كما قلت، ضمن دائرة الأسرة، ولكن تلك الدائرة، في المساء اللاحق على عودة المدام مونستر إلى البلدة، قد شمل، كما في مناسبات كثيرة أخرى، السيد روبرت أكتون وشقيقته الجميلة. ولو كنتَ حاضراً لما كان سيبدو لك على الأرجح أن قدوم هذين الشخصين الغريبين قد تم التعامل معه كحدث مبهج، أو كسبب لمزيد من السرور في هذا المنزل الهادئ، أو كمصدر يتوقع منه التسلية. لم تكن هذه طريقة السيد ونتويرث في معالجة أي حدث يتعلق بالبشر. لقد تطلبت الإثارة المفاجئة التي جرت ضمن الوعي جيد التنظيم لآل ونتويرث بعنصر لا مكان له ضمن خطة الالتزامات المعتادة، تطلبت إعادة تعديل لذلك الحس بالمسؤولية والذي كان يشكل عناصره الأساسية. كان الأخذ الفج والصريح في الاعتبار لحدث ما، على ضوء السرور الذي يمكن

Twitter: @ketab_n

لهذا الحدث أن يجلبه لهم، تمريناً عقلياً لم يكن أولاد خال فيليكس ينغ الأمريكيون على معرفة به على الإطلاق، وما كانوا سيفترضون إلا بالكاد أنه أمر يمارس إلى حد كبير في أي شريحة من شرائح المجتمع البشري. كان وصول فيليكس وشقيقته نوعاً من التعويض، ولكنه كان تعويضاً يخلو بشكل فريد من المرح والمرونة. كان امتداداً للواجب، وممارسة للفضائل الأكثر عمقاً. ولكن لا السيد ونتويرث ولا شارلوت ولا حتى السيد براند، الذي كان، بين هؤلاء الأشخاص الممتازين، داعية كبيراً للتأمل والطموح، قد حولوا هذا التعويض إلى امتداد للاستمتاع. هذه الوظيفة أخذتها على عاتقها غرترود ونتويرث التي كانت فتاة متميزة، ولكن النطاق الكامل لهذه التميز لم يكن قد كشف قبل حضور هذين الأجنبيين اللطيفين، هذا الحضور الذي وجد فيه هذا التميز– وببراعة كبيرة –السياق الملائم ليكشف عن نفسه. كان على غرترود، على أي حال، أن تكافح تراكماً عظيماً من الموانع، موانع ذاتية النظام، كما يقول أتباع مبدأ ما وراء الطبيعة، وموانع موضوعية النظام. وبالفعل، فإن الغرض من هذه الحكاية الصغيرة لن يخصص جزءاً كبيراً لمعالجة النزاع الذي تعاني منه غرترود. إن ما بدا سامياً في هذا التضخيم المفاجئ لعواطف السيد ونتويرث وعواطف ابنتيه كان توسيعاً لمدى الأخطاء الممكنة. وكان مبدأ الخطورة الظالمة للأخطاء، كما يمكن تسميته تقريباً، واحداً من أكثر التقاليد المحبوبة لدى أسرة ونتويرث.

قالت غرترود:" هي، على ما أعتقد، لا تريد الحضور إلى هذا المنزل والإقامة فيه." لم تعد المدام مونستر، من الآن فصاعداً، تدعى بغير الضمير الغائب المؤنث. راحت شارلوت وغرترود تجدان سهولة كبيرة في مخاطبتها باسم "يوجينيا"، ولكن حين التحدث عنها فيما

Twitter: @ketab_n

بينهما، كانتا لا تستخدمان إلا نادراً أي اسم عدا الضمير "هي".

" ألا تعتقد هي أنه ملائم بما فيه الكفاية لها؟" هكذا صاحت ليزي أكتون الصغيرة والتي كانت تسأل على الدوام أسئلة غير عملية لا تتطلب، من حيث الدقة، جواباً كما أنها لم تكن بالفعل تتوقع جواباً عليها عدا الجواب الذي كانت تقدمه دائماً بضحكة بريئة تهكمية صغيرة.

فال السيد ونتويرث: "لقد عبرت بكل تأكيد عن رغبة في القدوم."

قالت غرترود: " كان ذلك مجرد لباقة منها."

قال السيد ونتويرث: " أجل، إنها لبقة جداً ... لبقة جداً."

صرح ابنه قائلاً: " إنها لبقة أكثر مما ينبغي"، وذلك بلهجة مدمدمة لطيفة كما هو شأنه عادة، ولكنها لم تكن سوى علامة على نيته أن يكون فكهاً. ثم أضاف: "هذا محرج جداً."

قالت ليزي أكتون بضحكتها الصغيرة: "هذا أكثر مما يمكن أن يقال عنك يا سيدي."

تابع كليفورد قائلاً:" حسناً، لا أنوي أن أشجعها."

صاحت ليزي: " أنا واثقة من أنها لا تهتم بك!"

قالت غرترود بجدية: لن تفكر بك يا كليفورد."

صرخ كليفورد: "لا أتمنى ذلك!"

تابعت غرترود باللهجة نفسها:" ستفكر بروبرت."

بدأ روبرت أكتون يحمر خجلاً، ولكن لم يكن هناك مناسبة لذلك، فقد كان الجميع ينظرون إلى غرترود، كل فرد منهم، على

Twitter: @ketab_n

الأقل، باستثناء ليزي، التي كانت قد مالت برأسها جانباً، وهي تتأمل أخاها.

سأل السيد ونتويرث: "لماذا تقدمين الدوافع يا غرترود؟"

قالت غرترود: " لا اقدم دوافع يا أبي، بل أقول فحسب إنها ستفكر بروبرت؛ وسوف يحدث ذلك."

صاح أكتون ضاحكاً: " ستحكم غرترود بنفسها! أليس كذلك يا غرترود؟ بالطبع ستفكر البارونة بي. ستفكر بي من الصباح وحتى الليل."

قالت شارلوت بنوع من الفخر الذي يميز ربات البيوت: " ستشعر بالراحة هنا إلى حد كبير. تستطيع أن تأخذ الغرفة الشمالية الشرقية. والسرير الفرنسي. " هذا ما أضافته شارلوت بحس ثابت بأن السيدة أجنبية.

قالت غرترود: " لن تحب هذا المكان حتى لو ثبتت أغطية صغيرة تزيينية على هذه الكراسي كلها."

سألت شارلوت وهي تشعر بلمسة سخرية هنا ولكنها لم تنزعج منها: " وما السبب يا عزيزتي؟"

كانت غرترود قد نهضت عن كرسيها. وراحت تتمشى في أنحاء الغرفة. كان ثوبها الحرير المنشى الذي ارتدته على شرف البارونة، يصدر حفيفاً فوق السجادة. أجابت: " لا أعرف. ستريد ما هو أكثر... شيئاً أكثر خصوصية."

قالت ليزي أكتون: " إن أرادت الخصوصية يمكنها أن تبقى في غرفتها."

Twitter: @ketab_n

توقفت غرترود عن المشي، ونظرت إليها. أجابت: "سيكون هذا لطيفاً. إنها تريد الخصوصية والمتعة معاً."

بدأ روبرت أكتون يضحك مجدداً. " يا ابنة خالتي العزيزة، يا لها من صورة!"

كانت شارلوت قد ثبتت عينيها الجادتين على أختها، وراحت تتساءل في نفسها من أين لها أن تستمد فجأة هذه الأفكار الغريبة؟ كما راح السيد ونتويرث يراقب ابنته أيضاً.

قال: "لا أدري كيف كان أسلوبها في الحياة، ولكنها بكل تأكيد لم تتمكن من قبل من الاستمتاع بمنزل أكثر أناقة وفائدة للصحة."

وقفت غرترود هناك وهي تنظر إليهم جميعاً. قالت: "إنها زوجة أمير."

قال السيد ونتويرث: "جميعنا أمراء هنا، ولا أعرف أي مكان في هذا الجوار معداً للإيجار."

تدخل روبرت أكتون بالكلام قائلاً: "يا ابن العمة ويليام، هل تريد أن تقوم بعمل جميل؟ قدم لهما كهدية ذلك المنزل الصغير هناك على الدرب، ولمدة ثلاثة أشهر."

صاحت أخته: " أنت كريم جداً بأملاك الأشخاص الآخرين!"

لقال السيد ونتويرث بهدوء وهو ينظر بتأمل بارد إلى قريبه: " روبرت كريم جداً بأملاكه الخاصة."

مضت ليزي تقول: " غرترود، لقد لاحظت أنك مغرمة جداً بأقربائك الجدد."

سألت غرترود: "أي أقرباء تعنين؟"

Twitter: @ketab_n

قالت الفتاة الصغيرة بضحكتها المعهودة: "لا أعني البارونة! ظننت أنك تتوقعين رؤيته كثيراً."

قالت غرترود ببساطة: " تعنين فيليكس؟ آمل أن أراه كثيراً."

"لماذا تريدين إذاً أن تبقيه خارج المنزل؟"

نظرت غرترود إلى ليزي أكتون، ثم أشاحت بنظرها بعيداً.

سأل كليفورد: " وهل تريدين مني أن أعيش في ذلك المنزل معك يا ليزي؟"

" آمل ألا يحدث ذلك أبداً. أكرهك!" كان هذا جواب السيدة الصغيرة.

قالت غرترود وهي تقف أمام السيد ونتويرث مبتسمة تلك الابتسامة العذبة كعهدها دائماً، بسبب ندرتها: " أبي، اسمح لهما أن يمكثا في المنزل الصغير الذي على الدرب. سيكون ذلك أمراً جميلاً!"

كان روبرت أكتون يراقبها. قال: " غرترود على حق. غرترود أذكى فتاة في العالم. لو تسمحون لي، فإني أنصح بقوة أن تسمحوا لهما بالسكن هناك. "

قالت شارلوت بإلحاح: " ليس هناك ما هو أجمل من الغرفة الشمالية الشرقية".

صاح أكتون: " ستجعلها جميلة. اتركوها وشأنها!"

كانت غرترود قد احمرت خجلاً من إطرائه ونظرت إليه. بدا وكأن شخصاً أقل حميمية قد سبق وأطرى عليها. "أنا واثقة من أنها ستجعله جميلاً. سيكون أمراً مثيراً جداً للاهتمام. سيكون مكاناً ملائماً للزيارة. سيكون منزلاً أجنبياً."

Twitter: @ketab_n

سأل السيد ونتويرث: " هل نحن واثقون من أننا في حاجة إلى منزل أجنبي؟ هل تعتقدون أنه أمر مرغوب فيه أن نؤسس منزلاً أجنبياً... في هذا المكان الهادئ؟"

قال أكتون ضاحكاً: " تتكلم وكأنها مسألة أن تقوم البارونة الفقيرة بفتح حانة أو طاولة للميسر."

صرحت غرترود مجدداً وهي تضع يدها على ظهر كرسي أبيها: "سيكون أمراً جميلاً جداً."

سألت شارلوت بجدية كبيرة: "تعنون أنها ستفتح طاولة للميسر؟"

نظرت إليها غرترود لبرهة، ثم قالت ببساطة: " أجل يا شارلوت."

علّق كليفورد ونتويرث قائلاً وهو يدمدم بطريقته الفكهة الشابة: "لقد أصبحت غرترود مفعمة بالنشاط. والسبب في ذلك هو اختلاطها بالأجانب. "

رفع السيد ونتويرث نظره إلى ابنته التي كانت تقف إلى جانبه. وقد دفعها بلطف إلى الأمام. قال: " عليك أن تتصرفي بحذر. عليك أن تنتبهي. وبالفعل، علينا جميعاً أن نكون حذرين. هذا تغيير كبير. نحن معرضون لتأثيرات خاصة. لا أقول إنها تأثيرات سيئة. لا أحكم عليها سلفاً. ولكن ربما يكون من الضروري أن نمارس الكثير من الحكمة وضبط النفس. ستكون هناك نغمة مختلفة."

بقيت غرترود صامتة لبرهة، احتراماً لكلام أبيها. ثم تكلمت بأسلوب لم يكن إلى الإطلاق جواباً عليه. " أريد أن أرى كيف سيعيشان. أنا واثقة من أنهما سيكونان مختلفين في عاداتهما. ستقوم هي بكل أنواع الأمور بشكل مختلف. حين سنذهب إلى هناك سيكون الأمر أشبه بذهابنا إلى أوروبا. سيكون لديها مخدعها الخاص، ستدعونا

Twitter: @ketab_n

إلى العشاء في وقت متأخر جداً. وستتناول فطورها في غرفتها."

حدقت شارلوت إلى أختها مجدداً. بدت مخيلة غرترود لها وكأنها في حالة من المرح الصاخب. كانت تعرف دائماً أن لغرترود مخيلة واسعة... وكانت فخورة جداً بها. ولكنها شعرت دائماً أن هذه قدرة خطيرة وغير مسؤولة. وقد بدا لها الآن، لبرهة، أنها تهدد بجعل أختها شخصاً غريباً سيدخل فجأة، كما لو من سفر بعيد، وهو يتحدث عن الأمور الغريبة وربما غير السارة التي شاهدها. لم تكن مخيلة شارلوت تسافر إلى أي مكان. كانت تبقيها، كما هي، في جيبها، مع الأشياء الأخرى في تلك الحاوية: كشتبان، علبة صغيرة تحوي أقراص النعناع وقطعة من لصوق الجروح. قالت الآنسة ونتويرث: "لا أعتقد أنها ستتناول أي وجبة عشاء... أو حتى فطور. لا أعتقد أنها تعرف كيف تصنع أي شيء بنفسها. عليّ أن أجلب لها الكثير من الخدم، وسوف تحبهم."

قالت غرترود: " لديها خادمة، خادمة فرنسية. لقد أتت على ذكرها."

قالت ليزي أكتون: " أتساءل إن كان للخادمة قبعة محزّزة وخف أحمر. كانت هناك خادمة فرنسية في تلك المسرحية التي اصطحبني روبرت لمشاهدتها. كانت ترتدي جوربين ورديين . وكانت شريرة جداً."

أعلنت غرترود التي لم يسبق لها أن شاهدت مسرحية طوال حياتها: " كانت سوبريت[١٢]. هذا هو الاسم الذي يطلقونه عليها. ستكون

---

(١٢) سوبريت: الفتاة المغناج أو المستهترة في المسرحيات الهزلية.

Twitter: @ketab_n

هذه فرصة عظيمة لتعلم الفرنسية." وهنا أطلقت غرترود آهة ناعمة يائسة. كانت الرؤيا التي أمامها هي لشخصية مسرحية شريرة، ترتدي جوارب وردية وحذاء أحمر، وتتحدث بهذر مربك وبلسان غير مفهوم، ويمر بخفة عبر الدخائل المقدسة لذلك المنزل الكبير النظيف. تابعت غرترود قائلة: " هذا واحد من الأسباب التي هي في صالح قدومهما إلى هنا. ولكننا نستطيع أن نجعل يوجينيا تتكلم الفرنسية معنا، وفيليكس كذلك. أعني أن نبدأ بذلك ... في المرة القادمة."

كان السيد ونتويرث ما يزال يبقيها واقفة إلى القرب منه، وقد نظر إليها نظرة جدية رقيقة وغير مستجيبة. قال: " أريد منك يا غرترود أن تعديني بأمر ما."

سألته مع ابتسامة: " وما هو ؟"

"ألاّ تستثاري. ألا تسمحي لتلك... لتلك الأحداث بأن تكون مناسبة للاستثارة."

نظرت إليه لبرهة، ثم هزت رأسها. قالت: "لا أعتقد أني أستطيع أن أعدك بذلك يا أبي. لقد سبق لي وأصبحت مستثارة."

صمت السيد ونتويرث لبرهة. صمت الجميع وكأنهم يقرون بوجود شيء متهور ومترع بالاحتمالات.

فالت شارلوت بهدوء: " أعتقد أنه الأفضل لهما أن يسكنا في المنزل الآخر."

قال السيد ونتويرث بلهجة مفعمة أكثر بالمعاني : "سأجعلهم يقيمون في المنزل الآخر."

التفتت غرترود، ثم نظرت عبر الغرفة إلى روبرت أكتون. كان

Twitter: @ketab_n

ابن خالها روبرت صديقاً كبيراً لها. وكانت غالباً ما تنظر إليه بهذه الطريقة بدلاً عن أن تقول أشياء بعينها. كانت نظرتها في هذه المناسبة، على أية حال، قد صدمته على أنها بديل عن حجم أكبر من الألفاظ المحتشمة مما اعتاد عليه. كانت تدعوه إلى أن يلاحظ، بين أمور أخرى، عدم كفاءة خطة أبيها، إن كانت تلك خطة في الأساس، الرامية إلى التقليل من مناسبات الاحتكاك مع قريبيهم الأوروبيين، وذلك في صالح بقاء الأعصاب هادئة. وقد امتدح أكتون فوراً السيد ونتويرث على ليبراليته. قال: "كان أمراً لطيفاً جداً منك أن تمنحهما ذلك المنزل الصغير. هذه خدمة لطيفة جداً تقدمها لهما؛ ومهما حدث، ستكون مسروراً لقيامك بذلك." كان السيد ونتويرث ليبرالياً، وكان يعرف أنه كذلك. وكان يسره معرفة ذلك، وأن يشعر به ويراه يسجل في صالحه. وهذا السرور هو الشكل الملموس الوحيد من أشكال الانغماس الذاتي الذي يمكن لراوي هذه الأحداث أن يتهمه به.

" إن زيارة مدتها ثلاثة أيام، على الأغلب، لذلك المكان هي كل ما أجده ممكناً." هذا ما قالته المدام مونستر لأخيها بعد أن احتلا المنزل الأبيض الصغير. "كان من شأن ذلك أن يكون شديد الحميمية ... شديد الحميمية حتماً. الفطور والغداء والشاي مع الأسرة... ستكون تلك نهاية العالم لو استطعت تحمل هذا كله حتى اليوم الثالث." ثم قالت الملاحظة نفسها لخادمتها أوغستين، وهي امرأة ذكية تخصها البارونة بمقدار سخي من الثقة. صرح فيليكس بأنه مستعد أن ينفق، عن طيب خاطر، حياته في حضن عائلة ونتويرث، وأنهم ألطف وأبسط الناس في العالم وأكثرهم وداً، وأنه قد فتن بشكل استثنائي بهم جميعاً. وقد وافقته البارونة تماماً على أنهم بسطاء ولطيفون وأشخاص جيدون تماماً، وقد أحبتهم كثيراً. الفتاتان سيدتان كاملتان، ومن المستحيل أن

Twitter: @ketab_n

تكون الفتاة أكثر كمالاً من شارلوت ونتويرث، رغماً عن مظهرها القروي. قالت البارونة: " فيما يتعلق بالتفكير بهم كأفضل صحبة في العالم، فهذا أمر آخر. أما فيما يتعلق بالسكن كجيران لهم، فإنني سأتمنى سريعاً العودة إلى الدير مجدداً، وارتداء مئزر الراهبات والنوم في عنبر المنامة." ومع ذلك فإن البارونة كانت في مزاج جيد، وهي مسرورة إلى حد كبير. وبإدراكها الفعال ومخيلتها المصقولة، فقد استطاعت الاستمتاع بأي شيء متميز، أي شيء جيد من حيث نوعه... بدت أسرة ونتويرث لها شديدة الكمال: أسرة مسالمة وطاهرة بشكل رائع؛ يسودها نوع من الطزاجة الملونة بالحب تحوي كل الهدوء والطيبة اللذين يميزان ما اعتبرته يخص طائفة الصاحبيين[١٣]، ومع ذلك فقد بدت وكأنها تأسست على درجة من الوفرة المادية، التي قد يكون المرء قد بحث عنها عبثاً في البلاط المقتصد الصغير لسيلبرشتات-شريكنشتاين، من حيث بعض المسائل التفصيلية. وقد أدركت على الفور أن أقرباءها الأمريكيين كانوا يفكرون قليلاً جداً بالمال أو لا يتكلمون عنه إلا قليلاً أيضاً. وهذا ما ترك انطباعاً في مخيلة يوجينيا. لقد أدركت في الوقت نفسه أنه لو أن شارلوت أو غرترود طلبتا من أبيهما أي مبلغ كبير من المال لكان سيضعه على الفور بين أيديهما. وكان من شأن هذا أن يترك انطباعاً أكبر أيضاً. أما أعظم الانطباعات على الإطلاق فقد كان بسبب استقراء سريع آخر. كان لدى البارونة قناعة فورية بأن روبرت أكتون سيضع يده في جيبه كل يوم من أيام الأسبوع لو أن شقيقته الصغيرة المفعمة بالحيوية طلبت ذلك منه. قالت

---

(١٣) Quakers : طائفة منيحية تأسست في إنكلترا في القرن السابع عشر ثم انتقلت إلى الولايات المتحدة.

Twitter: @ketab_n

البارونة إن الرجال في هذا البلد شديدو اللطف بشكل جلي. و لم يكن إعلانها بأنها كانت تنشد الراحة والاعتزال يخلو من الصحة إطلاقاً. لم يكن أي شيء تقوله البارونة غير صادق. ولكن من العدل أن نضيف ، على الأرجح، أن لا شيء تقوله كان صادقاً بالكامل. لقد كتبت إلى صديقة لها في ألمانيا تصف رحلتها بأنها عودة إلى الطبيعة. كان ذلك أشبه بتجرع حليب جديد، وكانت مغرمة جداً بالحليب الجديد. قالت لنفسها، بالطبع، إن الأمر سيكون مملاً بعض الشيء، ولكن لا يمكن أن يوجد برهان أفضل على معنوياتها العالية سوى حقيقة أنها فكرت في أنها لن تهتم في كون الأمر مملاً بعض الشيء. وقد بدا لها، وهي تنظر من شرفة كوخها المجاني عبر الحقول الساكنة، والمراعي الحجرية، والبرك الصافية السطوح، والبساتين الصغيرة الوعرة، أنه لم يسبق لها أن كانت وسط هدوء كثيف إلى هذا الحد. كان ذلك تقريباً نوعاً من المتعة الحسية الرقيقة. وكان ذلك كله أمراً حسناً وبريئاً وآمناً جداً، ولا بد أن ينتج عنه شيء جيد. أما أوغستين، التي كانت تحمل ثقة غير محدودة بحكمة وبعد نظر سيدتها، فقد كانت متحيرة وكئيبة جداً. كانت مستعدة على الدوام أن تأخذ إيعازها حين تفهمه، ولكنها كانت تحب أن تفهمه، وفي هذه المناسبة لم تستطع الفهم. ما الذي كانت البارونة تفعله في هذه السفينة الشراعية ؟ ما هو السمك الذي تتوقع أن تجده في هذه المياه الراكدة جداً؟ كانت الطريدة قابعة في مياه عميقة بشكل جلي. كان في استطاعة أوغستين الوثوق بها، ولكن حاسة السير في الظلام تبدت في وجه هذه المرأة الكهلة النحيلة الهادئة والشاحبة التي لم يكن لديها أي شيء مشترك مع مفهوم غرترود ونتويرث عن السوبريت ، وذلك بواسطة أكثر التقطيبات سخرية مما سبق لها واستقرت على العلامات تواضعاً التي تدل على سلام ويسر آل ونتويرث. من حسن الحظ، لم تستطع أوغستين أن

Twitter: @ketab_n

تروي ظمأ شكها عملياً. لقد وافقت سيدتها تماماً – أو بالأحرى سبقت سيدتها تماماً – في التفكير بأن المنزل الأبيض الصغير كان فقيراً بالأثاث إلى حد مثير للشفقة. قالت أوغستين: "كان يتوجب إضفاء بعض التحسينات"، ثم بدأت تعلق بعض السجف في المدخل وتضع بعض الشموع التي تم الحصول عليها بعد بعض البحث في أماكن غير متوقعة. كما وضعت بعض الأغطية على أذرع الأرائك وظهور الكراسي. كانت البارونة قد جلبت معها إلى "العالم الجديد" كمية كبيرة من الملابس، وقد ذهلت الآنستان ونتويرث إلى حد ما، حين قدمتا لزيارتها، من التوزيع المثير للفضول لخزانة ملابسها. كانت هناك شالات هندية معلقة كما الستائر في باب البهو، وأقمشة عجيبة ، تتفق مع رؤية غرترود الميتافيزيقية للعباءة الأوبرالية، وقد طرحت في أماكن الجلوس. وكانت هناك ستائر حريرية قرنفلية اللون على النوافذ، بحيث بدت الغرفة معتمة. وعلى امتداد رف المدفأة وضع شريط من المخمل لافت للنظر مغطى بدنتيلا قذرة المظهر. قالت البارونة: "لقد تصرفت بحيث أشعر بالراحة"، مما أثار ارتباك شارلوت التي كانت على وشك أن تقترح القدوم لمساعدتها التخلص من الأغطية غير الضرورية. ولكن ما أخطأت شارلوت في فهمه على أنه استقرار مؤجل بشكل يستحق اللوم، فقد فهمته غرترود بشكل سريع جداً على أنه النية الأكثر إبداعاً وإثارة للاهتمام ورومنطيقية. سألت نفسها سراً: " ما هي الحياة دون ستائر؟" ثم بدا لها وكأنها كانت تعيش حتى اليوم وجوداً مزخرفاً بشكل يخلو من الذوق إلى حد فريد وخالياً تماماً من الزينة.

لم يكن فيليكس شاباً يزعج نفسه إلى حد كبير بأي شيء: وخاصة شروط الاستمتاع. كانت قدرته على الاستمتاع كبيرة جداً، وتواقة بشكل غير واع، حتى أنه يمكننا القول إنها قدرة ذات تقدم دائم فوق

Twitter: @ketab_n

الحرج والأسف. كانت طبيعته الحساسة من النوع المرح جوهرياً، كما الجدّة والتغيير متعة بحد ذاتهما بالنسبة إليه. وبما أنهما كانتا تردان إليه غالباً، فقد يستسيغ حياته بأكثر مما كان يبدو عليه. لم تكن هناك طبيعة أكثر حظاً من طبيعته. لم تكن روحه من النوع القلق أو الخائف أو الطموح والتي تتسابق مع استبداد القدر، بل كان مزاجه من النوع غير الشكاك بحيث يجعل "آلهة المحن" تفقد انتباهها، فيروح يراوغها ويتجنبها بحركة يسيرة وطبيعية أشبه بزهرة تحركها الريح. كان فيليكس يستنبط التسلية من كل الأشياء، وكانت قدراته- مخيلته وذكاؤه وعواطفه وحواسه- تشارك في اللعبة. لقد بدا له أن يوجينيا وهو قد عوملا بشكل طيب جداً: كان هناك شيء ما شديد التأثير في ذلك الجمع بين الليبرالية الأبوية ومراعاة الحقوق الاجتماعية للآخرين والذي كان يميز سلوك السيد ونتويرث. لقد كان أمراً شديد اللطف من جانبه، على سبيل المثال، أن يقدم لهما منزلاً. وقد شعر فيليكس بالسرور بشكل إيجابي لأنه أصبح لديه منزل خاص به؛ فقد كان ذلك الكوخ الصغير بين أشجار التفاح- الشاليه كما كانت المدام مونستر تسميه على الدوام- بيتاً له أكثر من أي غرفة في الطابق الرابع، تطل على باحة، مع تقصير في دفع الإيجار. كان فيليكس قد أنفق جزءاً كبيراً من حياته وهو يتطلع إلى الباحات ، وهو يتكئ بكمين مهترئين قليلاً على الأرجح على حافة نافذة عالية، بينما دخان لفافته الرقيق يتصاعد نحو الجو الذي كان تتلاشى فيه نداءات الشارع وحيث يصبح اهتزاز الأجراس من أبراج الكنائس القديمة محسوساً. لم يكن قد عرف أي شيء ريفي إلى هذا الحد شأن هذه الحقول في نيو إنغلند[١٤].

---

(١٤) نيو إنغلند: تسمية تطلق على مجموعة من الولايات المتحدة

Twitter: @ketab_n

وقد وجد الكثير من الافتنان في هذه الخشونة الرعوية. لم يكن قد سبق له وأحس بمثل هذا الأمان المترف. وقد أخاطر فأجعله يبدو كمغامر بخيل بالأحرى، فأصرخ بأنه وجد سحراً لا يقاوم في حقيقة أنه قد يتناول طعام الغداء يومياً إلى مائدة خاله. وكان هذا السحر من النوع الذي لا يقاوم إلى أية حال، لأن مخيلته أضفت نوراً ورديا على هذا الامتياز العائلي. كان يثمن عالياً المأدبة التي مدت أمامه. كان هناك نوع من الوفرة الطازجة المظهر فيما حولها تجعله يفكر بأن الناس كانوا لابد قد عاشوا بهذه الطريقة في العهد الأسطوري، حين كانوا يمدون موائدهم على العشب ثم يملؤونها ثانية من "قرون الوفرة الأسطورية" ، دون حاجة إلى وجود مواقد الطبخ. ولكن الأمر العظيم الذي كان فيليكس يستمتع به هو أنه وجد أسرة له– الجلوس في وسط أشخاص لطيفين كرماء يمكن له أن يناديهم بأسمائهم الأولى دون تكلف. لم يكن قد سبق له وعرف شيئاً أكثر سحراً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه فيما يقوله. كان ذلك أشبه بلوح كبير نظيف صقيل من ورق الرسم والذي سيتم مسبقاً تغطيته ببقع فعالة من الألوان المائية. لم يكن قد سبق له وعرف أي أولاد عم أو عمة أو خال أو خالة، و لم يكن قد وجد نفسه سابقاً في اتصال دون كوابح مع سيدات شابات وعازبات. كان مغرماً إلى حد كبير بصحبة السيدات، وقد كان ذلك أمراً جديداً عليه، أن يتم الاستمتاع بالأمر بهذا الأسلوب. في البداية لم يكن يعرف إلا بالكاد ما الذي يمكنه أن يفعله في مثل هذه الحالة الذهنية. بدا له أنه قد وقع في حب ثلاث فتيات في آن معاً دون تمييز. لقد رأى أن ليزي أكتون كانت أجمل من شارلوت وغرترود إلى حد شديد الوضوح،

الأمريكية الشرقية.

Twitter: @ketab_n

ولكن لم يكن هذا تفوقاً إلا بالكاد. وكان يستمد سروره من شيء ما مشترك لديهن كافة: وكان جزء منه بالفعل تلك الرقة الجسدية التي بدت وكأنها تجعل أمراً مناسباً أن يرتدين على الدوام ملابس رقيقة ذات ألوان صافية. إلا أنهن كن أيضاً رقيقات في أمور أخرى، وكان أمراً شديد الاستساغة له أن يشعر أن هذه الأمور الرقيقة الأخيرة كان يمكن تثمينها بالاحتكاك المباشر كما كانت عليه الحال. كان قد عرف لحسن الحظ كثيراً من السيدات الفاضلات العفيفات ، ولكن بدا له الآن أنه في علاقة بهن (خاصة العازبات منهن) فقد كان ينظر إلى صور مؤطرة ومن وراء زجاج. لقد أدرك الآن كم كان الزجاج مزعجاً: كيف كان يحرف ويتدخل ويلتقط انعكاس أشياء أخرى، ويجعلك تتحرك من جانب إلى آخر. لم تكن هناك حاجة إلى أن يسأل نفسه ما إذا كانت شارلوت وغرترود وليزي أكتون تحت الإضاءة الصحيحة، فقد كن دوماً تحت الإضاءة الصحيحة. كان يحب كل شيء يتعلق بهن. وكان لا يتورع مثلاً عن أن يحب حقيقة أنهن كن ذوات أقدام رشيقة جداً وأمشاط أقدام عالية. لقد أحب أنوفهن الجميلة. أحب عيونهن المندهشة وأسلوبهن المتردد في الحديث الذي لم يكن إطلاقاً من النوع الذي يدل على ثقة بالنفس. وقد أحب كثيراً معرفة أنه كان حراً تماماً في أن يكون وحيداً لساعات، في أي مكان، مع أي منهن، وكان تفضيله لصحبة إحداهن على الأخرى، كرفيقة في العزلة، مسألة ذات أهمية ثانوية. كانت ملامح شارلوت ونتويرث الصارمة بعذوبة مستساغة بقدر عيني ليزي أكتون الزرقاوين المعبّرتين بشكل رائع. كما كانت هيئة غرترود، التي توحي بأنها جاهزة باستمرار للسير في أنحاء المكان والإصغاء، فاتنة شأن أي شيء آخر، وخاصة حين كانت تمشي على نحو رشيق جداً. وبعد فترة قصيرة من الزمن، بدأ فيليكس بالتمييز: ولكن حتى في ذلك الحين كان غالباً ما يتمنى، على نحو

Twitter: @ketab_n

فجائي، ألا يكنّ جميعاً حزينات إلى ذلك الحد. وحتى ليزي أكتون، رغم ثرثرتها وضحكتها الصغيرتين اللطيفتين، بدت حزينة. وحتى كليفورد ونتويرث، الذي كانت سنه الشابة في صالحه وكان يملك عربة خفيفة وحيدة المقعد ذات عجلتين كبيرتين ومهر صغير كميت له أجمل قوائم في العالم... حتى هذا الشاب المحظوظ كانت له نظرة متفادية غير مريحة ، ويتجنبك في بعض الأحيان بأسلوب شخص ذي ضمير غير مرتاح. أما الشخص الوحيد في الدائرة الذي لم يكن لديه حس بالاضطهاد من أي نوع كان، فهو روبرت أكتـــون، حسب إدراك فيليكس.

ربما كانت هناك خشية من أنه بعد إكمال هذه التزيينات المنزلية اللطيفة التي سبق ذكرها، فإن المدام مونستر ستجد نفسها تواجه احتمالات سأم مقلقة. ولكن حتى الآن لم تبدأ في الشعور بالخطر من ذلك. كانت البارونة ذات روح قلقة، وكانت تسقط قلقها، كما يمكن أن يقال، على أي وضع تراه أمامها. وحتى درجة معينة كان قلقها أمراً يمكنها الاعتماد عليه ليسليها. كانت تتوقع على الدوام أن يحدث شيء ما، وكان هذا التوقع بحد ذاته أمراً يدعوها للسرور المرهف حتى يصل إلى نهاية مخيبة للآمال. وما كانت تتوقعه البارونة الآن بالضبط كان أمراً يتطلب بعض البراعة حتى ينطلق. يكفي أنها كانت تتطلع من حولها لتجد شيئاً ما يشغل مخيلتها. وقد أكدت لنفسها أنها كانت مفتونة بأقربائها الجدد. واعترفت لنفسها أنها كانت ، شأنها شأن أخيها، تحس برضا مقدس لأنها وجدت أسرة لها. من المؤكد أنها كانت تستمتع إلى أقصى حد بلطف رعاية واحترام أقربائها لها. وقد تلقت، أولاً وأخيراً، مقداراً كبيراً من الإعجاب ، كما أن ما تلقته من كلمات الإطراء الحسنة كان كبيراً. إلا أنها كانت تعلم أنه لم يسبق لها أن استمتعت

Twitter: @ketab_n

بسلطة حقيقية إلى هذا الحد، و لم يسبق أن كانت موضع تقدير إلى هذا الحد كما يحدث الآن، وذلك حين يكون معيار مقارنة دائرتها الصغيرة ، للمرة الأولى، فريسة للغموض. كان الشعور، بالفعل، أن الناس الطيبين من حولها لم يكن لديهم في ما يتعلق بشخصها الرائع أي معيار للمقارنة على الإطلاق، يعطيها إحساساً بسلطة غير محدودة. كان من الصحيح، كما قالت لنفسها، إنهم لو لم يكونوا قادرين لهذا السبب على التمكن من اكتشاف أي شيء ضدها، فإنهم على الأرجح لن يتمكنوا من إدراك بعض نقاط قوتها المتفوقة. ولكنها كانت تنهي تأملاتها بالتصريح بأنها ستهتم بهذا الأمر.

كانت شارلوت وغرترود تعانيان من بعض الحيرة بين رغبتهما بإظهار كل الاهتمام الملائم بالمدام مونستر وخشيتهما من أن تكونا مزعجتين. كان المنزل الصغير في البستان، حتى الآن، وفي أشهر الصيف، مكاناً لإقامة بعض الأصدقاء الحميمين للأسرة أو أقرباء فقراء كانوا يجدون في السيد ونتويرث ملاّكاً يهتم بالإصلاحات وينسى يوم دفع الإيجار. وبموجب هذه الظروف، كان الباب المفتوح للمنزل الصغير وباب الدارة الكبيرة، المواجهان الواحد للآخر عبر الحدائق المنزلية، لا يفرض أي ضريبة على الزيارات المتواصلة. ولكن الآنستين ونتويرث تلقتا انطباعاً بأن يوجينيا لم تكن تحبذ تلك العادة البدائية، أي "عادة الزيارات غير المتوقعة". لم تكن لديها بشكل بيّن أي فكرة عن العيش دون بوّاب. قالت لشارلوت: " يدخل المرء إلى بيتكم كما يدخل نزلاً: باستثناء أنه لا يوجد فيه خدم يندفعون نحوه." وأضافت إن هذا كان أمراً ساحراً. شرحت غرترود لأختها أنها كانت تعني الضد تماماً: لم تكن تحب ذلك إطلاقاً. استفسرت غرترود عن السبب في أن البارونة تلفظت بشيء كاذب، وأجابت غرترود أنه كان هناك

Twitter: @ketab_n

على الأرجح سبب جيد لذلك، وعليهما اكتشافه حين يعرفانها بشكل أفضل. قالت غرترود: " لم يكن هناك بالتأكيد أي سبب جيد . آمل أنها لا تفكر بهذه الطريقة."

كانتا قد رغبتا بالطبع، منذ البداية، بالقيام بكل شيء بطريقة يساعدانها بها على ترتيب أمورها. بدا لشارلوت أنه ستكون هناك أمور كثيرة للتحدث عنها؛ ولكن البارونة كانت على ما يظهر ميالة لعدم التحدث عن أي شيء.

قالت غرترود: " اكتبي لها رسالة قصيرة تستأذنينها بها للذهاب ومقابلتها. أعتقد أنه هو الأسلوب الذي تحبه."

سألت شارلوت: " لماذا أزعجها بالرد عليّ؟ سيكون عليها أن تكتب رسالة قصيرة وترسلها."

قالت غرترود بعمق: " لا أعتقد أنها ستنزعج."

" ما الذي عليّ أن افعله إذاً"

قالت غرترود وهي تغادر أختها بانطباع بأن فضولها كان كثيباً: " هذا ما أتطلع لمعرفته."

وقد مضتا لزيارة البارونة دون مراسلات مسبقة، واستقبلتهما في الصالون الصغير الذي سبق ترتيبه، بعد أن أصبح مناراً ومزيناً، فوجدتا روبرت أكتون هناك.

كانت يوجينيا شديدة الكياسة، ولكنها اتهمتهما بإهمالها بشكل قاس. قالت: " كما تريان فإن السيد أكتون اضطر إلى أن يشفق عليّ ، فأخي يغيب ساعات وهو يمارس الرسم. لا أستطيع أبداً أن أعتمد عليه. لذلك اضطررت إلى أن أرسل السيد أكتون ليطلب منكما القدوم حتى

Twitter: @ketab_n

أستفيد من حكمتكما."

نظرت غرترود إلى شقيقتها. أرادت أن تقول: " هذا ما كانت ستفعله". قالت شارلوت إنهما كانتا تأملان أن البارونة ستأتي دائماً لتتناول وجبة الغداء معهما. سيمنحهما ذلك الكثير من السرور، وفي مثل هذه الحالة، فإن البارونة لن تضطر إلى استخدام طاهية.

صاحت البارونة: "آه، واكن ينبغي أن يكون لديّ طاهية! زنجية عجوز بعمامة صفراء. أتوق إلى هذا كثيراً. أريد أن أتطلع من نافذتي وأراها تجلس هناك على العشب، على خلفية أشجار التفاح الصغيرة المعقوفة والمغبرة ، وهي تقشر ملء حجرها من الذرة الهندية. سيكون ذلك أمراً ذا صبغة محلية، كما تعلمان. لا يوجد الكثير منها هنا – ولا تجدان مانعاً في قولي هذا، أليس كذلك؟ إذن على المرء أن يستفيد من معظم ما هو لديه. سيسعدني جداً أن أتناول الغداء معكم كلما سمحتم لي بذلك، ولكني أريد أن أتمكن من دعوتكم أحياناً. وأريد أن أتمكن من دعوة السيد أكتون أيضاً."

قال أكتون: "عليك أن تحضري إلى المنزل لتدعيني. عليك القدوم لزيارتي. عليك أن تتناولي الغداء معي أولاً. أريد أن أعرّفك على أمي." وقد زار المدام مونستر مرة أخرى بعد يومين من ذلك. كان متواجداً باستمرار في المنزل الآخر. وقد اعتاد أن يتمشى عبر الحقول من بيته، وبدا عليه أنه أقل تردداً من بنات عمته في ما يخص تلك الزيارات. وفي هذه المناسبة، فقد وجد أن السيد براند قد حضر لتقديم فروض الاحترام لهذه الأجنبية الفاتنة. ولكن بعد وصول أكتون، لم يقل اللاهوتي الشاب شيئاً. جلس في كرسيه ويداه مشبكتان وهو يثبت على مضيفته تحديقته الجدية المسلوبة القدرة. تحدثت البارونة مع روبرت أكتون، ولكن وبينما كانت تتحدث كانت تلتفت إلى السيد

Twitter: @ketab_n

براند وتبتسم له، وكان هذا لا يرفع عينيه عنها أبداً. غادر الرجلان معاً. كانا سيذهبان لزيارة السيد ونتويرث. لم يكن السيد براند قد قال شيئاً، ولكن بعد أن عبرا نحو حديقة السيد ونتويرث، توقف ونظر إلى الخلف نحو المنزل الأبيض الصغير. وبينما راح ينظر إلى رفيقه وقد أحنى رأسه قليلاً جانباً، وقلص عينيه نوعاً ما، قال: "والآن، أفترض أن هذا هو ما يسمى بالمحادثة، المحادثة الحقيقية."

قال أكتون ضاحكاً: " إنها ما أدعوه بالمرأة الذكية."

استأنف السيد براند قائلاً: "هذا أمر مثير جداً للاهتمام. وأتمنى فقط لو أنها تتكلم بالفرنسية. سيبدو الأمر أكثر ملاءمة. لا بد وأنه الأسلوب الذي سمعنا عنه بالضبط، وقرأنا عنه: أسلوب محادثة بأسلوب المدام دو شتال[١٥] والمدام ريكامييه"[١٦].

نظر أكتون أيضاً إلى مسكن المدام مونستر بين شجيرات الخطمية وأشجار التفاح. قال مبتسماً: " إن ما أريد معرفته هو ما الذي جلب المدام ريكامييه لتعيش في هذا المكان!"

---

(١٥) المدام دو شتال: روائية فرنسية (١٧٦٦-١٨١٧) أثرت رواياتها في الأدب الفرنسي إلى حد كبير وخاصة روايتها «عن ألمانيا».

(١٦) المدام ريكامييه (١٧٧٧-١٨٤٩) سيدة فرنسية اشتهرت بصالونها الأدبي.

Twitter: @ketab_n

-٥-

راح السيد ونتويرث، وقد أمسك عصاه وقفازيه بيده، يزور ابنة أخته كل يوم وقت العصر. وبعد ساعتين كانت هي تأتي إلى الدارة الكبيرة لتناول الشاي. وقد تركت الاقتراح بأن تأتي بانتظام لتناول العشاء دون تنفيذ. كانت تستمتع بأي رضا يمكنها أن تستمده من مشهد الزنجية العجوز في قبعة قرمزية وهي تقشر البازلاء تحت أشجار التفاح. أما شارلوت التي أحضرت الزنجية العجوز ، فقد فكرت في أن هذه إدارة غريبة للمنزل، فقد حكت لها يوجينيا أن أوغستين كانت تدير كل شيء، بما في ذلك الزنجية العجوز: رغم أن أوغستين كانت بالطبع جاهلة باللغة الإنكليزية المهذبة. وحتى الآن، فإن أكثر العواطف غير الأخلاقية والتي ستتاح لي الفرصة لأعزوها لشارلوت ونتويرث، كانت شعوراً معيناً بخيبة الرجاء لأنها اكتشفت أنه رغم هذه الظروف غير العادية، فإن التدابير المنزلية في البيت الصغير لم تكن- حسب وجهة نظر يوجينيا الخاصة- عدائية بشكل لافت للنظر. لقد وجدت البارونة أنه لأمر مسلّ أن تذهب لتناول الشاي. وكانت ترتدي ملابسها وكأنها ذاهبة للعشاء. كانت مائدة الشاي عبارة عن وجبة منوعة ورائعة. ولدى الانتهاء منها كانوا جميعاً يجلسون ويتبادلون أطراف الحديث على الشرفة الكبيرة، أو يتجولون في أنحاء الحديقة تحت أنوار النجوم وآذانهم مترعة بتلك الأصوات التي تصدرها

Twitter: @ketab_n

الحشرات الغريبة، والتي رغم أنها من المفترض أن تكون في كل أرجاء العالم جزءاً من سحر ليالي الصيف، إلا أنها بدت للبارونة على أنها تتحلى تحت تلك السماء الغربية، برنين لا يضاهى.

ورغم أن السيد ونتويرث، كما سبق وقلت، كان يمضي لزيارتها في مواعيد دقيقة، إلا أنه لم يشعر أنه أصبح معتاداً على صحبة ابنة أخته. هذا وقد صعب على مخيلته الاعتقاد أنها كانت بالفعل ابنة أخته غير الشقيقة. كانت أخته رمزاً للسنوات الأولى من حياته، فقد كانت في العشرين من عمرها فحسب حين غادرت الوطن ولم تعد قط، وتزوجت في بلاد الغربة زواجاً غير مقبول وأصرت بعناد على إتمامه. أما خالتها، السيدة وايتساید، التي اصطحبتها إلى أوروبا، للسياحة، فقد قدمت لدى عودتها وصفاً مؤسفاً جداً للسيد أدولوفوس يَنغ الذي ربطت به الفتاة العنيدة مصيرها، فكان فعله فعل قشعريرة حلّت بمشاعر الأسرة وخاصة أخوتها غير الأشقاء. ولم تفعل كاثرين بالتالي أي شيء لتسترضي أسرتها. ولم تكتب لها أي رسالة بأي أسلوب يوحي بتقدير جلي لتعاطفهم المعطّل. وهكذا أصبح تقليداً في دوائر بوسطن أن أفضل لطف يمكن تقديمه للشابة كان التفكير في أنه من الجيد نسيانها، والامتناع عن التحزّر فيما إذا كان ولداها قد ورثا انحرافها. لم يكن السيد ونتويرث قد سمح لمخيلته بأن تحوم من حول ولدي أخته الشابين– اللذين لم يكن قد عرف بوجودهما إلا بشكل غامض– مع مرور السنين. كان أكثر انشغالاً ببيته، ورغم أن ضميره كان مثقلاً بكثير من الاهتمامات، إلا أن فكرة كونه خالاً غير شرعي لم يكن بين هذه الاهتمامات. والآن بعد أن أصبح ولدا أخته أمامه، فقد أدرك أنهما كانا ثمرة مؤثرات وظروف مختلفة جداً عن تلك التي وصل بها أولاده البسطاء إلى سن النضج الغامض مؤهلات.

Twitter: @ketab_n

لم يشعر بأي استفزاز وهو يقول إن هذه المؤثرات قد مورست من أجل الشر، ولكنه كان يخشى أحياناً من أنه لن يتمكن من أن يحب ابنة أخته المتميزة والرقيقة والتي لها أسلوب السيدات رفيعات المقام. كان مشلولاً ومتحيراً بسبب أنها أجنبية السلوك. كانت تتكلم على نحو ما بلغة مختلفة. كان هناك شيء ما غريب في كلماتها. كان لديه شعور بأن رجلاً آخر، في مكانه، كان من شأنه أن يكيف نفسه مع لهجتها وأن يطرح الأسئلة عليها وينكّت معها، ويجيب على تلك المزحات التي كانت تبدو أحياناً مجفلة كونها موجهة إلى خال. ولكن السيد ونتويرث لم يكن قادراً على فعل تلك الأمور. لم يستطع حتى أن يجعل نفسه يحاول أن يزن موضعها من هذا العالم. كانت زوجة لنبيل أجنبي كان راغباً في أن يطلقها. وكان لهذا وقع استثنائي، ولكن الرجل العجوز نفسه كان يشعر بأنه يفتقر إلى المادة التي تمكّنه من الحكم. بدا له أنه يتوجب عليه أن يجدها ضمن خبرته وتجربته، كرجل عركته الدنيا وكشخصية شهيرة تقريباً. ولكن تلك المادة لم تكن متوفرة، وقد أحس بالخجل حين اعترف لنفسه بان ذخيرته من الخبرة ناقصة، وقد اضطر إلى أن يكشف ذلك ليوجينيا باستفسارات بدت شديدة البراءة على وجه الاحتمال... النقص في مؤونته.

بدا له أنه يستطيع أن يقترب أكثر بكثير، كما كان بإمكانه أن يقول، من ابن أخته، رغم أنه لم يكن واثقاً من أن فيليكس آمن تماماً. كان شديد الذكاء والوسامة وثرثاراً حتى أنه لم يكن ممكناً أن يحسن المرء الظن به. ومع ذلك فقد بدا وكأنما كان هناك شيء ما يكاد يكون وقحاً وشريراً تقريباً– أو كأنما كان ذلك حتمياً– في شاب شديد المرح والإيجابية في آن معاً. وقد لوحظ جيداً أنه بينما لم يكن فيليكس شاباً جدياً على الإطلاق، إلا أنه كان فيه نوع ما شيء يزيد عن ذلك، فقد

Twitter: @ketab_n

كان يتحلى بوزن وحجم ورنة صوت تزيد عما لدى عدد من الشبان الذين كانوا جديين على نحو جليّ. وبينما راح السيد ونتويرث يتأمل في هذا الخروج عن المعايير فإن ابن أخته كان معجباً به دون حدود. كان يراه كرجل عجوز نبيل شديد الرقة والكرم ورفيع الأخلاق، ذي رأس وسيمة، من النوع الخاص بالنساك والزاهدين، وكان قد وعد نفسه بأن يرسمها. كان فيليكس أبعد ما يكون عن إخفاء حقيقة أنه ماهر في استخدام فرشاة الرسم، و لم يكن الذنب ذنبه لو كان هناك فهم عام بأنه كان جاهزاً لرسم صورة شديدة الشبه ضمن أكثر الشروط معقولية. قالت غرترود: " إنه فنان. ابن عمتي فنان." ثم قدمت هذه المعلومة إلى كل من هو مستعد لتلقّيها. كما قدمتها لنفسها بأسلوب التذكير والتذكر. كانت تكرر لنفسها في لحظات متفرقة، في أمكنة موحشة، أن فيليكس كان يتحلى بهذه الميزة المقدسة. لم يكن قد سبق لغرترود أن قابلت فناناً من قبل. كانت قد قرأت فحسب عن مثل هؤلاء الأشخاص. كانوا يبدون لها كفئة رومانسية يلفها الغموض، وحياتهم مؤلفة من تلك الحوادث اللطيفة التي لا تحدث للأشخاص الآخرين أبداً. وقد سرّع هذا فحسب من تأملاتها في هذه المرحلة في السبب الذي جعل فيليكس يصرح، كما فعل مراراً، أنه لم يكن فناناً بالفعل. قال: " لم أكن جاداً في ممارسة ذلك الأمر. لم أدرسه قط و لم أتلق أي تدريب. أنا أقوم بالقليل من كل شيء ولا أتقن أي شيء جيداً. أنا مجرد هاو."

وقد كان من دواعي المزيد من سرور غرترود أن تفكر في أنه هاو أكثر من التفكير بأنه فنان. فالكلمة السابقة، كانت تبدو لمخيلتها ذات دلالة أرق. كانت تعرف، على أي حال، أنها كانت كلمة ينبغي استخدامها بشكل أكثر اتزاناً. كان السيد ونتويرث يستخدمها بحرية. فرغم أنه

Twitter: @ketab_n

لم يكن على اطلاع دقيق بها، إلا أنه وجدها ملائمة كعون له على تصنيف فيليكس، الذي كان شاباً شديد الذكاء والنشاط والاحترام – على ما يبدو– ومع ذلك لم يكن يمتهن أي مهنة، وبالتالي فقد كان هذا يبدو كشيء شاذ ومزعج. وبالطبع كانت البارونة وشقيقها– كان اسمها يذكر بالطبع قبل اسمه دائماً– موضوعاً للحديث مرحباً به بين السيد ونتويرث وابنتيه وزوارهم الطارئين.

سأل الرجل النبيل العجوز، السيد برودريب من مدينة "سالم"، الذي كان كان زميلاً للسيد ونتويرث خلال دراسته في كلية هارفارد في عام (٩٠٨١)، والذي زاره في مكتبه في شارع ديفونشاير: " والشاب، ابن أختك، ما هي مهنته؟" (كان السيد ونتويرث، في السنوات الأخيرة قد اعتاد الخروج ثلاث مرات في الأسبوع إلى مكتبه، حيث يكون لديه كمية كبيرة من الأعمال الائتمانية السرية جداً ليقوم بإدارتها).

" حسناً، إنه هاو" ، هذا ما قاله خال فيليكس بيدين مضمومتين وبرضا معين في كونه قادراً على قول ذلك. وكان السيد برودريب قد عاد إلى "سالم" بشعور يفيد بأن هذا على الأرجح تعبير "أوروبي" عن سمسار أو مصدّر للحبوب.

قال فيليكس لخاله في إحدى الأمسيات في حضور الجميع، فقد كان السيد براند وروبرت أكتون حاضرين أيضاً: " ينبغي عليّ أن أرسم رأسك يا سيدي. أعتقد أني سأصنع رسمة جميلة جداً. إنها رأس مثيرة للاهتمام. إنها قروسطية إلى حد كبير."

بدا السيد ونتويرث وقوراً. شعر بالحرج، وكأن الضيوف كلهم قد دخلوا ليجدوه واقفاً أمام المرآة. قال: "الرب هو من صنعها. لا أظن أنه من شأن الإنسان أن يعيد صنعها."

Twitter: @ketab_n

أجاب فيليكس ضاحكاً: " لا شك أن الرب هو الذي صنعها، وقد صنعها بشكل جيد جداً. ولكن الحياة كانت تضيف إلى العمل الفني لمساتها. إنها رأس من نوع مثير جداً للاهتمام. لقد هزلت وضعفت بشكل مبهج جداً. لون البشرة قد ابيضّ بشكل رائع. " ونظر فيليكس فيما حوله إلى الحلقة من الأقرباء، وكأنه يريد لفت نظرهم إلى هذه النواحي المثيرة للاهتمام. بدأ لون السيد ونتويرث يزداد شحوباً على نحو جليّ. " أود أن أرسمك بصورة أسقف عجوز، كاردينال عجوز أو رئيس دير للرهبان."

همهم السيد ونتويرث: " أسقف، كاردينال؟ هل تريد التلميح إلى كهنة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية؟"

تابع فيليكس قائلاً : "أعني كاهناً عجوزاً عاش حياة شديدة الطهر والتقشف. وأعتقد أن حياتك كانت من هذا الصنف، يا سيدي. يرى المرء ذلك في وجهك. لقد عشت حياة هادئة جداً.. جداً. ألا تعتقد أن المرء يستطيع دائماً أن يرى ذلك في وجه شخص ما؟"

قال السيد ونتويرث ببرود: " أنت ترى في وجه الشخص أكثر مما أعتقد أني أبحث عنه فيه."

خشخشت البارونة بمروحتها وأطلقت ضحكتها الرائعة. صاحت: " إنها لمجازفة أن ينظر المرء عن كثب إلى هذا الحد! لدى خالي بعض الذنوب التي تثقل ضميره." نظر السيد ونتويرث إليها، مرتبكاً في ألم. أما فيما يتعلق بأمارات الحياة الطاهرة المتقشفة التي كانت مرئية في وجهه، فقد كانت في تلك اللحظة واضحة بشكل غريب. قالت المدام مونستر وهي تبتسم بعينيها الغريبتين: " أنت عجوز وسيم يا خالي العزيز."

قال الرجل العجوز: " أعتقد أنك تطرينني."

Twitter: @ketab_n

صاحت البارونة: " بكل تأكيد! لست أول امرأة تفعل ذلك!"

قال السيد ونتويرث برزانة: " بل أعتقد أنك أول امرأة تقول ذلك". ثم التفت إلى فيليكس وأضاف باللهجة نفسها: " أرجو ألا ترسمني. لدى أولادي صورة فوتوغرافية لي. وهذا يكفي."

قال فيليكس: " لن أعد بألاّ أرسم رأسك في لوحة ما."

نظر إليه السيد ونتويرث ثم إلى جميع الحاضرين. وبعد ذلك نهض وابتعد ببطء.

قالت غرترود في وسط الصمت الذي تبع ذلك: " فيليكس، أتمنى لو ترسم بورتريه لي أنا."

تساءلت شارلوت ما إذا كانت غرترود محقة في تمني ذلك. وقد نظرت إلى السيد براند على أنها أكثر الطرق شرعية للتأكد من ذلك. فمهما فعلت أو قالت غرترود، كانت شارلوت تنظر دائماً إلى السيد براند. وكانت تلك أبداً ذريعة دائمة للنظر إلى السيد براند، كما كانت شارلوت تظن، في سبيل مصلحة غرترود. صحيح أنه شعرت باهتمام هائل في أن تكون غرترود على حق، إذ كانت غرترود بالنسبة إلى شارلوت شقيقة بطولية.

قال السيد براند: " سيسرنا أن نحصل على بروتريه لك يا آنسة غرترود."

صرح فيليكس قائلاً: " سيسعدني أن أرسم مثل هذه الموديل الفاتنة."

سألت ليزي أكتون بوقاحتها الصغيرة غير العدائية وهي تعض على عقدة في حياكتها: " هل تعتقدين أنك جميلة إلى هذا الحد يا عزيزتي؟"

Twitter: @ketab_n

قالت غرترود وهي تتطلع فيما حولها: " ليس لأني أعتقد أني جميلة. لا أعتقد أني جميلة إطلاقاً." تكلمت بنوع من التعمد الخجول. وقد بدا ذلك أمراً غريباً جداً لشارلوت أي أن تسمعها تناقش هذه المسألة بهذا الشكل العلني. ثم استأنفت قائلة: "أظن أن السبب هو أنه سيكون أمراً مسلياً أن أجلس ليتم رسمي. هذا ما كنت أظنه على الدوام."

قال السيد ونتويرث : " يؤسفني أنه ليس لديك أمور أفضل تفكرين فيها يا ابنتي."

صرح فيليكس: " أنت جميلة جداً يا ابنة الخال غرترود."

قالت غرترود: " هذا إطراء. وأنا أضع جميع الإطراءات التي أتلقاها في حصالة صغيرة لها شق جانبي. ثم أهزها فترنّ. ليس هناك الكثير منها بعد... مجرد اثنين أو ثلاثة."

تابع فيليكس: " كلا، ليس هذا بالإطراء! انظري، أنا حريص على ألا أعطيه شكل الإطراء. لم أعتقد في البداية أنك جميلة جداً. ولكنك بدأت تبدين كذلك شيئاً فشيئاً."

صاحت ليزي: " انتبهي، فقد تنفجر حصالتك الآن!"

قال السيد ونتويرث: " أعتقد أن الجلوس من أجل رسم بورتريه شكل من مختلف أشكال الكسل. وهذه الأشكال كثيرة جداً.

صاح فيليكس: " يا سيدي العزيز، لا يمكنك أن تمارس الكسل حين تجعل شخصاً آخر يعمل إلى ذلك الحد!"

اقترح السيد براند كمساهمة في النقاش: " يمكن رسم المرء وهو نائم."

Twitter: @ketab_n

قالت غرترود لفيليكس وهي تبتسم: "آه، ارسمني وأنا نائمة." ثم أغمضت عينيها قليلاً. في هذا الحين كان قد أصبح ما تقوله غرترود أو تفعله في التاليً أمراً مقلقاً لشارلوت.

بدأت غرترود بالجلوس من أجل البورتريه في اليوم التالي... في الهواء الطلق على الجانب الشمالي من الشرفة. قالت لفيليكس وهي تجلس أمام حامل قماشة الرسم الخاص به: " أتمنى لو أنك تقول لي ما هو رأيك بنا... كيف نبدو لك."

قال فيليكس: تبدون لي كأفضل ناس في العالم".

استأنفت غرترود الكلام: " تقول هذا لأنه يوفر عليك مشقة قول أي شيء آخر."

نظر إليها الشاب من فوق أعلى القماشة. " ما الذي يمكنني قوله عدا ذاك؟ سيكون أمراً محرجاً جداً بكل تأكيد أن أقول شيئاً مختلفاً."

قالت غرترود: "حسناً، لقد قابلت سابقاً أشخاصاً أحببتهم كذلك؟"

" بالفعل جرى ذلك، وأشكر السماء على ذلك!"

تابعت غرترود: " وهل كانوا مختلفين جداً عنا؟"

قال فيليكس: " هذا يثبت فحسب أن هناك ألف طريقة مختلفة حتى يمثل المرء رفقة جيدة."

سألت غرترود: " هل تعتقد أننا نمثل رفقة جيدة؟"

" رفقة تصلح للملوك!"

صمتت غرترود لبرهة، ثم قالت: " لا بدّ أن هناك ألف طريقة مختلفة ليكون المرء مكتباً، وأحياناً أعتقد أننا نستخدمها كلها."

Twitter: @ketab_n

نهض فيليكس بسرعة، وهو يرفع يده. قال: " لو استطعت فحسب أن تستبقي تلك النظرة في وجهك مدة نصف ساعة... بينما أتمكن من التقاطها! إنها مليحة إلى حدّ غير مألوف."

أجابت: " أن أبدو مليحة لمدة نصف ساعة... ما تطلبه مني باهظ جداً."

قال فيليكس: " ستكون تلك صورة لشابة نذرت نفسها لشيء ما أو قدمت عربوناً ما، وهي تتوب عنه وتفكر فيه في حالة استرخاء."

قالت غرترود بجدية كبيرة: " لم أنذر نفسي لشيء ولا قدمت عربوناً. وليس هناك شيء أتوب عنه."

" يا ابنة خالي العزيزة، لم يكن هذا سوى كناية لفظية. أنا واثق تماماً أنه لا يوجد أي فرد من أسرتك الممتازة لديه ما يتوب عنه."

صاحت غرترود: " ومع ذلك، فنحن نتوب طوال الوقت! هذا ما أعنيه حين أقول إننا كئيبون. أنت تعرف ذلك تماماً، ولكنك تتظاهر بأنك لا تعرفه."

أطلق فيليكس ضحكة سريعة. "النصف ساعة مستمرة، ومع ذلك فأنت لا تزالين أملح من أي وقت مضى. على المرء أن يكون حذراً تجاه ما يقوله، كما ترين."

قالت غرترود: يمكنك أن تقول لي أي شيء."

نظر فيليكس إليها، كما من شأن فنان أن يفعل، وتابع الرسم لبعض الوقت. قال معلقاً: " أجل، تبدين لي مختلفة عن أبيك وشقيقتك... وعن معظم الناس الذين تعيشين معهم."

قالت غرترود: " أن يقول المرء هذا الشيء عن نفسه هو أشبه بأن

Twitter: @ketab_n

يقول– تضميناً– على الأقل... إنه أفضل. لست أفضل. أنا أسوأ بكثير. ولكنهم هم أنفسهم يقولون إني مختلفة. وهذا يجعلهم تعيسين."

"بما أنك تتهمينني بإخفاء انطباعي الحقيقي، فإني أعترف لك بأني أظن أن لديكم جميعاً وبشكل عام ميلاً إلى الشعور بالتعاسة بشكل سهل جداً."

قالت غرترود: " أتمنى لو أنك تقول هذا الكلام لأبي."

صاح فيليكس ضاحكاً: " قد يجعله هذا أكثر تعاسة."

" لا شك في ذلك. لا أعتقد أنه سبق لك ورأيت أشخاصاً مثلنا."

سأل فيليكس: " يا ابنة خالي العزيزة، كيف تعرفين ما سبق لي أن رأيت؟ وكيف أستطيع أن أحكي لك؟"

"يمكنك أن تحكي لي كثيراً من الأشياء، لو أنك تريد ذلك. لقد رأيت أشخاصاً يشبهونك... أعني أشخاصاً لامعين ومرحين ومولعين بالتسلية. نحن لسنا مولعين بالتسلية."

قال فيليكس: " أجل. أعترف أن هذا يدهشني بالأحرى. لا تبدين لي وكأنك تستمتعين بالحياة كما يجب. لا تبدين لي وكأنك تستمتعين..." وهنا سألها: "هل تمانعين لو قلت لك هذا ؟" ثم توقف عن الكلام.

قالت الفتاة بجدية: " تابع من فضلك."

" تبدين لي أهلاً للاستمتاع. لديك المال والحرية وما يسمى في أوربا بـ (المكانة). ولكنك تنظرين إلى الحياة نظرة ملؤها الألم، كما يمكن للمرء أن يقول."

سألت غرترود: " على المرء أن يفكر فيها على أنها مضيئة وفاتنة وممتعة، أليس كذلك؟"

Twitter: @ketab_n

أضاف فيليكس: " عليّ أن أقول ذلك... هذا إن استطاع المرء ذلك. صحيح أن هذا كله يعتمد على ذلك."

قالت موديله: " أنت تعرف أن هناك الكثير من البؤس في هذا العالم."

استأنف الشاب كلامه قائلاً: " لقد رأيت القليل منه. ولكنه كان كله هناك...وراء البحر. لا أرى منه شيئاً هنا. إنه الفردوس هنا."

لم تنبس غرترود ببنت شفة. جلست وهي تنظر إلى نبتة الأضاليا وشجيرات الكشمش في الحديقة، بينما تابع فيليكس عمله. شرعت أخيرا بالكلام فقالت: " حتى (يستمتع) المرء بالحياة، أن يتعامل معها على نحو لا ألم فيه ، فهل عليه أن يرتكب خطأ ما؟"

أطلق فيليكس ضحكته الخفيفة الطويلة مجدداً. " جدياً، لا أعتقد ذلك. ولهذا السبب، بين أسباب أخرى: فأنت تدهشينني بكونك قادرة جداً على الاستمتاع، لو أتيحت لك الفرصة، ومع ذلك وفي الوقت نفسه تبدين غير قادرة على ارتكاب الخطأ."

قالت غرترود: " أنا واثقة من أنك مخطئ جداً إذ تقول لامرأة إنها غير قادرة على ذلك. لا نكون أبداً أقرب إلى الشر إلا حين نعتقد أننا غير قادرين على الخطأ."

علق فيليكس خارج السياق: " تبدين أكثر ملاحة مما سبق."

كانت غرترود قد اعتادت سماعه وهو يقول ذلك. لم يكن هناك الكثير من الاستثارة في ذلك كبداية. استأنفت كلامها قائلة: " ما الذي علي أن أفعله؟ أن أقيم الحفلات وأذهب إلى المسرح وأقرأ الروايات وأبقى ساهرة حتى وقت متأخر من الليل؟"

Twitter: @ketab_n

أجاب رفيقها: " لا أعتقد أن ما يفعله المرء أو لا يفعله هو الذي يعزز المتعة. إنه الأسلوب العام في النظر إلى الحياة."

" ينظرون إليها كنوع من النظام التأديبي ... هذا ما يفعلونه هنا. غالباً ما قيل لي ذلك."

أضاف فيليكس مبتسماً: " حسناً، هذا جيد جداً. ولكن هناك أسلوب آخر في النظر إليها كفرصة."

قالت غرترود: " فرصة... أجل. سيحصل المرء على المزيد من المتعة بتلك الطريقة."

" لا أحاول أن أقول أي شيء أفضل يتعلق بذلك سوى أنه أسلوبي في الحياة... ولكن هذا لا يعني الكثير" كان فيليكس قد وضع باليته وفراشيه جانباً. كان يميل إلى الخلف ويداه ممدودتان، ليحكم على تأثير عمله. قال: " وأنت تعرفين أني شخص قليل الأهمية إلى حد كبير."

قالت غرترود: " أنت تتمتع بالكثير من الموهبة."

أجاب الشاب بلهجة الحياد المرح: " كلا... كلا. ليس لدي الكثير من الموهبة . ليست موهبتي متميزة إطلاقاً. أؤكد لك أني كنت سأعرف ذلك لو كانت أتمتع به. سأكون مغموراً على الدوام. لن يسمع بي العالم قط. " نظرت غرترود إليه بشعور غريب. كانت تفكر بالعالم الكبير الذي كان هو يعرفه وهي لا تعرفه، وكيف أنه لا بدّ وأن يكون مليئاً بالمواهب اللامعة، بما أنه قادر على الحطّ من قدر إمكاناته. استأنف الكلام قائلا: " ليس عليك عموماً أن تضفي الكثير من الأهمية على أي شيء، ولكن يمكنك أن تصدقيني حين أقول ما يلي... إني لست أفضل من شخص أرعن حلو المعشر إلا قليلاً."

كررت قائلة: " أرعن؟"

Twitter: @ketab_n

" أنا من صنف البوهيميين."

" بوهيميين؟" لم يكن قد سبق لغرترود أن سمعت هذه العبارة من قبل إلا كتسمية جغرافية. و لم تستطع أن تفهم المعنى المجازي الذي كان رفيقها يحمله لتلك العبارة. ولكنها أثارت فيها السرور.

كان فيليكس قد دفع بكرسيه إلى الخلف ونهض واقفاً. تقدم منها ببطء مبتسماً. قال وهو ينظر إليها من فوق: " أنا من النوع المغامر."

نهضت وهي تبتسم له. كررت: "مغامر؟ أود أن أسمع عن مغامراتك."

وللحظة ظنت أنه سيأخذ يدها، ولكنه دسّ يديه فجأة في جيبي جاكيتة الرسم خاصته. قال: " لا سبب يدعو إلى خلاف ذلك. لقد كنت مغامراً، ولكن مغامراتي كانت بريئة جداً. كانت كلها مغامرات سعيدة. لا أعتقد أن هناك أي مغامرات منها لا ينبغي عليّ ذكرها. كانت ممتعة وجميلة جداً. سأحب أن أستعيدها مجدداً في ذاكرتي. اجلسي مجدداً، وسوف أبدأ." هذا ما أضافه خلال لحظة، بابتسامته المقنعة بصورة طبيعية.

جلست غرترود مجدداً في ذلك اليوم، كما جلست في أيام عديدة أخرى. وراح فيليكس، وهو يستعمل فرشاته، يقص عليها الكثير من الحكايات، وكانت تصغي بشره مفتون وعيناها تستقران على شفتيه. كانت شديدة الجدية. وأحياناً، كان يظن، وهو يرى جديتها المستعجبة، أنها لم تكن مسرورة بما تسمعه. ولكن فيليكس لم يكن ليصدق أكثر من لحظة واحدة بوجود أي إزعاج يتسبب من كلامه. كان من شأن ذلك أن يكون حماقة لو أن التفاؤل الذي كان يعبر عنه ليس أكثر من مجرد أمل أكثر منه تحاملاً. وسيكون خروجاً عن الموضوع لو قلنا إنه

Twitter: @ketab_n

كان يتمتع بضمير جيد؛ حيث أن أفضل الضمائر هو نوع من تقريع الذات، وكانت طبيعة هذا الشاب الصحية إلى حد لامع تبدد نفسها في نوايا طيبة موضوعية كانت بريئة من أي اختبار عدا الدقة في إصابة الهدف. حكى لغرترود كيف أنه جاب في جميع أنحاء فرنسا وإيطاليا مشياً على الأقدام وهو يحمل حقيبة الظهر الخاصة بالرسامين، ويدفع ثمن إقامته برسم بورتريه لمضيفه أو مضيفته يكون مرضية لغرورهما. وحكى لها كيف كان يعزف على كمانه ضمن جوقة صغيرة من العازفين– ليست ذات شهرة كبيرة– كانت تتجول في البلدان الأجنبية لتقدم عروضها الموسيقية الريفية. كما حكى لها كيف كان مفخرة مؤقتة لفرقة من الممثلين الجوالين الذين كانوا يقومون بالعمل الشاق المتمثل بتقديم مسرحيات شكسبير أمام جمهور فرنسي أو ألماني أو بولندي أو هنغاري.

وبينما كان القص المتكرّر في فترات دورية مستمراً، كانت غرترود تعيش في عالم فانتازي. بدا لها وكأنها تقرأ حكاية رومانسية تصدر في نشرة يومية. لم تكن قد سمعت مثل هذا الكلام الممتع منذ أن قرأت رواية "نيكولاس نيكلبي"(١٧). في عصر أحد الأيام ذهبت لزيارة قريبتها، السيدة أكتون، والدة روبرت أكتون، والتي كان المرض قد أقعدها في المنزل فلم تعد تغادره. عادت لوحدها، سيراً على الأقدام، عبر الحقول، فقد كانت هذه طريقاً مختصرة غالباً ما كان يتم استعمالها. كان فيليكس قد ذهب إلى بوسطن بصحبة أبيها الذي كان يرغب في اصطحاب هذا الشاب خلال زيارته لبعض أصدقائه، وهم رجال

---

(١٧) نيكولاس نيكلبي: رواية كوميدية لتشارلز ديكنز نشرت مسلسلة في الصحف بين عامي ١٨٣٨-١٨٣٩

Twitter: @ketab_n

عجائز ما زالوا يتذكرون والدة فيليكس، ولكنهم لم يتطرقوا إلى ذكرها قط، وكان العديد منهم، قد ركبوا عرباتهم، بصحبة السيدات الكريمات زوجاتهم، وقادوها من المدينة إلى هنا ليقدموا احتراماتهم في المنزل الصغير الواقع بين أشجار التفاح، في عربات ذكّرت البارونة ، التي استقبلت زوارها بكياسة متميزة، بتلك المركبة التي استقلتها للقدوم إلى هذا المكان. كان العصر يتلاشى، وفي السماء الغربية كانت تتجلى اللوحة العظيمة لغروب الشمس الذي يميز نيو إنغلند، وقد رسمت باللونين الأرجواني والفضي، وبدت معلقة من كبد السماء. كما كانت المراعي الحجرية، التي راحت غرترود تعبرها، وهي في حالة تأمل عميق، مغطاة بوهج خفيف نيّر. عند البوابة المفتوحة لأحد الحقول شاهدت من بعيد شكلاً لرجل. كان واقفاً هناك وكأنه ينتظرها. وحين اقتربت أكثر، ميزته على أنه السيد براند. كان لديها شعور وكأنها لم تره منذ بعض الوقت. لم تكن تستطيع تحديد المدة، ولكن بدا لها أنه كان قبل عهد قريب جداً في منزلهم.

سألها: "هل تسمحين لي بأن أتمشى معك في طريق العودة؟" وحين قالت له إن ذلك كان ممكناً لو أراده، فقد علق قائلاً إنه رآها وميزها من مسافة نصف ميل.

قالت غرترود: "لا بد أنك تتحلى بعينين حادتي النظر جداً."

قال السيد براند: " أجل، يا آنسة غرترود." أدركت أنه كان يتعمد أن يعطي معنى معيناً. ولكن منذ وقت طويل مضى كان السيد براند يتعمد إعطاء معنى معين، وكانت قد اعتادت ذلك تقريباً. لقد أحست، على أي حال، أن ما كان يتعمده الآن له قوة متجددة قادرة على بث الاضطراب والحيرة والقلق في نفسها. سار إلى جانبها في صمت لبرهة، ثم أضاف: " لم أجد صعوبة في أن ألاحظ أنك قد

Twitter: @ketab_n

بدأت تتجنبينني. ولكن ربما لا يحتاج المرء إلى عينين حادتي النظر جداً ليرى ذلك."

قالت غرترود دون أن تنظر إليه: " لم أكن أتجنبك."

قال السيد براند: " أعتقد أنك لم تكوني واعية بأنك تتجنبينني. لم تكوني تدركين وجودي."

قالت غرترود بضحكة قصيرة: " حسناً، ها أنت هنا الآن، يا سيد براند. أعرف ذلك جيداً جداً."

لم يضف شيئاً آخر. بل سار ببساطة إلى جانبها، ببطء، حيث كانا مضطرين إلى السير فوق عشب طري. والآن، وصلا إلى بوابة أخرى، كانت مغلقة. وضع السيد براند يده عليها.، ولكنه لم يقم بأي حركة تدل على محاولته فتحها. وقف ونظر إلى رفيقته. قال: " أنت منهمكة جداً ...مستغرقة جداً."

نظرت غرترود إليه، ورأت أنه كان شاحباً، وأنه يبدو منفعلاً. لم يكن قد سبق لها وشاهدت السيد براند منفعلاً من قبل، وأحست أن المشهد، لو تم تنفيذه بالكامل، سيكون مؤثراً ومؤلماً تقريباً. سألته: "مستغرقة في أي شيء؟" ثم أشاحت بنظرها نحو السماء المومضة. أحست بالذنب وعدم الراحة، ومع ذلك فقد كانت مغيظة من نفسها لشعورها بذلك. ولكن السيد براند، وهو واقف هناك ينظر بعينيه الصغيرتين اللطيفتين اللجوجتين، كان يمثل كومة هائلة من الالتزامات نصف الممحوة التي كانت تبرز مجدداً ضمن جلاء معين.

مضى قائلاً: " لديك اهتمامات جديدة ومهام جديدة. لا أعرف إن كنت أستطيع أن أقول إن لديك واجبات جديدة." ثم أضاف: "كانت لدينا دائماً واجبات قديمة يا غرترود."

Twitter: @ketab_n

قالت: " أرجو أن تفتح البوابة يا سيد براند." وأحست أنها بقولها ذلك كانت جبانة ووقحة. ولكنه فتح البوابة وسمح لها بالمرور. ثم أغلقها خلفه. وقبل أن أتيح لها من الوقت ما يكفي لتستدير وضع يده وأمسك بيدها من الرسغ لبرهة.

قال: " أريد أن أقول لك شيئا ماً."

أجابت: " أعرف ما تريد أن تقول. وكانت على وشك أن تقول: " وأعرف كيف ستقوله بالضبط." ولكنها لم تتلفظ بهذه الكلمات الأخيرة.

قال: " أحبك يا غرترود. أحبك كثيراً. أحبك أكثر من أي وقت مضى."

لقد تلفظ بتلك الكلمات كما توقعت تماماً. كانت قد سمعتها من قبل. لم يكن فيها أي سحر بالنسبة إليها. كانت قد قالت لنفسها سابقاً إن الأمر كان شديد الغرابة. فقد كان من المفروض أن يكون أمراً ممتعاً لأي امرأة أن تسمع مثل هذه الكلمات. ولكن هذه بالذات بدت لها مسطحة وآلية. صرحت قائلة: " أتمنى لو أنك تنسى ذلك."

سألها: " وكيف يمكنني ذلك... و لم ينبغي عليّ فعل ذلك؟"

قالت وهي تنظر إليه ، وصوتها يرتجف قليلاً: " لم أقدم لك أي وعود... لم أقدم لك أي عربون."

"لقد جعلتني أشعر أن لديّ تأثيراً عليك. لقد فتحتِ ذهنك لي."

صاحت غرترود ببعض القوة: " لم أفتح لك ذهني قط يا سيد براند!"

"إذن، لم تكوني صريحة كما ظننت... كما حسبنا جميعنا."

Twitter: @ketab_n

صاحت الفتاة: "لا أرى ما علاقة أي شخص آخر بهذا الأمر!"

"أعني والدك وأختك. تعرفين أنهما يشعران بالسعادة إن حسبا أنك تصغين إليّ."

أطلقت ضحكة صغيرة. قالت: " إنه لا يشعرهما بالسعادة. لا شيء يجعلهما سعيدين. لا يوجد من هو سعيد هنا."

رد السيد براند بصوت خفيض ويكاد يكون خجولاً: " أعتقد أن ابن عمتك سعيد جداً... السيد ينغ."

قالت غرترود وهي تضحك ضحكتها الصغيرة مجدداً: " يا لحظه الكبير!"

نظر إليها الشاب لبرهة. قال: " لقد تغيرت كثيراً جداً."

أعلنت غرترود: " يسرني سماع ذلك."

"أنا لست كذلك. لقد عرفتك منذ زمن طويل، وقد أحببتك كما كنت."

قالت غرترود: " أنا شديدة الامتنان لك. عليّ الآن الذهاب إلى البيت."

ضحك هو من جانبه ضحكة صغيرة. "أنت تتجنبينني فعلاً... ألا ترين ذلك؟"

قالت الفتاة: " تجنبني أنت أيضاً إذاً."

نظر إليها مجدداً، ثم أجاب بلطف شديد: "لا، لن أتجنبك. ولكني سأتركك، في الوقت الحاضر، لنفسك. أعتقد أنك ستتذكرين– بعد فترة من الزمن– بعض الأمور التي نسيتها. أعتقد أنك ستعودين إليّ.

Twitter: @ketab_n

أنا واثق جداً من هذا."

في هذه المرة كان صوته مؤثراً جداً. كان فيما قاله قوة تدل على العتب الشديد، و لم تستطع غرترود أن تجيبه بشيء. التفت بعيداً ووقف هناك، وهو يتكئ على البوابة وينظر إلى الغروب الجميل. تركته غرترود واتخذت طريقها إلى المنزل مجدداً. ولكن حين وصلت إلى منتصف الحقل التالي، انفجرت باكية بشكل فجائي. بدت لها دموعها وكأنها كانت تتجمع منذ زمن طويل، ولبعض اللحظات بدا لها أنه أمر يدعو إلى السرور أن تذرفها. ولكن الدموع تلاشت. كان هنالك شيء ما فيه بعض القسوة في غرترود، و لم تبك مرة أخرى قط.

Twitter: @ketab_n

-٦-

وجد السيد ونتويرث خلال زياراته لابنة أخته في وقت العصر، أكثر من مرة واحدة، أن روبرت أكتون كان يجلس في غرفة الجلوس الخاصة بها. لم تكن هذه حقيقة مقلقة للسيد ونتويرث، إذ لم يكن لديه أي حس بالتنافس مع قريبه الشاب هذا على حظوة يوجينيا. كان خال المدام مونستر يكن احتراماً كبيراً لروبرت أكتون، الذي كان موضع تقدير كبير إنما غير معبر عنه ضمن الأسرة الكبيرة. كانوا جميعاً فخورين به، بقدر ما قد تطلق تهمة الافتخار ضد الأشخاص الذين هم أبرياء– عادة وبجلاء– من الخطيئة المعروفة بـ" اكتساب الفضل". لم يسبق لهم أن افتخروا بروبرت أكتون، و لم ينغمسوا في إشارة إليه مترعة بالزهو. كما لم يسبق لهم أن اقتبسوا الأشياء الذكية التي قالها ولا ذكروا الأمور النبيلة التي قام بها. ولكن نوعاً من الإيمان الرقيق البارد بطيبته المطلقة كان جزءاً من حسهم الشخصي بما هو حق؛ ولا يمكن أن يوجد برهان أفضل على التبجيل السامي الذي يكنونه له من حقيقة عدم وجود حكم واضح سبق أن صدر على أفعاله. لم يكن يتلقى من المديح أكثر مما يتلقى من اللوم، ولكنه كان يعتبر زينة للدائرة من الناس المحيطة به، وذلك بشكل ضمني وصامت. كان روبرت بالنسبة للأسرة "الرجل المحنك"، فلقد سافر إلى الصين وجلب إلى الوطن مجموعة من التحف النادرة. وقد استطاع أن يكسب ثروة

Twitter: @ketab_n

كبيرة، أو بالأحرى أنه ضاعف خمس مرات ثروة كانت في الأصل كبيرة. وقد كان يتميز بأنه يجمع ما بين العزوبية و"الثروة" والظرف الذي يمكن أن يعجب حتى أكثر المخيّلات كبتاً. وكان أمراً مسلماً به جدلاً أنه سيضع هذه الميزات تحت تصرف امرأة شابة حسنة الانضباط من "جماعته". لم يكن السيد ونتويرث شخصاً يعترف لنفسه بأنه– بغض النظر عن واجباته الأبوية– يحب أي فرد أكثر بكثير من جميع الأفراد الآخرين. ولكنه كان يعتبر روبرت أكتون شديد الحكمة. وربما كان هذا على الأرجح أقرب منهج يستطيع الوصول إليه فيما يخص توقه للتفضيل، والذي كان مزاجه ينكره كأنه يتملص من شيء داعر بعض الشيء. كان أكتون في الواقع شديد الحكمة، كما كان يتحلى بمزايا أخرى. ولا بدّ بالفعل من الزعم بأنه فيما يخص السيد ونتويرث ففي الأجزاء الأشد تحريماً بين أفضلياته كان يهوم الظل الغامض للاعتقاد بأن فضيلة قريبه الحاسمة كانت قدرة معينة على تستحق الحسد على الإطراء، بشكل شهم بالأحرى، على تسويغ الحكم المجرد: إبداؤه شجاعة أكبر ونوعية أرقى من الإقدام تفوق ما تتطلبه المناسبة العادية. ما كان يمكن للسيد ونتويرث أن يخاطر بالتلميح بأن أكتون كان مصنوعاً، ولو بالحد الأدنى، من نسيج الأبطال. ولكن هذا لم يكن خطأه هو، فلم يكن روبرت ليخاطر بذلك هو نفسه إطلاقاً. كان أكتون يمارس بكل تأكيد حذراً عظيماً في جميع الأمور: بدءاً من تقييمه لنفسه. كان يعرف أنه لم يكن إطلاقاً رجلاً خبرته الدنيا كما كانت مفترضاً في الدوائر المحلية. ولكن لا بد أن نضيف أنه كان يعرف أن دهاءه الطبيعي عبارة عن مدى لم يسبق له أن منح الفرصة للدوائر المحلية لمعرفة مقداره. كان مدمناً على أن ينظر إلى الأمور من وجهة نظر فكهة، وقد اكتشف أنه حتى في أضيق الدوائر فإن مثل هذا المزاج قد يجد فرصاً عديدة. مثل هذه الفرص كانت قد شكلت

Twitter: @ketab_n

لبعض الوقت، أي منذ عودته من الصين، قبل سنة ونصف السنة، أكثر العناصر فعالية في حياة ذلك السيد، الحياة التي لها الآن بالضبط هيئة مترعة بالكسل على الأرجح. كان راغباً تماماً في الزواج. وكان مولعاً جداً بالكتب ولديه مكتبة كبيرة. أي أن عدد كتبه كان أكبر بكثير من عدد كتب السيد ونتويرث. كما كان مولعاً جداً باللوحات الفنية، ولكن ينبغي أن نعترف، تحت النور القوي للنقد المعاصر، بأن جدرانه كانت مزينة بالعديد من الروائع الفنية المجهضة على الأصح. كان قد تلقى تعليمه في كلية هارفارد، ولكنه لم يكن يكشف مدى هذا التعليم عموماً، كما كان يستمتع بصحبة الرفاق القدامى إلى حد أنه جعل السكن إلى القرب من تلك المؤسسة جزءاً من سعادته اليومية، حتى أنه كان يمر يومياً بها في بوسطن وهو يقود عربته. كان مهتماً جداً بالبارونة مونستر.

كانت صريحة جداً معه، أو على الأقل كانت تنوي أن تكون كذلك. قالت له بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع من استقرارها في مقرها الجديد: " أنا على ثقة تامة بأنك ستجد مسألة استقراري في هذا الجزء النائي من العالم أمراً غريباً جداً! أنا متأكدة من أنك تتساءل عن دوافعي. إنها نقية تماماً." كانت البارونة قد أصبحت في ذلك الحين من السكان القدماء، وكان قد زارها أرقى شخصيات مجتمع بوسطن ، كما واصطحبها كليفورد ونتويرث مرات عديدة في نزهة في عربته. كان روبرت أكتون جالساً إلى القرب منها يعبث بمروحة. كان هناك دائماً مراوح عديدة مطروحة في غرفة جلوس البارونة، وقد ربطت بها شرائط طويلة بألوان مختلفة؛ وكان أكتون يحب العبث بواحدة منها على الدوام. قال ببطء وهو يبتسم: "لا، لا أجد هذا غريباً على الإطلاق. أن تقوم امرأة ذكية بالظهور في بوسطن أو في ضواحيها أمر

Twitter: @ketab_n

لا يتطلب هذا الكثير من التفسير. بوسطن مكان لطيف جداً."

قالت البارونة: " إن كنت تريد مني أن أناقضك، فأنت قد أسأت فهم الأمر. حين أكون في مزاج معين، فليس هناك شيء لا أقدر على الموافقة عليه. بوسطن فردوس، ونحن في ضاحية من ضواحي الفردوس."

أجاب أكتون الذي كان يجلس متكاسلاً في كرسيه: " الآن بالضبط لستُ في الضواحي إطلاقاً. أنا في المكان نفسه." لم يكن هو متكاسلاً على الدوام على أي حال . وحين يتكاسل لم يكن شديد الاسترخاء كما يدعي. وإلى مدى معين، فقد كان هو يسعى إلى ملجأ بعيداً عن الخجل في هذا المظهر الموحي بالاسترخاء. وشأنه شأن أشخاص كثيرين في الظروف نفسها، كان يبالغ في ذلك المظهر. أما وراء هذا المظهر الذي يوحي بأنه في حالة من الراحة، فقد كانت تختفي حالة من الملاحظة اليقظة. كان يشعر بما هو أكثر من الاهتمام في هذه المرأة الذكية التي لم تكن ذكية بأسلوب بوسطن على الإطلاق، ، مهما كان يمكنه أن يقول عنها. لقد جعلته يغرق في نوع من الاستثارة واعتقلته في حالة من التشويق الغامض. كان مضطراً لأن يعترف في نفسه بأنه لم ير امرأة مثلها... ولا حتى في الصين. كان خجلاً، لأسباب مبهمة، من حيوية عاطفته، وقد تغلب على الصعوبة سطحياً بأن اتخذ بشكل سطحي أيضاً وجهة نظر المدام مونستر الهزلية. لم يكن صحيحاً على الإطلاق أنه كان يظن أنه أمر طبيعي جداً منها أن تكون قد قامت بهذا الحج الورع. يمكن أن يقال عنه سلفاً إنه كان شخصاً شديد الانتماء إلى بوسطن وإلى حد اعتباره الرغبة في زيارة عاصمة نيو إنغلند من قبل أبعد الغرباء غرابة أطوار. كان هذا دافعاً لا يحتاج إلى أي عذر بكل تأكيد. وكانت المدام مونستر المالك المحظوظ للعديد من أولاد

Twitter: @ketab_n

الخال من مواطني نيو إنغلند. في الواقع، أذهلته المدام مونستر بكونها لا تنسجم مع دائرتها الصغيرة. كانت في أفضل الأحوال شيئاً شاذاً مقبولاً ومثيراً للغموض بشكل لبق. كان يعرف جيداً أنه لا فائدة من إبلاغ هذه التأملات بشكل شديد الفجاجة إلى السيد ونتويرث. ما كان ليقول للرجل العجوز إنه كان يتساءل عما كانت البارونة تهدف إليه. وبالفعل، لن تكن لديه رغبة كبيرة في أن يشارك هذا الشعور الغامض بالريبة مع أي شخص آخر. كان يجد متعة شخصية في ذلك، أعظم متعة عرفها على الأقل منذ أن عاد من الصين. سيبقي البارونة لنفسه، في اليسر والعسر. كان لديه شعور بأنه يستحق له الاستمتاع باحتكارها، فقد كان بالتأكيد الشخص الذي يتمتع على أفضل نحو ملائم بمقياس لعلاقاتها الاجتماعية. وقبل فترة طويلة، فقد أصبح واضحاً له أن البارونة ما كانت تميل إطلاقاً إلى أن تفرض أي ضريبة على ذلك الاحتكار.

في أحد الأيام (كان جالساً هناك مجدداً وهو يعبث بالمروحة) طلبت منه أن يعتذر، إذا ما أتيحت له الفرصة، لعدد من الأشخاص المعينين في بوسطن لعدم تمكنها من رد زياراتهم. قالت: "هناك نصف دزينة من الأماكن، ويا لها من قائمة هائلة. لقد كتبتها شارلوت ونتويرث من اجلي، بخط شديد الوضوح. لا وجود لأي غموض في الموضوع. أعرف تماماً أين عليّ الذهاب. فالسيد ونتويرث يبلغني أن العربة ستكون دائماً تحت تصرفي، كما تعرض شارلوت أن تذهب معي، وهي ترتدي زوجاً من القفازات الضيقة وشلحة قاسية جداً. ومع ذلك فأنا أرجئ ذلك كله منذ ثلاثة أيام. لا بدّ وأنهم يعتبرونني شريرة إلى حد مريع.."

قال أكتون: " تطلبين مني الاعتذار ولكنك لا تقولين لي ما هو

Twitter: @ketab_n

العذر الذي عليّ تقديمه."

قالت البارونة: " هذا أكثر مما عليّ تحمله. سيبدو الأمر وكأنني أطلب منك أن تشتري لي باقة من الورد وأدفع لك المال. ليس لدي سبب سوى أن الجهد – نوعاً ما– عنيف جهد. ليس الأمر موحياً. ألا يمكن لهذا أن يكون عذراً في بوسطن؟ قيل لي أن الناس هنا شديدو الصدق، فهم لا يكذبون أبداً. ثم أن على فيليكس أن يذهب معي، وهو ليس مستعداً لذلك إطلاقاً. أنا لا أراه. إنه يهيم على الدوام بين الحقول ويرسم الحظائر القديمة ، أو يسير مسافة عشرة أميال، أو يرسم بورتريهاً لشخص ما، أو أنه يغازل غرترود ونتويرث."

قال أكتون: "عليّ أن أعتقد أنك ستجدين بعض التسلية في الذهاب ومقابلة قليل من الناس. الأوقات التي تقضينها هنا هادئة جداً. هذه حياة مملة بالنسبة إليك."

صاحت البارونة: " آه، الهدوء، ... الهدوء! هذا ما أحبه. هذه راحة. هذا هو ما جئت لأجله. التسلية؟ لقد عرفت الكثير من التسلية. أما فيما يخص مقابلة الناس، فقد سبق لي أن قابلت الكثير منهم في حياتي. ولو لم يكن أمراً يدل على قلة التهذيب لقلت إني أتمنى بكثير من التواضع لو أن أناسكم هنا يتركونني بحالي!"

نظر إليها أكتون لبرهة، ونظرت هي إليه. كانت امرأة تتحمل النظر إليها بشكل جيد وإلى حد استثنائي. سألها: " إذن، فقد جئت إلى هنا من أجل الراحة؟"

" يمكنني قول ذلك. جئت للكثير من الأسباب التي هي ليست أسباباً... ألا تعرف؟ .:. ومع ذلك، فهي أفضل الأسباب فعلاً: أن تبتعد، تمارس التغيير، تنقطع عن كل شيء. حين يبتعد المرء ذات مرة

Twitter: @ketab_n

فعليه أن يصل إلى مكان ما، وقد سألت نفسي لم لا أحضر إلى هنا؟"

قال أكتون ضاحكاً: " لا شك أنه أتيح لك الوقت الكافي على الطريق!"

نظرت المدام مونستر إليه مجدداً، ثم قالت وهي تبتسم: " لا شك أنه أتيح لي الوقت الكافي، منذ أن وصلت إلى هنا لأسال نفسي عن السبب في قدومي إلى هنا. وعلى أي حال، فأنا لا أطرح عل نفسي أبداً أسئلة تافهة. ها أنذا، ويبدو لي أن عليك أن تشكرني فحسب."

" حين ترحلين سترين الصعوبات التي سأضعها في طريقك."

سألته وهي تعيد ترتيب البرعم على صدارها: " هل تعني أن تضع صعوبات في طريقي؟"

"أعظم الصعوبات طراً... صعوبة أن يكون الناس شديدي اللطف..."

" أي ألا أكون قادرة على الرحيل؟ لا تكن شديد الثقة. لقد تركت أشخاصاً شديدي اللطف هناك."

قال أكتون: "آه، ولكن لتأتي إلى هنا، حيث أوجد أنا!"

" لم أكن أعلم بوجودك. اعذرني إن قلت أي شيء فظ، ولكن لو تكلمت بصدق، فأنا لم أحضر إلى هنا لأجلك. كلا." ثم تابعت البارونة كلامها قائلة: " حضرت إلى هنا بالضبط حتى لا أراك... أن أرى أشخاصاً مثلك."

صاح أكتون: " أن تري أشخاصاً مثلي؟"

"كان لديّ نوع من التوق للدخول في علاقات طبيعية كنت أعرف أني سأجدها هنا. هناك لم يكن لديّ، كما يمكنني أن أقول، علاقات مصطنعة. ألا ترى الفرق؟"

Twitter: @ketab_n

قال أكتون: "الفرق سيكون ضدي. أفترض أني علاقة مصطنعة."

أعلنت البارونة: " تقليدية، تقليدية جداً."

قال أكتون: " حسناً، هناك طريقة يمكن بها أن تصبح بها العلاقة بين سيدة ورجل علاقة طبيعية."

أجابت يوجينيا:" هل تعني بأن يصبحا عاشقين؟ قد يكون هذا طبيعياً أو لا يكون. وعلى أي حال، نحن لسنا عاشقين ."

لم يكونا كذلك بعد. ولكن بعد فترة قصيرة، حين بدأت تذهب معه في رحلات بالعربة، فقد كادا يبدوان كذلك. لقد زارها مرات عديدة، لوحده، في "عربته" العالية التي يجرها زوج من الجياد الفاتنة الرشيقة القوائم. كان الأمر مختلفاً عن ذهابها مع كليفورد ونتويرث الذي هو ابن خالها والأصغر سناً منها بكثير. لم يكن أمراً يمكن تخيّله أن تكون في حالة غزل مع كليفورد الذي كان مجرد شاب صغير خجول والذي كان قسم كبير من مجتمع بوسطن يفترض أنه وليزي أكتون "خطيبان". ولم يكن هناك بالفعل تصور بأن البارونة كانت مستعدة للانخراط في أي علاقة غزل من أي نوع؛ فقد كانت بكل تأكيد سيدة متزوجة. وكان الأمر الشائع أن وضعها كزوجة من النوع "المرغنطي". ولكن في كرهه الطبيعي للافتراض بأن هذا يعني أي شيء أقل من زواج مطلق، فإن ضمير المجتمع كان يلجأ إلى الاعتقاد بأنه كان يتضمن شيئاً أكبر.

كان أكتون راغباً في جعلها تعجب بالمناظر الطبيعية الأمريكية وكان يقود بها العربة مساقات بعيدة ويختارً أجمل الطرقات وأكثر المواقع قدرة على منح المتفرج أوسع منظور. لو كنا طيبين حين نكون سعداء، فإن فضائل يوجينيا يجب أن تكون الآن وبكل تأكيد في أعظم

Twitter: @ketab_n

حالاتها، فقد وجدت فتنة في التحرك السريع عبر الريف الوحشي، بصحبة رفيق يجعل العربة بين الحين والآخر تنحدر كطيران السنونو فوق دروب معبدة بشكل بدائي؛ والذي كان مستعداً- كما أحست- أن يقوم بأشياء عظيمة كثيرة لو طلبت منه ذلك. أحياناً، وطوال ساعتين كاملتين، لم تكن هناك منازل. لم يكن هناك سوى الغابات والأنهار والبحيرات وأفاق مزينة بجبال لامعة المظهر. بدا هذا للبارونة كشيء شديد الجموح وجميل، كما قلت سابقاً؛ ولكن الانطباع أضاف شيئاً إلى معنى توسيع الفرصة الذي ولد نتيجة وصولها إلى "العالم الجديد".

في أحد الأيام - وكان الوقت عصراً- جذب أكتون أعنة جواديه على ذروة تل يطل على منظر جميل. تركهما واقفين زمناً كافياً ليرتاحا، بينما جلس هناك وراح يحادث المدام مونستر. كان المنظر جميلاً رغم عدم وجود أي شيء يدل على وجود بشري ضمن مدى البصر. كانت هناك برية من الغابات والتماع نهر بعيد ولمحة من نصف قمم الجبال في ماساتشوستس. كان للطريق حافة عريضة معشوشبة يترقرق على الجانب البعيد منها جدول عميق صاف. كانت هناك أزهار برية في العشب وإلى جانب الجدول كان جذع شجرة ساقطة. انتظر أكتون لبرهة، وأخيراً بدا عابر سبيل ريفي وهو يسير متثاقلاً على امتداد الطريق. طلب منه أكتون أن يمسك بالجوادين كلفتة كريمة من مواطن لآخر. ثم دعا البارونة للهبوط، وتجول الاثنان مبتعدين عبر العشب وجلسا على الجذع قرب الجدول.

قال أكتون: " أتصور أن هذا لا يذكرك بسيلبرشتات." كانت تلك أول مرة يذكر فيها سيلبرشتات ولأسباب معينة. كان يعرف أن لها زوجاً هناك، وكان هذا أمراً غير سار بالنسبة إليه. وعلاوة على ذلك، فقد ذكر مراراً له أن هذا الزوج يرغب في التخلص منها: وفي مثل هذه

Twitter: @ketab_n

الحال من الأمور فإنه حتى الإشارة غير المباشرة إلى الموضوع ستكون مستنكرة. كان من الصحيح على أي حال أن البارونة نفسها غالباً ما كانت تلمح إلى سيلبرشتات. وكان أكتون يتساءل غالباً لم كان زوجها راغباً في التخلص منها. كان ذلك الوضع غريباً بالنسبة إلى سيدة: فقد كانت معروفة على أنها زوجة غير معترف بها. وإنه لأمر يستحق الملاحظة أن تكون البارونة تتعامل مع هذا الأمر بكل كياسة ووقار. لقد جعلت الجميع يشعرون، منذ البداية، أن هناك جانبين للمسألة، وأن جانبها بالذات، حين تختار أن تفصح عنه، سيكون مفعماً بتشويق مؤثر.

قالت: " هذا لا يذكرني بالمدينة بالطبع، ولا بالجملونات المنحوتة والكنائس القوطية وبالشلوس ssolhcs الرائع والخندق والأبراج المتعنقدة. ولكنه يبدو شبيهاً بعض الشيء بالأجزاء الأخرى من الإمارة. يمكن للمرء أن يتخيل نفسه وهو بين تلك الغابات الألمانية العظيمة القديمة وتلك الجبال الأسطورية؛ وذلك النوع من الريف الذي يراه المرء من النوافذ في شركنشتاين."

سألها أكتون: "وما هي شركنشتاين؟"

" إنها قلعة عظيمة ... المقر الصيفي للأمير الحاكم."

" هل سبق لك وعشت هناك؟"

قالت البارونة: " لقد مكثت هناك". صمت أكتون. نظر لبرهة إلى المنظر الذي يخلو من القلاع أمامه. قالت: " هذه أول مرة تسألني فيها عن سيلبرشتات. يجب أن أظن أنك تريد أن تعرف شيئاً عن زواجي. لا بدّ وأنه يبدو لك غريباً جداً."

نظر إليها أكتون للحظة. " والآن لا تريدينني أن أقول ذلك!"

Twitter: @ketab_n

صرحت البارونة: " أنتم الأمريكيين لكم أساليب عجيبة! لا تسألون عن أي شيء بشكل مباشر. يبدو وكأن هناك أموراً كثيرة جداً لا يمكنك أن تتحدث عنها."

قال أكتون الذي كان وعيه الوطني قد تعقد بسبب إقامته في البلدان الأجنبية والذي كان ما يزال يكره أن يسمع إساءة في حق الأمريكيين: " نحن الأمريكيين في منتهى اللطف. لا نحب أن نحفظ الناس بكلام ناب أو عمل مسيء. ولكني أود كثيراً أن أعرف شيئاً عن زواجك. والآن احك لي كيف جرى ذلك."

أجابت البارونة ببساطة: " وقع الأمير في غرامي وقد ألح عليّ بغزله. في البداية لم يكن يريد مني أن أتزوجه، بل العكس هو الصحيح. ولكني كنت أرفض الانصياع له على هذا الأساس. وهكذا عرض عليّ الزواج ضمن الشروط التي يستطيعها. كنت صغيرة في السن وأعترف أني شعرت بالإطراء. ولكن لو كان الأمر سيحدث مرة أخرى، الآن مثلاً، لما كنت لأقبل به."

سألها أكتون: " متى حدث ذلك؟"

قالت يوجينيا: " أوه، منذ سنين عديدة. لا ينبغي عليك أن تسأل امرأة عن التواريخ."

أجاب أكتون: "لم عليّ أن أفكر في هذا حين تكون المرأة آخذة بسرد تاريخ ما... والآن هو يريد أن ينهي هذا الزواج؟"

" يريدون منه أن يدخل في علاقة زوجية ذات مغزى سياسي. هذه فكرة أخيه. أخوه ذكي جداً."

صاح روبرت أكتون: " لا بد أنهما زوج من الأشقاء الأعزاء جداً!"

Twitter: @ketab_n

هزت البارونة كتفها هزة صغيرة ذات مغزى فلسفي. قالت: " وما الذي تريد منهما أن يفعلاه؟ إنهما أميران. يظنان أنهما يعاملانني بشكل جيد جداً. سيلبرشتات دولة صغيرة استبدادية تماماً، والأمير الحاكم يمكنه أن يبطل الزواج بضربة من قلمه. ولكنه كان قد وعدني، على أي حال، بألا يفعل ذلك دون موافقتي بشكل رسمي."

" وقد رفضت هذا."

" حتى الآن. إنها معاملة مهينة. وقد أردت أن أصعب الأمر عليهما. ولكن لديّ وثيقة صغيرة في منضدة الكتابة خاصتي ليس عليّ سوى توقيعها وإرسالها إلى الأمير."

" وعندها سينتهي كل شيء؟"

رفعت الأميرة يدها ثم أسقطتها مجدداً. " بالطبع سأحتفظ بلقبي على الأقل، وستكون لي حرية الاحتفاظ به إن أردت. وأعتقد أني سأحتفظ به. يجب أن يحمل الواحد منا اسماً ما. وسوف أحتفظ براتبي التقاعدي. إنه صغير جداً، صغير على نحو بائس. ولكنه ما يقيم أودي."

سألها أكتون: " وكل ما عليك فعله هو توقيع تلك الورقة."

نظرت إليه البارونة لبرهة ثم قالت: " هل تحثني على فعل ذلك؟"

نهض ببطء ووقف ويداه في جيبيه. "وما الذي تكسبينه إن لم تفعلي ذلك؟"

" من المفروض بي أن أكسب هذه المزية... وأني إذا تأخرت أو تريثت، قد يعود إليّ ألأمير ويتخذ موقفاً ضد أخيه. إنه مغرم جداً بي ولكن أخاه لم يدفعه ضدي إلاّ قليلاً."

Twitter: @ketab_n

سأل أكتون: " لو أنه عاد إليك، فهل سترضين أن تستعيديه؟"

نظرت البارونة في عينيه واحمر وجهها قليلاً. ثم نهضت وقالت: " سيتاح لي أن أشعر بالرضا وأقول (الآن جاء دوري. أود أن أقطع علاقتي بك يا صاحب السمو والفخامة!)."

بدآ يمشيان نحو العربة. قال روبرت أكتون: " حسناً، هذه قصة عجيبة! وكيف تعرفت إليه؟"

" كنت أقيم مع سيدة عجوز– كونتيسة عجوز– في درسدن. كانت صديقة لأبي. كان أبي قد توفي، وكنت وحيدة جداً. كان أخي يجول العالم ضمن فرقة مسرحية."

قال أكتون: " كان على أخيك أن يبقى معك ويحميك من أن تضعي ثقتك في الأمراء."

صمتت البارونة لبرهة، ثم قالت:" لقد فعل ما بوسعه. كان يرسل النقود إليّ. وقد شجعت الكونتسية العجوز الأمير. كانت تضغط عليّ حتى." ثم أضافت البارونة مونستر: " وقد بدا لي أني تصرفت بشكل جيد جداً، هذا إذا ما أخذنا الظروف في الحسبان."

نظر أكتون إليها ولاحظ – كما كان قد فعل من قبل – أن المرأة تبدو أجمل بعد أن تعترف بأخطائها أو معاناتها. قال وهو يفكر بصوت مرتفع: "أود لو أراك ترسلين صاحب السمو والفخامة... إلى مكان ما!"

انحنت المدام مونستر وقطفت أقحوانة من بين الأعشاب. " وألاّ أوقع على وثيقة التخلّي؟"

قال أكتون: " حسناً، لا أعرف... لا أعرف."

Twitter: @ketab_n

" بإحدى الحالتين سأكون قد انتقمت وبالأخرى أنال حريتي."

أطلق أكتون ضحكة قصيرة وهو يساعدها على الصعود إلى العربة. قال: " على أي حال، اعتني بتلك الورقة جيداً."

بعد يومين طلب منها الحضور لترى منزله. كان قد سبق للزيارة أن اقترحت، ولكنها كانت تؤجل بسبب مرض أمه. كانت مريضة باستمرار وقد أمضت هذه السنوات الأخيرة، بصبر كبير، على كنبة كبيرة مزهّرة وضعت قرب نافذة غرفة نومها. مؤخراً، ومنذ بعض الأيام، لم تعد قادرة على مقابلة أي شخص، ولكنها أصبحت أفضل الآن، وقد أرسلت إلى البارونة رسالة شديدة التهذيب. كان أكتون قد أراد أن يدعو زائرته لتناول الغداء ولكن المدام مونستر فضلت أن تبدأ بزيارة بسيطة. فقد فكرت في أنها لو ذهبت في دعوة للغداء، فإن السيد ونتويرث وابنتيه سيدعون أيضاً، وقد بدا لها أن الصفة الخاصة للمناسبة يمكن الحفاظ عليها على أفضل نحو إذا ما أتيح لها جلسة حميمة مع مضيفتها. أما لماذا كانت المناسبة ذات صفة خاصة، فهذا أمر لم تشرحه لأحد. وفي حدود ما يمكن للمرء أن يراه، فقد كانت الزيارة مدّعاة للسرور الشديد. وصل أكتون وقاد بها العربة حتى باب منزله، وهذه عملية تمت بسرعة. وقد حكمت البارونة على منزله ذهنياً بأنه جيد جداً. ولكنها قالت له إنه ساحر. كان واسعاً ومربع الشكل ومطلياً باللون البني ومحاطاً بشجيرات معتنى بها. أما الوصول إليه من البوابة الكبيرة فكان بواسطة درب خاص. وكان علاوة على ذلك أكثر عصرية من منزل السيد ونتويرث ويحتوي أكثر منه على أعمال التنجيد والزخرفة المكلفة. أدركت البارونة أن مضيفها قد حلّل الراحة المادية حتى وصل بها إلى حد كاف من الرهافة. كما أنه كان يمتلك تحفاً صينية مبهجة: تذكارات إقامته في "الإمبراطورية السماوية": أبنية

Twitter: @ketab_n

مصغرة ذات طبقات عديدة من الأبنوس وخزائن من العاج، وحوش منحوتة ضاحكة وناظرة بشزر موضوعة على رف المدفأة، أمام ستائر يدوية ذات أشكال جميلة، أدوات الغداء من البورسلان تلتمع خلف الأبواب الزجاجية لخزائن من خشب الماهوغاني. ستائر كبيرة في زوايا: مغطاة بحرير مشدود ومزينة بماندراينات وتنانين. كانت هذه الأشياء مبعثرة في كل أرجاء المنزل وقد أعطت يوجينيا العذر لزيارة منزلية كاملة. أحبت المنزل واستمتعت بزيارته فقد وجدته مكاناً لطيفاً. كان يتصف بكونه مزيجاً من البساطة والتحرر، ورغم أنه بدا كمتحف تقريباً، إلا أن الغرف الواسعة قليلة الاستخدام كانت نضرة ونظيفة كملبنة معتنى بها جيداً. حكت لها ليزي أكتون أنها كانت تنفض الغبار عن الأبنية المصغرة والتحف الأخرى كل يوم بيديها، فقالت لها البارونة إنها لا شك جنية منزلية. لم يكن لليزي أبداً شكل سيدة شابة تقوم بنفض الغبار عن الأشياء، فقد كانت ترتدي أثواباً جميلة وتتمتع بأصابع رقيقة بحيث يصعب تصورها وهي منغمسة في أعمال قذرة. استقبلت المدام مونستر لدى وصولها، ولكنها لم تقل شيئاً أو لا شيء تقريباً، وفكرت البارونة مجدداً – وقد أتيحت لها الفرصة سابقاً– بأن الفتيات الأمريكيات يفتقرن إلى آداب السلوك. كانت تكره هذه الفتاة الأمريكية الصغيرة، وكانت مستعدة تماماً أن تسمع أنها لم تنجح في كسب ودّ الآنسة أكتون. كانت ليزي تتراءى لها كفتاة إيجابية وصريحة تقريباً إلى حد الخفة. أما فكرة أن تجمع تنافرات الذوق الواضحة للعمل المنزلي وارتداء الفساتين الباريسية المظهر فكانت توحي بامتلاك طاقة خطرة. كان أمراً مثيراً لغيظ البارونة أنه في هذا البلد يبدو كأنما كانت تمنح أهمية لمسألة ما إذا كانت فتاة صغيرة ترتدي شيئاً اقل أو أكثر من شخص عديم الأهمية. فقد كانت يوجينيا حتى الآن غير مدركة لأي ضغط أخلاقي يتعلق بتقدير العذارى الصغيرات.

Twitter: @ketab_n

ربما كان ذلك دليلاً على خفة ليزي لأنها سرعان ما استقالت وتركت البارونة بين يدي أخيها. تحدث أكتون كثيراً عن تحفه الصينية، فقد كان يعرف الكثير عن البورسلان والتحف الصغيرة. أما البارونة فتوقفت عند محطات كثيرة خلال تجوالها في المنزل. راحت تجلس في كل مكان وتعترف بأنها متعبة قليلاً، وتسأل عن مختلف الأشياء بمزيج عجيب من الانتباه وعدم الاهتمام. ولو كان هناك شخص تستطيع أن تحكي له لكانت صرحت له بأنها كانت حقاً مغرمة بمضيفها؛ ولكنها ما كانت تستطيع إلا بالكاد أن تتلفظ بهذا التصريح – حتى في أقصى حالات الثقة – لأكتون بالذات. ولكنها كانت مترعة، على أي حال، بذلك السرور الممزوج بفتنة الشيء غير المعهود لشعورها بتلك الحدة الرائعة التي كانت هي قادرة على أن تحس الأمور بواسطتها، بأن أكتون كان يتمتع بسلوك دون حدود؛ وأنه حتى تهكمه المضحك غالباً ما كان يتمدد حتى يصل إلى الهدف المطلوب. كان الانطباع الذي يأخذه المرء عن نزاهته أشبه بحمل باقة أزهار، لها عطر شهي، إلا أنها متعبة أحياناً. يمكن للمرء أن يثق به، على أي حال، في جميع أرجاء العالم. ومع ذلك، فهو لم يكن بالشخص البسيط بشكل مطلق، فقد كان يمكن لذلك أن يكون إسرافاً. كان بسيطاً على نحو نسبي وهذا كاف تماماً للبارونة.

عادت ليزي للظهور لتقول إن أمها سيسعدها الآن أن تستقبل المدام مونستر، وتبعتها البارونة إلى شقة السيدة أكتون. تأملت يوجينيا وهي تمضي أن ما يجعلها تكره هذه الشابة ليس تصنّع الوقاحة، فعلى هذا الأساس كلن يمكنها أن تبزها بسهولة. ولم يكن ذلك طموحاً من جهة الفتاة في مجال المنافسة، بل نوع من الضحك، من اللامبالاة الطفولية الساخرة بنتائج المشابهة. كانت السيدة أكتون امرأة نحيلة

Twitter: @ketab_n

ذات وجه عذب في الخامسة والخمسين من عمرها، تجلس وخلفها وسائد وهي تتفرج على مجموعة من نبات الشوكران. كانت شديدة التواضع والخجل ومريضة جداً. جعلت يوجينيا تشعر أنها ليست في حالة مشابهة، ليست مريضة جداً ولا متواضعة إلى هذا الحد. على كرسي قريب منه كان كتاب "مقالات إمرسون"[١٨]. كانت تلك مناسبة عظيمة بالنسبة على السيدة أكتون، وهي في حالة العجز تلك، أن تواجه سيدة أجنبية ذكية لديها من السلوك أكثر مما سبق لها وشاهدته لدى أي سيدة ... أو حتى أي دزينة من السيدات.

قالت للبارونة بصوت خفيض: " لقد سمعت الكثير عنك".

سألتها يوجينيا: " من ابنك، أليس كذلك؟ لقد كلمني كثيراً عنك. أوه، إنه يتحدث عنك كما تحبين." ثم أردفت البارونة: " كما ينبغي على ابن أن يتحدث عن أم مثلك."

جلست السيدة أكتون وراحت تحدق. كان هذا جزءاً من "سلوك" المدام مونستر. ولكن روبرت أكتون كان يحدق أيضاً في وعي واضح بأنه لم يسبق له إلا بالكاد أن ذكر أمه أمام الضيفة الألمعية. لم يتكلم قط عن الوجود الأموي الساكن : حضور مرهف إلى ذلك الحد الدقيق حتى أنه حلّل نفسه ، معه، متحولاً ببساطة إلى عاطفة ذاتية من الامتنان. و لم يكن أكتون يتكلم إلا نادراً عن عواطفه. التفتت البارونة بابتسامتها إليه وأحست فوراً أنها كانت تحت المراقبة وأنها كذبت. لقد ضربت على الوتر الخطأ. ولكن من كان هؤلاء الناس الذين لم يكن مثل هذا الكذب باعثاً على السرور؟ إن كانوا منزعجين، فقد

---

(١٨) رالف والدو إمرسون (١٨٠٣-١٨٨٢) شاعر وفيلسوف أمريكي.

Twitter: @ketab_n

كانت البارونة منزعجة أيضاً. وبعد تبادل القليل من الأسئلة المعتادة في هذه المناسبات والإجابات بصوت خفيض استأذنت السيدة أكتون للرحيل. وقد توسلت إلى روبرت ألا يصطحبها إلى البيت، فهي ستركب لوحدها في العربة. كانت تفضل ذلك. كان هذا يوحي بالعجرفة وقد ظنت أنها بدت خائبة الرجاء. وبينما كانت واقفة أمام الباب معه– كانت العربة تتحرك عبر الدرب المغطى بالحصى المؤدي إلى البوابة – فإن هذه الفكرة أعادت لها هدوءها.

وحين أعطته يدها لتودعه نظرت إليه لبرهة. قالت: " لقد كدت أقرر أن أبعث بتلك الورقة."

عرف أنها كانت تلمح إلى الوثيقة التي سمتها (التخلّي) ، وقد ساعدها على الصعود إلى العربة دون أن يقول شيئاً. ولكن قبل أن تبدأ العربة بالتحرك قال: " حسناً، حين تكونين قد أرسلتها آمل أن تعلميني!"

Twitter: @ketab_n

-٧-

أنهى فيليكس ينغ بورتريه غرترود، ثم انتقل إلى رسم أفراد كثيرين من أعضاء تلك الحلقة التي أصبح محوراً ومركزاً لها في الوقت الحالي. وأخشى أنه ينبغي الاعتراف بأنه كان حتماً رساماً يرضي موديلاته، فقد كان يمنح صورهم نفحة رومانسية تبدو مكتسبة بسهولة ورخص، لقاء دفع مبلغ مائة دولار أمريكي لشاب جعل "الجلوس للرسم" أمامه أمراً مسلياً جداً. فقد كان فيليكس يتلقى مالاً لقاء رسومه معلناً على الملأ حقيقة أنه إذ وجه خطواته نحو العالم "الغربي" فقد جعل الفضول الودي يواكب رغبة في تحسين حالته المادية. وقد رسم بورتريه خاله وكأن السيد ونتويرث لم يسبق له أن أشاح بوجهه عن مثل هذه التجربة. وبينما حقق هدفه بممارسة العنف اللطيف فحسب إلا أنه من العدل أن نضيف أنه سمح للرجل العجوز ألا يمنحه سوى بعض من وقته. وقد شبك ذراعه ذات صباح صيفي بذراع السيد ونتويرث – كانت أذرع قليلة جداً بالفعل قد سبق لها وشبكت في ذراع السيد ونتويرث – وقاده عبر الحديقة وعلى طول الدرب الواصل على المرسم الذي كان قد ارتجله في المنزل الصغير بين أشجار التفاح. شعر الرجل العجوز الوقور بنفسه وهو يفتن أكثر فأكثر بابن أخته البارع، والذي كان شبابه النضر فياض المشاعر يبدو خلاصة جامعة لتجارب عديدة إلى حد عجيب. بدا له أن فيليكس لا بدّ يعرف الكثير. سيود

Twitter: @ketab_n

أن يعرف منه ما رأيه في بعض تلك الأمور التي كانت حواراته بشأنها رسمية إنما معرفته غامضة. كان فيليكس يتحلى بأسلوب واثق وصارم على نحو مرح في حكمه على التصرفات البشرية والذي بدأ السيد ونتويرث يحسده عليه شيئاً فشيئاً. لقد بدا وكأن النقد قد صار سهلاً. إن تشكيل رأي – مثلاً عن سلوك شخص ما– كان بالنسبة إلى السيد ونتويرث أشبه بالعبث في قفل بمفتاح اختير صدفة. بدا له أنه يسير في هذا العالم بحلقة كبيرة من هذه المفاتيح غير الفعالة معلقة في زناره. أما ابن أخته، من الجانب الآخر، وبرمة واحدة من رسغه، فقد كان يفتح أي باب بمهارة لص من لصوص المنازل. أحس بأنه مضطر إلى الحفاظ على التقليد بأن الخال هو دائماً أكثر حكمة من ابن شقيقته، حتى لو لم يستطع الحفاظ عليه إلا بالإصغاء في صمت جدي إلى خطاب فيليكس السريع الرشيق المتواصل. ولكن جرى في أحد الأيام أن تخلى عن الاتساق وكاد يطلب النصح من ابن شقيقته.

سأل ذات صباح بينما كان فيليكس يستخدم فرشاته ببراعة: " هل سبق لك ودارت في خلدك فكرة الاستقرار في الولايات المتحدة؟"

قال فيليكس: " يا خالي العزيز، اعذرني إن كان سؤالك يجعلني أبتسم قليلاً. أولاً، لم يسبق أن دارت في خلدي فكرة ما. غالباً ما تفرض الأفكار نفسها عليّ. ولكني أخشى أنه لم يسبق لي أن وضعت خطة بشكل جدي. أعرف ما ستقوله، أو بالأحرى، أعرف ما تفكر فيه، فأنا لا أعتقد أنك ستقولها– إن هذا تصرف شديد التفاهة والسخف من جانبي– ولكن هكذا أنا؛ لأني آخذ الأمور كما تأتي، وعلى نحو ما هناك دائماً شيء ما جديد يتبع الشيء الأخير. وثانياً، ليس عليّ أبداً أن أقترح (الاستقرار). لا أستطيع الاستقرار يا خالي العزيز؛ لست من النوع الذي يستقر. أعتقد أن هذا هو المفروض

Twitter: @ketab_n

بالغرباء أن يفعلوه هنا. إنهم دائماً ما يستقرون. ولكن – جواباً على سؤالك– لم تدر في خلدي تلك الفكرة.

سأل السيد ونتويرث: " هل تنوي العودة إلى أوروبا واستئناف أسلوب حياتك غير المنتظم؟"

" لا أستطيع القول إني أنوي، ولكن من المحتمل جداً أن أعود إلى أوروبا. وعلى أي حال، فأنا أوربي. أشعر بذلك، كما تعرف. وسيعتمد الأمر إلى حد كبير على شقيقتي. إنها أوربية أكثر مني حتى. وهنا تبدو هي، كما تعرف، كصورة خارج خلفيتها. أما فيما يتعلق بـ "الاستئناف"، يا خالي العزيز، فأنا لم أتخل قط عن أسلوبي غير المنتظم في الحياة. وما هو الذي يمكن أن يكون أكثر لا انتظاماً من هذا؟"

سأل السيد ونتويرث: " ممّ؟"

" حسناً، أكثر من كل شيء! العيش في وسطكم، بهذا الأسلوب: هذه الحياة العائلية الفاتنة الهادئة الجدية؛ أن أتآخى مع شارلوت وغرترود؛ أزور عشرين فتاة شابة وأخرج للنزهة معهن؛ أجالسك في المساء على الشرفة وأصغي إلى الجداجد وأذهب إلى سريري في العاشرة."

قال السيد ونتويرث: " وصفك منعش جداً، ولكني لا أرى أي شيء غير لائق في وصفه."

قال فيليكس وهو يتابع الرسم: " ولا أنا يا خالي العزيز. إنه أمر ممتع جداً. ما كان ينبغي عليّ أن أحبه لو أنه كان غير لائق. أؤكد لك أني لا أحب الأشياء غير اللائقة؛ رغم أني أجرؤ على القول إنك تظنني كذلك."

" لم يسبق لي قط أن اتهمتك بمثل هذا."

Twitter: @ketab_n

قال فيليكس: " أرجو ألا تفعل، فكما ترى، أنا في الأساس شخص كاره للقيم الجمالية وراض بحاله إلى حد رهيب."

ردد السيد ونتويرث: " كاره للقيم الجمالية وراض بنفسه؟"

" أعني، كما يمكن للمرء أن يقول: شخص بسيط يخاف الرب." نظر إليه السيد ونتويرث بتحفظ، كحكيم محيّر، ولكن فيليكس تابع كلامه قائلاً: " أثق بأني سأتمتع بشيخوخة محترمة ومكرّمة. أعني أني سأعيش طويلاً. لا استطيع تسمية هذا بالخطة، على الأرجح، ولكنها رغبة حادة... رؤيا وردية. سأكون رجلاً عجوزاً حيوياً، وربما حتى كثير العبث!"

قال خاله بلهجة حكيمة: "من الطبيعي أن يرغب المرء في تمديد حياة رضية. ربما نتمتع بإعراض أناني عن الوصول إلى ختام لمسراتنا." ثم أضاف: " ولكني أفترض أنك تتوقع أن تتزوج."

قال فيليكس :" هذا يا خالي العزيز مجرد أمل، رغبة، رؤيا." لقد خطر له لبرهة أن هذه كانت على الأرجح مقدمة لعرض يد إحدى بنتي السيد ونتويرث الرائعتين عليه. ولكن باسم التواضع المحتشم وبإحساس ملائم للحقائق القاسية لهذا العالم، طرد فيليكس الفكرة من رأسه. كان خاله تجسيداً لحب الخير دون شك، ولكن الانطلاق من هذا نحو قبول – أو التسليم إلى حد أشد – بفكرة زواج يجمع بين سيدة شابة ذات دوطة من المرجح أن تكون رائعة، وفنان مفلس لا أمل له بالشهرة، لا بد أنها ستمر بدرب طويل جداً. لقد أصبح فيليكس مؤخراً واعياً بتفضيل مترف لعشرة غرترود ونتويرث وإن أمكن ذلك دون مشاركة مع الآخرين فهو أفضل؛ ولكنه كان قد هبط بتقديره لهذه الشابة، مؤقتاً، مصنفاً إياها ضمن الفئة الألمعية الباردة للممتلكات بعيدة المنال. لم تكن هي أول امرأة يشعر نحوها بإعجاب

Twitter: @ketab_n

غير عملي. لقد سبق له ووقع في حب دوقات وكونتيسات، كما أنه قام، مرة أو مرتين، بمقاربة وثيقة بشكل خطر من التهكم بأن صرح بأن زهد النساء أمر مبالغ في تقديره. وإجمالاً، فقد مزج الجرأة بالتواضع، وإنه لمن الإنصاف في حقه أن نقول بصراحة إنه ما كان ليستطيع استغلال ذلك المقدار الكبير المتاح له من الإلفة ليغازل صغرى ابنتي خاله المليحتين. كان فيليكس قد نشأ ضمن تقاليد يعتبر فيها مثل هذا السلوك انتهاكاً خطيراً للضيافة. لقد قلت إنه كان سعيداً على الدوام ويمكننا الآن أن نعزو بعض مصادر سعادته الحالية إلى أنه فيما يخص علاقته مع غرترود، فقد كان ضميره مرتاحاً تماماً. بدا له سلوكه مشبعاً بجمال الفضيلة: شكل من الجمال كان معجباً به بالحيوية نفسها التي يعجب فيها بكل الأشكال الأخرى.

قال السيد ونتويرث الآن: " اعتقد أنك لو تزوجت فسيؤدي ذلك إلى سعادتك."

صاح فيليكس بالإيطالية: " بكل تأكيد"، ثم أوقف العمل بفرشاته، ونظر إلى خاله بابتسامة. أضاف: " هناك شيء ما أشعر بالميل إلى قوله لك. هل أخاطر؟"

تحفظ السيد ونتويرث قليلاً. "أنا في وضع أمين جداً. أنا لا أكرر ما أقوله." ولكنه كان يأمل ألا يخاطر فيليكس كثيراً.

كان فيليكس يضحك من جوابه. " من العجيب أن أسمعك تقول لي كيف أكون سعيداً. لا أعتقد أنك تعرف ذلك يا خالي العزيز. والآن، هل يبدو هذا قاسياً؟"

صمت الرجل العجوز لبرهة، ثم، وبوقار جاف جداً، لمس ابن أخته: " قد نشير أحياناً إلى درب لا نستطيع نحن السير فيه."

استأنف فيليكس الكلام فقال: " آه، لا تقل لي إنه كانت لديك

Twitter: @ketab_n

أحزانك. لا أفترض ذلك، و لم أكن أعني الإشارة إليها. كنت أعني ببساطة أنكم لا تسلون أنفسكم، جميعكم هنا."

" نسلي أنفسنا؟ لسنا أطفالاً."

" لستم كذلك بالضبط. لقد وصلت أنت إلى السن الملائمة. لقد قلت هذا لغرترود منذ بضعة أيام. آمل ألا يكون هذا قولاً غير حصيف."

قال السيد ونتويرث بسخرية أكبر مما كان فيليكس يظنه قادراً عليها: " لو كان الأمر كذلك، لكان هو مجرد طريقتك في تسلية نفسك. أخشى أنك لم تعرف الهمّ من قبل."

أعلن فيليكس ببعض الحيوية: " أوه، أجل! قبل أن أتعلم ما هو الصحيح. ولكنك لن تجدني في مثل تلك الحالة مرة أخرى."

حافظ السيد ونتويرث لفترة قصيرة من الزمن على صمت كان أكثر تعبيراً من تنهيدة عميقة. قال أخيراً: " " ليس لديك أولاد."

صاح فيليكس: " لا تقل لي إن ذريتك الشابة الفاتنة مصدر حزن لك!"

قال السيد ونتويرث " لا أقصد شارلوت"، ثم استأنف قائلاً: " ولا أقصد غرترود. ولكني قلق جداً بشأن كليفورد. سأحكي لك عنه في مناسبة أخرى."

وفي المرة التالية التي جلس فيها أمام فيليكس ليرسمه، فإن ابن أخته هذا ذكره بأنه قد أصبح موضع سره. سأل فيليكس: " كيف هو كليفورد اليوم؟ لقد بدا لي دائماً شاباً ذا تحفظ رائع. بالفعل، هو شديد التحفظ فحسب. يبدو وكأنه حذر مني. وكأنه يظنني لا أستحق

Twitter: @ketab_n

صحبته لخفّتي. قال لأخته قبل أيام – كررت غرترود كلامه لي– إني أضحك منه دائماً. لو كنت أضحك فذلك ببساطة من الدافع لديّ لأجرب أن أوحي إليه بالثقة. هذه هي طريقتي الوحيدة."

قال السيد ونتويرث: "حالة كليفورد لا تدعو إلى الضحك. إنها عجيبة جداً، كما أعتقد أنك خمنت ذلك."

"أوه، أتعني قصة حبه لقريبته؟"

حدق السيد ونتويرث وقد تضرج وجهه قليلاً. " أعني غيابه عن الكلية. لقد منع من الاستمرار بالدراسة. وقد قررنا ألا نتكلم في الموضوع حتى نسأل عنه."

كرر فيليكس: " منع من الاستمرار في الدراسة؟"

" طلبت منه سلطات جامعة هارفارد أن يغيب مدة ستة أشهر. في هذه الأثناء هو يدرس مع السيد براند. نعتقد أن السيد براند سيساعده، على الأقل نحن نأمل في ذلك."

سأل فيليكس: " ما الذي جرى له في الكلية؟ كان شديد التعلق بالملذات؟ لن يعلمه السيد براند أياً من هذه الأسرار بكل تأكيد!"

" كان مغرماً جداً بشيء ما كان ينبغي عليه أن يغرم به. أفترض أنه يعتبره لذة من الملذات."

أطلق فيليكس ضحكة خفيفة. " يا خالي العزيز، وهل هناك شك في كونها أي شيء آخر إلا لذة من الملذات؟ هذا بحكم السن التي هو فيها، كما يقولون في فرنسا."

" بل عليّ أن أقول بالأحرى إنها كانت خطيئة الحياة المتقدمة... الشيخوخة خائبة الرجاء."

Twitter: @ketab_n

نظر فيليكس إلى خاله وقد رفع حاجبيه، ثم سأل وهو يبتسم: " عم تتحدث؟"

" عن الحالة التي وجد فيها كليفورد."

" آه، الحالة التي وجد فيها... هل أمسكوا به؟"

" بالضرورة أمسكوا به. لم يكن قادراً على المشي. كان يترنح."

قال فيليكس: " أوه، إنه يشرب! لقد ارتبت في هذا بعض الشيء، من شيء ما لاحظته من أول يوم وصلت فيه إلى هنا. أنا أرى معك أن هذا يدل على ذوق غير رفيع. هذه ليست خطيئة يرتكبها سيد مهذب. عليه أن يتخلى عنها."

" نأمل الكثير من تأثير السيد براند. لقد تحدث إليه منذ البداية. وهو لا يلمس أي شيء بنفسه."

صرح فيليكس بمرح: " سأكلمه... سأكلمه!"

سأل خاله ببعض التوجس: " وما الذي ستقوله له؟"

مرت بضع لحظات وفيليكس لا يجيب بشيء، ثم قال أخيراً: " هل تنوون تزويجه من قريبته؟"

ردده السيد ونتويرث: " نزوجه؟ لا أعتقد أنها تريد الزواج منه."

" ليس لديكم تفاهم مع السيدة أكتون أذاً؟"

حدق السيد ونتويرث بذهن فارغ تقريباً. " لم يسبق لي أن ناقشتها في مثل هذه المواضيع."

قال فيليكس: "أعتقد أن الوقت قد حان لذلك. ليزي أكتون جميلة بشكل يثير الإعجاب، وإن كان كليفورد خطيراً..."

Twitter: @ketab_n

قال السيد ونتويرث: " هما ليسا مخطوبين. لا سبب يدعوني إلى الافتراض بأنهما مخطوبان."

صاح فيليكس: "على سبيل المثال". ثم أردف قائلاً: " خطوبة سرية. ثق بي. كما قلت فإن كليفورد شاب رائع. ليس هو بالقادر على القيام بذلك. عندها لن تغار ليزي أكتون من امرأة أخرى."

قال الرجل العجوز بحس غامض بأن الغيرة خطيئة أحط من حبه للشراب: " لا آمل ذلك."

اقترح فيليكس قائلاً :" أفضل حل لكليفورد إذاً أن يهتم بامرأة ذكية وفاتنة." ثم توقف عن الرسم. وبمرفقيه على ركبتيه نظر إلى خاله بتواصل بهيج . "كما ترى، فأنا أؤمن إلى حد كبير بتأثير النساء. العيش مع النساء يساعد على جعل الرجل سيداً مهذباً. هذا صحيح تماماً، فلدى كليفورد شقيقتاه، وهما فاتنتان جداً. ولكن ينبغي أن تكون هناك عاطفة مختلفة تلعب دورها عدا العاطفة الأخوية، كما تعلم. لديه ليزي أكتون، ولكنها ليست بالأحرى ناضجة."

قال السيد ونتويرث: " أظنّ أن ليزي قد كلمته، جادلته بالحجة المنطقية."

" عن عدم لياقة الثمالة... عن جمال التعفف عن السكر؟ هذا عمل كئيب بالنسبة إلى فتاة صغيرة وجميلة. كلا، على كليفورد أن يزور امرأة ملائمة، ستمنحه، دون أن تذكر مثل هذه المواضيع غير المستساغة، شعوراً بأنه أمر مضحك جداً أن ينسطل المرء من السكر. ولو أنه يتمكن من الوقوع في حبها قليلاً، فهذا أفضل بكثير. سيكون ذلك أشبه بالعلاج.

قال السيد ونتويرث:"حسناً الآن، من هي السيدة التي تقترحها؟"

Twitter: @ketab_n

" هناك امرأة ذكية تحت يدك. أختي."

كرر السيد ونتويرث: " أختك... تحت يدي؟"

" قل كلمة لكليفورد. قل له أن يكون جريئاً. إنه مستعد على نحو مسبق. فقلد دعاها مرتين أو ثلاثاً لمرافقته في عربته. ولكني لا أعتقد أنه يأتي ليراها. عليك أن تلمح إليه بالحضور ... إلى هنا مراراً. سيجلس هناك في فترة ما بعد العصر، وسوف يتحادثان. هذا سيفيده."

راح السيد ونتويرث يتأمل. "أتعتقد أنها ستمارس تأثيراً مفيداً؟"

" ستمارس كثيراً من التمدين، أو ما قد أسميه الترصين. المرأة الفاتنة الذكية غالباً ما تفعل ذلك، خاصة إن كانت لعوباً بعض الشيء، يا خالي العزيز. إن عشرتي مع النساء من هذا النوع هو الذي أكسبني نصف ثقافتي. وإن كان كليفورد قد حرم من الاستمرار بالدراسة في الكلية، كما تقول، فلتسمح ليوجينيا أن تكون معلمته.

استمر السيد ونتويرث في التأمل. سأله: "أتظن يوجينيا لعوباً؟"

سأله فيليكس بدوره:"وأي امرأة جميلة ليست كذلك؟" ولكن هذا الجواب لم يكن ليعتبر جواباً في رأي السيد ونتويرث، فهو لم يكن يرى ابنة شقيقته جميلة. تابع الشاب كلامه قائلاً:"مع كليفورد ستكون يوجينيا ببساطة لعوباً بما فيه الكفاية مع بعض التهكم. هذا ما يحتاجه هو. لذا عليك أن تنصحه بأن يكون لطيفاً معها، كما تعرف. والاقتراح سيكون أفضل لو صدر عنك."

سأل الرجل العجوز: "هل أفهم أن عليّ أن أقترح على ابني أن يمارس مهنة الانغماس في حب المدام مونستر؟"

صاح فيليكس بتعاطف: "أجل، أجل... مهنة."

Twitter: @ketab_n

" ولكن كما فهمت فإن المدام مونستر امرأة متزوجة."

قال فيليكس مبتسماً: "آه، طبعاً هي لا تستطيع الزواج منه. ولكنها ستبذل ما بوسعها."

جلس السيد ونتويرث بعض الوقت وعيناه تنظران إلى الأرض. وأخيراً نهض وقال: " لا أظن أني أستطيع أن أوصي ابني باتباع هذا المسار." ودون أن يتطلع إلى فيليكس ونظرته المندهشة، فقد قطع جلسة الرسم فجأة و لم تستأنف إلا بعد أسبوعين.

كان فيليكس شديد الولع بالبحيرة الصغيرة التي كانت تحتل مساحة كبيرة من أراضي السيد ونتويرث الشاسعة، وكذلك بالأجمة الرائعة من أشجار الصنوبر التي كانت تقع على الجانب البعيد منها، والتي زرعت على مصطبة منحدرة والتي يسكنها أحياناً نسيم صيفي. كان لهمهمة الريح في قمم الأشجار العالية صوت متميز غريب، فهي تكاد تنطق. في عصر أحد الأيام خرج الشاب من غرفة الرسم ومرّ عبر الباب المفتوح لصالون يوجينيا الصغير. في الداخل، في العتمة الباردة، شاهد أخته مرتدية ثوباً أبيض وغارقة في كنبتها وقد راحت تقرب من وجهها باقة ورد كبيرة هائلة الحجم. كان كليفورد ونتويرث جالساً أمامها وهو يدير قبعته بين يديه. من الواضح أنه قدم للتو تلك الباقة من الورد وإبرة الراعي وهو يرسم ابتسامة تدعو إلى الحوار. تردد فيليكس وهو واقف على عتبة الكوخ، للحظة، متسائلاً إن كان عليه أن يتراجع ويدخل إلى البهو. ثم مضى في طريقه ودخل إلى حديقة السيد ونتويرث. بدا له أن عملية التمدين التي اقترح أن يخضع لها كليفورد قد حصلت من تلقاء ذاتها. كان فيليكس واثقاً جداً، على الأقل، من أن السيد ونتويرث أعرض عن تبني حيلته العبقرية الرامية إلى تحفيز الوعي الجمالي لدى ذلك الشاب. قال لنفسه بعد الحديث الذي

Twitter: @ketab_n

سردناه:"لا شك أنه يفترض أني أرغب، كنوع من الإحسان الأخوي، أن أزود يوجينيا بتسلية متجسدة في مغازلة – أو مكيدة كما بدأ هو يسميها على الأرجح– مع كليفورد المرهف الإحساس إلى حد بعيد. ولا بد من الاعتراف – وقد لاحظت ذلك من قبل– أنه لا شيء يفوق الرخصة التي تأخذها مخيلة الأشخاص شديدي التصلب. من جانبه لم يكن فيليكس قد قال أي شيء لكليفورد؛ ولكنه كان قد قال ليوجينيا إن السيد ونتويرث يشعر بالكثير من الخزي بسبب الميول الرديئة لابنه. كان قد أضاف قائلاً: "علينا أن نفعل شيئاً ما لنساعدهم، بعد كل ذلك الكرم واللطف تجاهنا. شجعي كليفورد على القدوم لزيارتك وألهميه بميل إلى الحوار معك. ومن شأن هذا الميل أن يقتلع الميل الآخر المتأتي من رعونته ومن عدم تسنمه لمركزه في العالم – مركز شاب ثري ينتمي إلى أسرة عريقة– بالشكل الكافي. اجعليه أكثر جدية بقليل. حتى لو مارس الحب معك فليس هذا بالأمر العظيم."

سألت البارونة: " هل عليّ أن أعرض نفسي كشكل أسمى من أشكال النشوة؟ كبديل عن زجاجة البراندي؟ حقاً إن المرء يصبح ذا استعمالات غريبة في الريف."

ولكنها لم تكن قد اعتذرت فعلاً عن التعهد بإنجاز التعليم العالي لكليفورد، أما فيليكس الذي لم يكن قد فكر في المسألة مرة أخرى، فقد كان مسكوناً برؤى عن مكسب شخصي أكبر، والذي راح يتأمل الآن بأن عملية الإنقاذ قد بدأت نوعاً ما. بدت الفكرة، كمطمح، أمراً في منتهى الغبطة، ولكنها من الناحية العملية جعلته يشعر ببعض القلق. "ماذا لو أن يوجينيا ... ماذا لو أن يوجينيا...؟ سأل نفسه بصوت خافت؟ ثم تلاشى السؤال ضمن إحساسه بقدرة يوجينيا غير الراسخة العزم. ولكن قبل أن يتاح الوقت لفيليكس حتى يقبل أو يرفض هذا

Twitter: @ketab_n

التحذير، حتى بهذا الشكل الغامض، فقد رأى روبرت أكتون يخرج من سور منزل السيد ونتويرث من بوابة قصية ويتجه نحو الكوخ في البستان. كان أكتون قد سار بشكل جلي من منزله على امتداد طريق جانبي ظليل ، وكان ينوي زيارة المدام مونستر. راقبه فيليكس لبرهة، ثم التفت بعيداً. يمكن أن يترك أكتون ليلعب دور العناية الإلهية ويقاطع – إن كانت المقاطعة مطلوبة– ورطة كليفورد مع يوجينيا.

عبر فيليكس الحديقة باتجاه المنزل ونحو بوابة خلفية كانت تفتح على ممر يؤدي عبر الحقول، إلى جانب غابة صغيرة، إلى البحيرة. توقف وتطلع إلى المنزل، واستقرت عيناه بشكل أخص على نافذة مفتوحة محددة، على الجانب الظليل. ظهرت غرترود الآن هناك، وهي تتطلع إلى نور الصيف. رفع لها قبعته وأشار لها مودعاً. أشار أنه كان سيجدف عبر البحيرة، وكان يرجو أنها ستشرفه بمرافقته. نظرت إليه لبرهة، ثم دون أن تقول شيئاً، التفتت بعيداً. ولكنها سرعان ما ظهرت مجدداً في الأسفل، وهي ترتدي واحدة من تلك القبعات الغريبة والفاتنة من طراز لغهورن، وقد ربطتها بأقواس من الساتان الأبيض من النوع الشائع في تلك الأيام، وتحمل شمسية خضراء. مضت معه نحو حافة البحيرة حيث كان زوج من القوارب رابض هناك باستمرار. ركبا أحدهما وراح فيليكس بضربات رقيقة يدفعه نحو الشاطئ المقابل. كان النهار ذا طقس صيفي مثالي وكان للبحيرة لون نور الشمس. كان صوت رشاش الماء من المجدافين هو الصوت الوحيد، ووجدا نفسيهما يستمعان إليه. نزلا من الزورق وعن طريق ممر متعرج صعدا إلى التلة التي تغطت قمتها بشجر الصنوبر والمطلة على البحيرة التي كان امتدادها الأبيض يلتمع بين الأشجار. كان المكان بارداً بشكل مبهج وله تلك الفتنة الإضافية – أنك تبدو وكأنك

Twitter: @ketab_n

تسمع بين أغصان الصنوبر ذات الحفيف اللطيف تلك البرودة وتشعر بها. جلس فيليكس وغرترود فوق البساط ذي اللون الصدئ من أبر الصنوبر وتحدثا عن أمور كثيرة. وتكلم فيليكس أخيراً، خلال مجرى الحديث، عن سفره. وكانت تلك أول مرة يلمح فيها إلى ذلك.

قالت غرترود وهي تنظر إليه: " هل ستغادر؟"

" في يوم ما... حين تبدأ الأوراق بالسقوط. أنت تعلمين أني لا أستطيع البقاء إلى الأبد."

حولت غرترود عينيها نحو المشهد الخارجي، ثم وبعد وقفة، قالت: " لن أراك مرة أخرى."

سأل فيليكس: " لم لا؟ ربما سيبقى كلانا حيّين بعد مغادرتي."

ولكن غرترود كررت فحسب قولها: " لن أراك مرة أخرى." ثم تابعت:" لن أسمع منك أبداً. لم أكن أعرف عنك أي شيء من قبل، وسيكون الأمر هو نفسه مرة أخرى."

قال فيليكس: " لم أكن أعرف عنك شيئاً عندئذ، لسوء الحظ. ولكني إلا أنني سأراسلك."

أعلنت غرترود: " لا تراسلني، فلن أجيبك."

قال فيليكس: "سيكون علي أن أحرق رسائلك بالطبع."

نظرت غرترود إليه مجدداً: " تحرق رسائلي؟ تقول أحياناً أشياء غريبة جداً."

أجاب الشاب: " ليست غريبة بحد ذاتها. إنها غريبة فحسب لأنها قيلت لك. ستأتين إلى أوربا."

Twitter: @ketab_n

" مع من سآتي؟" وقد طرحت هذا السؤال ببساطة، فقد كانت جادة جداً. كان فيليكس مهتماً بجديتها. تردد بضع لحظات. تابعت هي القول: " لا يمكنك أن تقول إني سأسافر مع أبي وأختي. أنت لا تصدق ذلك."

قال فيليكس الآن كجواب:" سأحتفظ برسائلك."

"لن أكتب أبداً. لا أعرف كيف أكتب." و لم تقل غرترود شيئاً آخر لبعض الوقت. أما رفيقها وبينما راح ينظر إليها، فتمنى لو لم يكن "عملاً خائنا" ممارسة الحب مع ابنة رجل نبيل عجوز مضياف. بهت نور العصر، وامتدت الظلال. أصبح النور أدكن في الأفق الغربي. ظهر شخصان على الضفة المقابلة للبحيرة قادمين من الدارة وعبرا المرج. قالت غرترود: "إنهما شارلوت والسيد براند، وهما قادمان إلى هنا." ولكن شارلوت والسيد براند وصلا فحسب إلى ضفة البحيرة ووقفا هناك، وهما ينظران عبر الماء. لم يبديا أي حركة تدل على أنهما سيركبان الزورق الذي تركه فيليكس في المرسى. لوح فيليكس بقبعته لهما. كانت المسافة بعيدة على الصياح. و لم يقوما بأي استجابة مرئية، بل التفتا وراحا يسيران على امتداد الشاطئ.

قال فيليكس: " ليس السيد براند من النوع الذي يعبر عن عواطفه. ليس كذلك أبداً معي. يجلس صامتاً وذقنه في يده، وينظر إليّ. وأحياناً ينظر إلى البعيد. يقول لي والدك إنه فصيح جداً. وأود أن أسمعه يتكلم. يبدو لي شاباً نبيلاً. ولكنه لا يكلمني إطلاقاً. ومع ذلك، فأنا مولع جداً بالاستماع إلى لغة مجازية لامعة!"

قالت غرترود: " إنه فصيح جداً ولكن ليست لديه لغة مجازية لامعة. لقد استمعت إليه وهو يتكلم مرات كثيرة. لقد عرفت أنهما حين شاهدانا لم يقتربا من مكاننا."

Twitter: @ketab_n

"آه، هل هو يغازل – كما يقال– شقيقتك ؟ أيريدان أن ينفردا؟"

قالت غرترود بجدية: " كلا، ليس لديهما مثل هذا السبب للانفراد."

سأل فيليكس:" و لم لا يغازل شارلوت؟ إنها جميلة ولطيفة وطيبة جداً."

نظرت غرترود إليه ثم إلى الشخصين المرئيين من بعيد اللذين كانا موضوع حديثهما. كان السيد براند وشارلوت يمشيان معاً. قد يكونان عاشقين وقد لا يكونان كذلك. قالت غرترود: " يظنان أنه لا ينبغي عليّ أن أكون هنا."

"أي بصحبتي؟ كنت أظن أنكم لا تحملون مثل هذه الأفكار."

" أنت لا تفهم. هناك أمور كثيرة جداً لا تفهمها."

" أفهم غبائي. ولكن لم لا تكون شارلوت والسيد براند، اللذان هما شقيقة كبرى ورجل دين، حرّين في التمشي معاً وأن يعبرا إلى هنا ويجعلاني أكثر حكمة بأن يضعا حداً لهذه المقابلة غير القانونية التي أغويتك للمشاركة فيها؟"

قالت غرترود: " هذا آخر شيء يمكن لهما أن يفعلاه."

حدق فيليكس إليها لبرهة وقد رفع حاجبيه. صاح: "لا أفهم شيئاً!" ثم تابعت عيناه لفترة قصيرة الشكلين المتراجعين للشخصين الخطيرين. صرح قائلاً: "يمكنك أن تقولي ما يحلو لك، ولكن من الواضح لي أن شقيقتك ليست غير مبالية برفيقها الذكي. إنه لأمر سائغ لها أن تتمشى معه هناك. أستطيع أن أرى ذلك من هنا." ومن الاستثارة التي سببتها ملاحظته، فقد نهض فيليكس واقفاً.

Twitter: @ketab_n

نهضت غرترود أيضاً، ولكنها لم تحاول أن تحاكي الاكتشاف الذي أحرزه رفيقها، بل نظرت باتجاه آخر. كانت كلمات فيليكس قد صدمتها. ولكن رقة معينة فيها كبحتها. "إنها بكل تأكيد ليست غير مبالية بالسيد براند. فهي تكنّ له احتراماً كبيراً."

قال فيليكس بلهجة من التأمل الضاحك وقد أمال رأسه إلى جانب: "يستطيع المرء ملاحظة ذلك... يستطيع المرء ملاحظة ذلك." التفتت غرترود وظهرها إلى الشاطئ المقابل. لم يكن أمراً سائغاً لها أن تنظر، ولكنها أملت أن يقول فيليكس شيئاً آخر. أضاف فيليكس: "آه، لقد توغلا في الغابة."

التفتت غرترود إليه من جديد. قالت: " إنها ليست مغرمة به." وقد بدا أنه كان من واجبها قول ذلك.

"إذن، فهو مغرم بها. أو إن لم يكن الأمر كذلك، فإنه ينبغي عليه أن يكون مغرماً بها. إنها امرأة صغيرة كاملة متميزة. وهي تذكرني بملقط السكر الفضي العتيق. أنت تعرفين مدى حبي للسكر. وهي لطيفة جداً مع السيد براند. لقد لاحظت ذلك. لطيفة ولبقة جداً."

تأملت غرترود لبرهة. ثم اتخذت قراراً خطيراً. قالت: "تريده أن يتزوجني. لذلك هي لطيفة بالطبع."

ارتفع حاجبا فيليكس أكثر مما سبق لهما أن ارتفعا من قبل. "أن يتزوجك! آه، آه، هذه أمر مثير للاهتمام. وأنت تعتقدين أن على المرء أن يكون لطيفاً جداً مع رجل ما لدفعه إلى فعل ذلك؟"

كان لون غرترود قد شحب قليلاً، ولكنها تابعت كلامها: " السيد براند يريد ذلك شخصياً."

طوى فيليكس ذراعيه ووقف ينظر إليها. قال بسرعة: " أرى

Twitter: @ketab_n

ذلك... أرى ذلك. و لَمَ لم تعلميني بذلك من قبل؟"

" لا استسيغ الكلام عنه حتى في الوقت الحاضر. كنت أتمنى ببساطة أن أشرح لك أمر شارلوت."

"إذن فأنت لا ترغبين في الزواج من السيد براند؟"

قالت غرترود بجدية: " كلا."

" وهل يريد والدك ذلك؟"

" إلى حد كبير."

" وأنت لا تحبينه... هل رفضته؟"

" لا أرغب في الزواج منه."

" يعتقد والدك وشقيقتك أنه عليك الزواج منه، أليس كذلك؟"

قالت غرترود: " هذه حكاية طويلة. إنهما يعتقدان بوجود أسباب جيدة. لا أستطيع شرحها. وهما يعتقدان أن لديّ التزامات، وأني شجعته."

ابتسم فيليكس لها، وكأنما كانت تحكي له قصة مسلية عن شخص آخر. قال: " لا أستطيع أن أقول لك كيف يثير هذا اهتمامي. والآن أنت لا تقرين بتلك الأسباب... تلك الالتزامات؟"

" لست متأكدة. ليس الأمر سهلاً." ثم التقطت شمسيتها والتفتت بعيداً، وكأنما لتهبط المنحدر.

تابع فيليكس وهو يرافقها:"قولي لي: هل من المحتمل أن تستسلمي... أن تتركي لهم المجال كي يقنعوك؟"

نظرت غرترود إليه بوجه جاد كانت تبديه له باستمرارٍ في مواجهة ابتسامته التواقة تقريباً.

Twitter: @ketab_n

قالت: "لن أتزوج أبداً من السيد براند".

أجاب فيليكس: " حسناً!" ثم هبطا التلة ببطء معاً، دون أن يتكلما حتى وصلا شاطئ البحيرة. استأنف الكلام قائلاً: "هذا شأن خاص بك، ولكن هل تعرفين أني لست سعيداً بالمرة؟ لو كان أمراً مقرراً أن عليك الزواج من السيد براند فسيكون عليّ أن اشعر ببعض الراحة من هذا التدبير، كنت سأشعر بأني أكثر حرية. لا يحق لي أن أغازلك، أليس كذلك؟" ثم توقف وهو يضغط بحجته عليها بخفة.

أجابت غرترود بسرعة... بسرعة كبيرة : " لا يحق لك أبداً."

" لن يكون والدك مستعداً لقبول ذلك إطلاقاً، فأنا لا أملك بنساً واحداً. أما السيد براند فهو صاحب أملاك، أليس كذلك؟"

" أعتقد أن في حوزته بعض الأملاك، ولكن ليس لهذا علاقة بالأمر."

" بالنسبة إليك، طبعاً لا. ولكن بالنسبة إلى أبيك وشقيقتك فلا بد أن له علاقة ما. إذن لو تمت تسوية هذا الأمر فسأشعر بالمزيد من الحرية."

كررت غرترود: " أكثر حرية؟ من فضلك فك رباط الزورق."

فك فيليكس الحبل ووقف وهو ممسك به. تابع كلامه قائلاً: " سأكون قادراً على قول أشياء لك لا أستطيع قولها الآن. كنت سأستطيع أن أحكي لك كم أنا معجب بك، دون أن أبدو وكأنني أتظاهر بما لا يحق لي التظاهر به." ثم أضاف ضاحكاً: " كنت سأغازلك بعنف لو كنت أظن أنك لن تنزعجي من ذلك."

صاحت غرترود: تعني لو أنني كنت مخطوبة لرجل آخر؟ هذا تفكير غريب!"

Twitter: @ketab_n

" في مثل هذه الحالة لن تأخذيني مأخذ الجد."

قالت غرترود: " أنا آخذ الجميع مأخذ الجد!" وبدون مساعدته ركبت الزورق بخفة.

أمسك فيليكس بالمجدافين وانطلق بالزورق إلى الأمام. قال: " أه، أهذا ما كنت تفكرين به؟ لقد بدا لي أنك تفكرين بشيء ما. أتمنى كثيراً لو أنك تذكرين لي بعضاً من هذه التي تدعونها أسباباً... هذه الالتزامات."

قالت غرترود وهي تنظر إلى الأشعة الصفراء والوردية في الماء: " إنها ليست بالأسباب الحقيقية... الأسباب الجيدة."

" لا أستطيع أن أفهم ذلك! هل السبب هو أن الفتاة المليحة يجب أن تتحلى بشرارة من الدلال، ليس هذا بالسبب إطلاقاً."

" إن كنت تعنيني أنا، فالأمر ليس كذلك. لم أفعل ذلك."

قال فيليكس: " إنه أمر يقلقك على أي حال."

أجابت غرترود: " ليس كثيراً كما في السابق."

نظر إليها وهو يبتسم بشكل دائم. "أنت لا تفصحين عن الكثير، أليس كذلك؟" ولكنها استمرت فحسب بالتحديق في الماء المومض بجدية كبيرة. بدت له وكأنها تحاول أن تخفي أمارات السبب في القلق الذي ذكرته له للتو. شعر فيليكس، طوال الوقت، بالدافع نفسه لتبديد الحزن الواضح الذي قد تشعر به ربة بيت وهي تنفض الغبار. كان هناك شيء ما كان يرغب في نفضه بعيداً. وفجأة توقف عن التجديف ورفع المجدافين. سألها:" لمَ يتودد السيد براند إليك وليس إلى أختك؟ أنا واثق أنها ستستجيب له."

Twitter: @ketab_n

ضمن أسرتها، كان يظن أن غرترود قادرة على الكثير من الطيش، ولكن طيشها لم يكن قد وصل إلى هذا الحد. لقد أثارها إلى حد كبير على أي حال أن تسمع فيليكس يقول إنه واثق من شيء ما. لذلك، فقد رفعت عينيها إليه، وحاولت عن عمد لبعض اللحظات أن تستحضر تلك الصورة الرائعة لقصة الحب بين شقيقتها وطالب يدها هي. نعرف أن غرترود ذات ذهن تخييلي. لذلك فليس من المستحيل أن يكون هذا الجهد ناجحاً بشكل جزئي. ولكنها همهمت فحسب: "آه يا فيليكس! آه يا فيليكس!"

صاح فيليكس: " ولم لا يتزوجان؟ حاولي أن تجعليهما يفعلان ذلك!"

" أحاول أن أفعل ذلك؟"

" اقلبي الظروف عليهما بالكامل. عندها سيتركانك وشأنك. وسوف أساعدك بقدر ما أستطيع."

بدأ فؤاد غرترود يدق بسرعة. لقد استثيرت إلى حد كبير. لم يسبق لها أن سمعت مثل هذا الشيء المثير يقترح عليها من قبل. بدأ فيليكس يجدف مجدداً، وهاهو الآن يوصل الزورق إلى الضفة المقابلة بضربات طويلة. قالت غرترود بعد أن هبطا من الزورق: "أعتقد أنها تهتم به حقاً!"

"طبعاً هي مهتمة به، ونحن سنجعلهما يتزوجان. سيسعدهما ذلك: سيسعد هذا الجميع. سيكون لدينا حفل زفاف وسأؤلف أنا قصيدة الزفاف."

قالت غرترود: " يبدو وكأن هذا سيسعدني أيضاً."

" لتتخلصي من السيد براند، أليس كذلك؟ ولتستردي حريتك؟"

Twitter: @ketab_n

تابعت غرترود المسير. "لأرى شقيقتي متزوجة من شخص طيب جداً."

ضحك فيليكس ضحكته الخفيفة مجدداً. "أنت تؤسسين الأمور على هذه القواعد دائماً. لن تقولي أي شيء عن نفسك. أنتم جميعاً خائفون جداً هنا من أن تكونوا أنانيين. لا أعتقد أنك تعرفين كيف، ولكن دعيني أريك! سيسعدني ذلك من أجل نفسي، ومن أجل عكس ما أخبرتك به من قبل. وبعد ذلك، حين سأغازلك، سيكون عليك أن تفكري. أعني ما أقول."

قالت غرترود: "لن أعتقد أنك تعني أي شيء. أنت غريب الأطوار إلى حد كبير."

صاح فيليكس: "آه، هذه هي الرخصة لقول أي شيء! غرترود، أنا هائم بك!"

Twitter: @ketab_n

-٨-

لم تكن شارلوت والسيد براند قد عادا بعد حين وصلا إلى المنزل، ولكن البارونة كانت قد حضرت لتناول الشاي، وروبرت أكتون أيضاً الذي أصبح يدعى الآن باستمرار إلى هذه الرقعة السخية، أو كان يظهر لاحقاً في المساء. وقد علق كليفورد ونتويرث بهذره الصبياني على ذلك.

قال: " أنت تحضر لتناول الشاي في هذه الأيام يا روبرت. كنت أعتقد أنك شربت ما يكفي من الشاي في الصين."

سألت البارونة: " منذ متى بدأ السيد أكتون يكثر من زياراته؟"

قال كليفورد: " منذ أن حضرتِ. يبدو وكأنك نوع من الجاذبية."

قالت البارونة: "أفترض أني شيء غريب أو نادر. امنحني الوقت وسوف أحضّر لك صالوناً."

صاح أكتون: "سيتهاوى أطلالاً بعد رحيلك."

قال كليفورد: "لا تتحدث عن رحيلها بتلك الطريقة المألوفة. يشعرني هذا بالكآبة."

نظر السيد ونتويرث إلى ابنه، وبعد أن أخذ هذه الكلمات في الاعتبار تساءل إن لم يكن فيليكس يعلمه وفقاً للبرنامج الذي خططه له، وذلك ليغازل زوجة أمير ألماني.

Twitter: @ketab_n

وصلت شارلوت متأخرة مع السيد براند، ولكن غرترود، التي علمها فيليكس شيئاً ما على الأقل، نظرت عبثاً في وجهها بحثاً عن أي أثر للعاطفة المذنبة. جلس السيد براند إلى جانب غرترود، فسألته تواً عن السبب في عدم عبورهما البحيرة لينضما إلى فيليكس وإليها.

أجاب برفق شديد: "هذه قسوة منك أن تسأليني هذا السؤال." كانت أمامه قطعة كبيرة من الكعك ولكنه لمسها بأصبعه دون أن يأكلها. أضاف قائلاً: " أظن أحياناً أنك تصبحين قاسية القلب." لم تقل غرترود شيئاً. كانت تخشى الكلام. كان هناك نوع من الغضب في قلبها. أحست وكأنها تستطيع بسهولة إقناع نفسها بأنها مضطهدة. قالت لنفسها إنه أمر صحيح تماماً أنه لا ينبغي عليها السماح له بجعلها تعتقد أنها على خطأ. فكرت فيما قاله لها فليكس. تمنت بالفعل أن يتزوج السيد براند من شارلوت. أشاحت بنظرها عنه و لم تعد تتكلم. أكل السيد براند كعكته، بينما جلس فيليكس في الجهة المقابلة وهو يصف للسيد ونتويرث مبارزات الطلبة في هايدلبرغ. وبعد الشاي، انتشر الجميع في الشرفة وفي الحديقة كالعادة. أما السيد براند فاقترب من غرترود مجدداً.

بدأ يقول: " لم أقترب منك عصر هذا اليوم لأنك لم تكوني وحيدة، فقد كنت مع صديق أكثر جدة."

"فيليكس؟ لقد أضحى صديقاً قديماً الآن."

نظر السيد براند إلى الأرض لبعض اللحظات. تابع قائلاً: " ظننت أني كنت مستعداً لسماعك تتحدثين بهذه الطريقة. ولكني أجد الأمر شديد الإيلام."

قالت غرترود: " لا أرى ما الذي يمكنني أن أقوله غير ذلك."

Twitter: @ketab_n

سار السيد براند إلى جانبها في صمت لفترة من الزمن. تمنت غرترود لو أنه ينصرف عنها. "إنه بالتأكيد بارع جداً. ولكني أظن أن من واجبي أن أنصحك."

"تنصحني؟"

" أعتقد أني أعرف طبيعتك."

قالت غرترود بضحكة رقيقة: " لا أظن أنك تعرفها."

قال السيد براند بحزن: "أنت تسيئين إلى نفسك حتى ترضيه."

سألت غرترود وهي تتوقف عن السير: "أسيء إلى نفسي... لأرضيه؟ ما الذي تعنيه؟"

توقف السيد براند أيضاً، وبالصراحة الرقيقة نفسها قال: " إنه لا يهتم بالأمور التي تهتمين بها... المسائل العظيمة المتعلقة بالحياة."

هزت غرترود رأسها وهي تنظر إليه. "لا تهمني المسائل العظيمة المتعلقة بالحياة. إنها بعيدة جداً عني."

قال السيد براند: "كان هناك وقت لم تكوني تقولين فيه مثل هذا الكلام."

أجابت غرترود: " أوه، أعتقد أنك جعلتني أتحدث بالكثير من الهذر. وهذا يعتمد على ما تسميه المسائل العظيمة المتعلقة بالحياة. هناك بعض الأمور التي تهمني."

"هل هي الأمور التي تتحدثين بها مع ابن عمتك؟"

قالت غرترود: " لا ينبغي عليك أن تقول أشياء ضد ابن عمتي. هذا أمر مخز."

Twitter: @ketab_n

استمع إليها باحترام، ثم أجاب مع رجفة صغيرة في صوته: "سأكون آسفاً جداً لو أني قلت شيئاً مخزياً. ولكني لا أرى أي خزي لو قلت لك إن ابن عمتك عابث."

" اذهب وقل له ذلك بنفسك."

قال السيد براند: " أعتقد أنه سيقر بذلك. هذه هي اللهجة التي سيتخذها. لن يخجل منها."

صرحت غرترود: "إذن فأنا لا أخجل منها! ربما سيكون هذا هو السبب الذي يجعلني أميل إليه. فأنا عابثة أيضاً."

" أنت تحاولين، كما قلت للتو، أن تحطي من قدر نفسك."

صاحت غرترود بانفعال: "أنا أحاول ولو لمرة واحدة أن أكون طبيعية! كنت أتظاهر طوال حياتي. لقد كنت غير صادقة. وأنت من جعلني كذلك!" وقف السيد براند محدقاً إليها فتابعت تقول: " و لم لا أكون عابثة إن أردت ذلك؟ يحق للمرء أن يكون تافهاً إن كانت تلك طبيعته. كلا، لا أهتم بالمسائل الكبيرة. أهتم بالمسرات، بالتسلية. وربما أكون مغرمة بالأمور الشريرة. هذا ممكن جداً!"

بقي السيد براند يحدق إليها، وحتى أن لونه قد شحب قليلاً كما لو كان يشعر بالخوف. صرخ: "لا أظن أنك تعرفين ما تقولينه!"

" ربما لا أعرف. ربما أهذر. ولكني لا أهذر إلا معك. ولا أفعل ذلك مع ابن عمتي."

قال السيد براند: " سأتحدث إليك مجدداً حين تكونين اقل انفعالاً."

" أنا دائماً منفعلة حين تخاطبني. عليّ أن أقول لك ذلك حتى لو كان من شأنه أن يمنعك نهائياً من مخاطبتي. حين تخاطبني يغضبني

Twitter: @ketab_n

ذلك. مع ابن عمتي الأمر مختلف جداً. الكلام معه يبدو هادئاً وطبيعياً."

نظر إليها، ثم أشاح ببصره بعيداً بنوع من الحزن العاجز باتجاه الحديقة المعتمة ونجوم الصيف الباهتة. وبعد ذلك، التفت إلى الخلف فجأة وقال وهو يصر على أسنانه قليلاً: "غرترود، غرترود! هل أفقدك حقاً؟"

تأثرت غرترود... وتألمت. ولكن كان قد سبق وخطر لها أنها قد تفعل ما هو أفضل من الكلام. ما كان سيخفف من بؤس رفيقها أن يدرك في ذلك الحين أين استمدت تلك البراعة. قالت غرترود: " لست آسفة من أجلك، فأنت في اهتمامك الكبير بي كنت تلاحق شبحاً... وتهدر شيئاً ثميناً. هناك شيء آخر قد يكون في حوزتك ولكنك لا تنظر إليه... شيء ما أفضل مني. وهذه حقيقة!" ثم نظرت إليه بتعمد وحاولت أن تبتسم له قليلاً. ظن هو أن ابتسامتها كانت غريبة جداً، ولكنها التفتت وغادرته.

تجولت في أرجاء الحديقة وحيدة وهي تتساءل ما الذي سيفهمه السيد براند من كلماتها التي كان التلفظ بها مصدر متعة فريدة لها. وبعد ذلك بفترة قصيرة وبينما كانت تمر أمام الدارة، شاهدت من بعيد شخصين واقفين قرب بوابة الحديقة. كان السيد براند يغادر ويتمنى ليلة سعيدة لشارلوت التي كانت قد سارت معه من الدارة. لاحظت غرترود أن الوداع كان مطولاً. ثم أدارت ظهرها لذلك المشهد. ولم تكن قد ابتعدت كثيراً حين سمعت شقيقتها تلحق بها ببطء. لم تلتفت إلى الخلف ولم تنتظرها. كانت تعرف ما ستقوله شارلوت لها. أما شارلوت التي لحقت بها أخيراً فقد أقحمت ذراعها في ذراع غرترود.

Twitter: @ketab_n

" هل ستصغين إليّ يا عزيزتي، لو قلت لك شيئاً خاصاً؟"

قالت غرترود: " أعرف ما ستقولينه، أن السيد براند منزعج جداً."

سألت شارلوت: " أوه غرترود، كيف بإمكانك معاملته بهذه الطريقة؟" وحين لم تجب شقيقتها، أضافت: "بعد كل ما فعله من أجلك!"

" ما الذي فعله من أجلي؟"

" أتعجب من سؤالك يا غرترود. لقد ساعدك كثيراً. وأنت من أخبرني بذلك مرات كثيرة. قلت لي إنه ساعدك على التعامل مع ... خصائصك الغريبة. لقد قلت لي إنه علمك كيف تتحكمين بمزاجك."

لم تقل غرترود شيئاً لبرهة من الزمن. ثم سألت: " وهل كان مزاجي سيئاً جداً؟"

قالت شارلوت: " أنا لا أوجه إليك اتهاماً يا غرترود."

سألت شقيقتها بضحكة صغيرة: " وما الذي تفعلينه إذاً؟"

"أرافع عن السيد براند... وأذكرك بكل ما تدينين به له."

قالت غرترود وهي ما تزال تضحك ضحكتها الصغيرة: " لقد سددته له كله. ويمكنه أن يسترد الفضيلة التي بلّغني إياها! أريد أن أكون شريرة مجدداً."

جعلتها شقيقتها تتوقف في الممر، وثبتت عليها في العتمة تحديقة عذبة مؤنبة. " لو تحدثت بهذه الطريقة فسوف أصدق ذلك تقريباً. فكري في كل ما ندين به للسيد براند. فكري في كيف أنه كان يتوقع على الدوام شيئاً ما منك. فكري كم كان يعني لنا. فكري بتأثيره الجميل على كليفورد."

Twitter: @ketab_n

قالت غرترود وهي تنظر إلى شقيقتها: " إنه طيب جداً. أعرف أنه طيب جداً. ولكن لا ينبغي عليه أن يتكلم ضد فيليكس."

أجابت شارلوت برقة إنما على الفور: "فيليكس طيب. فيليكس رائع جداً. ولكنه مختلف جداً فحسب. السيد براند أقرب بكثير إلينا. لا أستطيع قط أن أذهب إلى فيليكس ليحل لي مشكلة ما... أو لأسأله سؤالاً ما. السيد براند يعني لي أكثر من ذلك بكثير."

كررت غرترود: " إنه طيب جداً... جداً." ثم أضافت فجأة: "ولكنه يعني لك أكثر. أجل أكثر بكثير. أنت تحبينه !"

صرخت شارلوت المسكينة: "أوه يا غرترود!" وشاهدتها شقيقتها وهي تحمر خجلاً في العتمة.

وضعت غرترود ذراعها من حولها. ثم قالت: "أتمنى لو يتزوجك!"

حررت شارلوت نفسها من ذراع أختها وقالت: "عليك ألا تقولي مثل هذه الأشياء."

" أنت تحبينه أكثر مما تقولين، وهو يحبك أكثر مما يعرف."

همهمت شارلوت ونتويرث: "هذا كلام قاس جداً يصدر عنك."

ولكن رغم أن الأمر كان قاسياً إلا أن غرترود تابعت تقول بلا شفقة: "ليس إن كان كلاماً صادقاً . أتمنى لو يتزوجك."

" من فضلك لا تقولي مثل هذا الكلام."

قالت غرترود: " أنوي أن أكلمه بهذا!"

كادت شقيقتها أن تئن وهي تقول: " أوه غرترود، غرترود!"

" أجل، لو كلمني ثانية عن نفسي، سأقول له: (لم لا تتزوج من

Twitter: @ketab_n

شارلوت؟ إنها أفضل مني بألف مرة.)"

صرخت أختها: " أنت حقاً شريرة. لقد تغيرت!"

قالت غرترود: " إن كنت لا تحبين ذلك، يمكنك منعه. تستطيعين منعه بأن تجعليه يتوقف عن التكلم معي! " وبهذه الكلمات سارت مبتعدة، وهي تعي تماماً ما فعلته، وراحت تزنه وتستمتع به مع حس نشط بالحرية من جراء ذلك.

كان السيد ونتويرث في الواقع غير محق في شكّه بأن كليفورد قد بدأ يُسمع ابنة عمته الرائعة إطراءاته غير الأخلاقية؛ فقد كان الشاب قد أصبح يتلقى فعلاً من الشكوك أكثر مما تلقاه من المديح عن ذلك ضمن أسرته. كان يتحلى بخجل شفاف معين كان بحد ذاته برهاناً على أنه لم يكن مرتاحاً في إسرافه في الشراب. كانت زلاته كطالب قد أثارت همهمة منزلية لم تكن تروق للشاب كما من شأن صرير الحذاء أن يزعج لص المنازل. ولكن، كما كان يمكن للص أن يحل المسألة ببساطة بأن يخلع حذاءه، فقد بدا لكليفورد أن أقصر درب للعلاقات المريحة مع الناس – علاقات تجعله يستسهل الظن بأنهم حين يتحدثون عنه فقد كانوا يعنون أن هناك شيئاً ما آخذ بالتحسن– هو بأن يتخلى عن أي طموح باتجاه تطور شائن. وفي الواقع، اتخذ طموح كليفورد أكثر الأشكال جدارة بالثناء. كان يفكر بنفسه في المستقبل على أنه السيد ونتويرث من بوسطن الشهير والمحبوب جداً ، ضمن المسار الطبيعي للثراء، والذي تزوج من قريبته الجميلة، ليزي أكتون؛ وأنه سيقطن في دارة ذات واجهة واسعة تطل على البرلمان؛ كما سيقود عربة خفيفة على الطرق الخريفية المبللة يجرها زوج من الجياد ذات اللون الكميت. كانت رؤيا كليفورد للسنوات القادمة شديدة البساطة. أما أكثر ملامحها وضوحاً فكانت هذا العنصر المتعلق

Twitter: @ketab_n

بالزواج الشائع ومضاعفة موارده من أجل قيادة العربات خبباً. لم يكن قد طلب يد ليزي بعد، ولكنه كان ينوي فعل ذلك ما أن ينال شهادته الجامعية. كانت ليزي واعية بشكل هادئ بنيّته، وكانت قد صممت على أنه سيتحسن. أما شقيقها الذي كان مولعاً بشدة بهذه الليزي الصغيرة الخفيفة السريعة الكفوّة الصغيرة، فلم ير من جانبه أي سبب للتدخل. لقد بدا أن خطبة كليفورد إلى شقيقته قانون اجتماعي لبق: فهو لم يكن قد خطب بعد، ولكن ولحسن الحظ لم يكن كل رجل آخر أحمق شأنه هو. كان مولعاً بكليفورد أيضاً وكان له أسلوبه الخاص- الذي كان يخجل به كما ينبغي أن نقر بذلك - في النظر إلى تلك الانحرافات التي أدت إلى إلزام الشاب بالتخلي عن متابعة دراسته في الكلية القريبة. كان أكتون قد عرف العالم كما قال لنفسه. لقد زار الصين واختبر الناس. لقد تعلم الفرق الجوهري بين شاب لطيف وشاب لئيم، وكان مقتنعاً بأن كليفورد لن يصدر عنه أي أذى. وكان يؤمن بـ "مذهب "الشوفان البري" (من يزرع الريح يحصدها) الذي كان يعتقد أنه مانع مفيد من المخاوف غير الضرورية؛ وإن كان لا بد أن نضيف أنه لم يكن يملك من الشجاعة ما يكفي للإعلان عن ذلك. لو أن السيد ونتويرث وشارلوت والسيد براند سيطبقون ذلك فحسب في حالة كليفورد، لشعروا بسعادة أكبر. وكان أكتون يظن أنه لأمر مؤسف ألا يشعروا بسعادة أكبر. كانوا يتأسون كثيراً من الأفعال الشريرة للشاب الصغير. وكانوا يكلمونه برزانة، كما كانوا يخيفونه ويربكونه. بالطبع كان هناك المعيار العظيم للمبادئ الأخلاقية الذي يحظر السكر على الرجل أو لعب البلياردو مقابل النقود أو تنمية وعيه الحسي. ولكن أي خشية كانت هناك من أن كليفورد المسكين سوف يشن هجوماً على أي معيار عظيم؟ لم يكن قد سبق لأكتون أن جعل البارونة مونستر تعمل على إصلاح طالب كلية عنيد. بدت له الأداة

Twitter: @ketab_n

هنا أكثر تعقيداً بالنسبة لهذه العملية. أما فيليكس من الناحية الأخرى فقد تكلم بما يخضع للاعتقاد بأنه كلما كانت المرأة أكثر فتنة ، كلما كثرت، حرفياً، منافعها الاجتماعية المحددة.

كان لدى يوجينيا بالذات، كما نعرف، الكثير من وقت الراحة لتبدي كم كانت منافعها كثيرة. وكما أتيح لي أن أتشرف بالتلميح، فقد قطعت هي أربعة آلاف ميل التماساً لحظها. ولا ينبغي أن نفترض أنه بعد هذا الجهد العظيم ستستطيع أن تهمل أي مساعدة جلية نحو التقدم. ومن سوء حظي أنني في محاولتي وصف سلوك هذه المرأة الرائعة باختصار، فقد اضطررت إلى التعبير عن الأمور بشكل قاس بالأحرى. أشعر أن الوضع هو على هذه الحال مثلاً حين أقول إنها قد اكتشفت بشكل أساسي مثل هذه المساعدة على التقدم في شخص روبرت أكتون، ولكنها تذكرت لاحقاً أن رامي السهام لديه دائماً وتر ثان لقوسه. كانت يوجينيا امرأة ذات دافع رائع المزيج، و لم تكن نواياها مرئية بشكل محسوس. كانت تنظر بنوع من المثال الجمالي إلى كليفورد مما بدا لها كسبب نزيه لعدم محاولة السيطرة عليه. كان أمراً جيداً جداً أن يكون شاب صغير متورد الخدين ساذجاً، ولكن كليفورد كان فجاً عن حق. وبوجه وسيم كوجهه فقد كان ينبغي عليه أن يتحلى بسلوك أوسم. ستعلمه أنه، باسمه الجميل، والأمل بالفوز بإرث كبير، وكما يقال في أوروبا، مع التحلي بمنزلة اجتماعية راقية، فإن الابن الوحيد ينبغي أن يعرف كيف يسلك سلوكاً حسناً.

ما أن بدأ كليفورد بزيارتها لوحده ومن أجله هو شخصياً، فقد أصبح يأتي غالباً. ما كان يعرف بالكاد السبب في قدومه. كان يراها كل مساء تقريباً في منزل والده. لم يكن لديه أي شيء خاص يقوله لها. لم تكن شابة صغيرة، والشبان من عمره كانوا لا يزورون سوى

Twitter: @ketab_n

الشابات الصغيرات. كان يبالغ في عمرها. بدت له امرأة مسنة. وكان من دواعي السعادة أن البارونة، بكل ذكائها، لم تكن قادرة على أن تحزر هذا. ولكن بدأ الأمر يصدم كليفورد تدريجياً إذ تبين له أن زيارة النساء المسنات قد تكون، ولو لم تكن طبيعية، ذوقاً مكتسباً كما يقال في بعض المقالات عن الحمية. كانت البارونة بكل تأكيد امرأة مسنة مسلية جداً. فقد كانت تحدثه كما لم تفعل أي سيدة – وحتى ولا رجل– كما كانت هي تحدثه.

قالت له في عصر أحد الأيام: "عليك أن تذهب إلى أوروبا وتتجول فيها. بالطبع بعد أن تنهي دراستك في الكلية، ستذهب إلى هناك."

صرح كليفورد: " لا أريد الذهاب. أعرف بعض الأشخاص الذي زاروا أوروبا. يقولون إن المرء يستطيع أن يحظى بمرح أكبر هنا."

"هذا يعتمد على ما تريده من هناك. يعتمد على فكرتك عن المرح. لم ينل أصدقاؤك على الأرجح الفرصة للتعرف إلى الناس."

سأل كليفورد: " ما تعنين بذلك؟"

" لم تتح لهم فرصة الانغماس في المجتمع. لم يقيموا أي علاقات ." كانت هذه واحدة من عدد معين من الكلمات التي كانت البارونة غالباً ما تتلفظ بها باللغة الفرنسية.

قال كليفورد: " لقد حضروا حفلات رقص في باريس. أعرف ذلك."

" آه، هناك حفلات رقص من أنواع مختلفة، وخاصة في باريس. لا، عليك الذهاب، كما تعرف. إنه ليس أمراً تستطيع الاستغناء عنه. أنت في حاجة إليه."

Twitter: @ketab_n

قال كليفورد: " أوه، أنا في صحة جيدة. لست مريضاً."

" أعني ليس من أجل صحتك، يا طفلي المسكين. أعني من أجل سلوكك."

همهم كليفورد: " أتعنين أني لا أتمتع بسلوك جيد!"

قالت البارونة بابتسامة:" بالضبط. أنت لا تمانع لو طلبت منك ذلك، أليس كذلك؟ عليك أن تذهب إلى أوروبا وتكتسب بعضاً منه. تستطيع الحصول عليه بشكل أفضل هناك. من المؤسف أنك لم تذهب إلى أوروبا خلال وجودي في ألمانيا. كنت سأتمكن من تعريفك على المجتمع. لديّ دائرة صغيرة فاتنة من المعارف. ربما كنت صغيراً بعد، ولكن كلما بدأ المرء صغيراً كلما كان الأمر أفضل على ما أعتقد. والآن، على أي حال، ليس لديك الكثير من الوقت لتضيعه، وحين أعود إلى أوروبا عليك أن تأتي لزيارتي فوراً."

كان هذا كله، بالنسبة إلى فهم كليفورد، عبارة عن خلطة كبيرة: أي كونه قد بدأ وهو صغير السن وعودة يوجينيا إلى أوروبا، وكونه سيتعرف على دائرتها الصغيرة الفاتنة. ما الذي كان عليه أن يبدأ به وما كانت دائرتها الصغيرة؟ كانت فكرته عن زواجها محاطة بالكثير من الغموض. ولكنها كانت بقدر ما يتعلق هذا الأمر بفكرة محدودة بحيث أنه شعر أنها مسألة لا يمكن ذكرها بحرية. جلس ونظر فيما حوله في أرجاء الغرفة: افترض أنها كانت تلمح إلى زواجها بطريقة ما.

قال:" أوه، لا أريد الذهاب إلى ألمانيا." ظن أن هذا أكثر الأمور ملاءمة للقول.

نظرت إليه لبرهة، وهي تبتسم بشفتيها، ولكن ليس بعينيها. سألته: " هل لديك مخاوف؟"

Twitter: @ketab_n

قال كليفورد: " مخاوف؟"

" أنتم معشر الشباب، هنا، شديدو الفرادة. لا يعرف المرء من أين يتوقعكم. حين لا تكونون شديدي الخروج عن اللياقة فأنتم لائقون إلى حد رهيب. أجرؤ على القول أنك تعتقد أنه بسبب زواجي غير المنتظم، فأنا أعاشر أشخاصاً ذوي سلوك منحل. لم يسبق لك أن كنت على خطأ إلى هذا الحد. لقد كنت أكثر تشدداً بسبب ذلك."

قال كليفورد وقد أحس بحرج صادق:"أوه، كلا، لم يخطر لي إطلاقاً مثل هذا الأمر ."

" هل أنت واثق جداً؟ أنا على قناعة بأن أباك يعتقد ذلك، وكذلك شقيقتاك. يقولون لبعضهم بعضاً إني أسلك هنا سلوكاً حسناً، ولكن هناك ... وأنا متزوجة زواجاً مهجناً ... فإني أعاشر نساء غير مصونات."

صرخ كليفورد بحيوية:" أوه، كلا، لا يقولون مثل هذه الأمور لبعضهم بعضاً!"

أجابت البارونة:" إن كانوا يعتقدون ذلك فليقولوه. عندها يمكن إنكار صحة أقوالهم. أرجو منك أن تنفي صحة ذلك كلما سمعته، ولا تخش من أن تحضر لتراني بسبب الصحبة التي أخالطها. لدي شرف معرفة عدد من الرجال المميزين، يا طفلي العزيز، أكبر من أي عدد من الرجال الذين من المحتمل أن تعرفهم طوال الحياة. وأنا أرى القليل جداً من النساء، ولكنهن نساء من مراتب عالية. لذلك يا عزيزي البيوريتاني[١٩] الشاب، ليس عليك أن تخشى شيئاً. لست على

---

(١٩) بيوريتاني: مذهب مسيحي يدعو إلى التمسك بأهداب الفضيلة والأخلاق الكريمة.

Twitter: @ketab_n

الإطلاق واحدة من أولئك اللواتي يعتقدن أن عشرة النساء اللواتي فقدن مكانتهن في العالم الحقيقي ضرورية في عملية تشكيل شاب. لم يسبق لي أن حملت هذه الصبغة الأخلاقية. لقد حافظت على مكانتي بنفسي، وأعتقد أننا من فئة أفضل بكثير من الفئات الأخرى. ثق بي يا كليفورد، وسوف أبرهن لك على ذلك." هذا ما تابعت البارونة قوله، بينما كانت تتأمل بفكرة ملائمة مفادها أنها لن تكون موضع اتهام على الأقل بأنها كانت تفسد قريبها الشاب. "لذلك إذا وجدت نفسك مرة بين مجموعة من اللصوص، فلا تقل إني أرسلتك إليهم."

فكر كليفورد أن الأمر كان مضحكاً جداً بأن عليه أن يعرف – رغم لغتها المجازية– ما كانت تعنيه، وأنها كانت تعني ما كان يعرفه، بأنه ما كان يستطيع إلا بالكاد مغالبة الضحك قليلاً ، رغم أنه حاول بشدة ألا يفعل ذلك. همهم: "أوه، لا! أوه، لا!"

صاحت البارونة: "اضحك، هيا اضحك، إن كنت أثير الضحك لديك! أنا هنا من أجل ذلك!" وقد ظن كليفورد أنها شخص مسل حداً بالفعل. قالت في هذه المناسبة: "ولكن تذكر أنك ستأتي في العام القادم لتزورني هناك."

بعد حوالي أسبوع من ذلك، قالت له بصراحة: "هل تغازل قريبتك الصغيرة بشكل جدي؟"

(تغازل بشكل جدي)، بدت هذه الكلمات على شفتي المدام مونستر بالنسبة إلى كليفورد كأنها ذات جرس منذر بالسوء ومحرج. تردد في موافقتها على هذا خشية أن يلزم نفسه بأكثر مما فهمه. صاح: "حسناً، لا ينبغي عليّ أن أحكي عن هذا الشيء لو أنه كان يجري!"

سألت البارونة: "و لم لا تفعل؟ هذه الأمور يجب أن تُعرف."

Twitter: @ketab_n

أجاب كليفورد: " لا أبالي ما إذا عُرفت أم لم تُعرف، ولكني لا أريد أن ينظر الناس إليّ."

شرحت البارونة: " إن شاباً في أهميتك ينبغي أن يتعلم كيف يتحمل المراقبة... أن يتصرف وكأنه غير مبال بالمرة بها. لن أقول بالضبط غير واع بها. لا، عليه أن يبدو وكأنه يعرف أنه مراقب، وأن يظن أنه من الطبيعي أن يكون كذلك. ولكن عليه أن يبدو معتاداً تماماً عليها. ولكنك لا تتمتع بهذا يا كليفورد، إطلاقاً. إلا أنه ينبغي عليك التمتع به، وأنت تعرف ذلك. لا تقل لي إنك شاب لا أهمية له. لا تقل شيئاً سطحياً كهذا." هذا ما أضافته يوجينيا.

صاح كليفورد: "أوه، كلا. لا تمسكي بي وأنا أقوله."

تابعت المدام مونستر: " أجل، عليك أن تأتي إلى ألمانيا. سأريك كيف يتم التكلم عن الناس ومع ذلك لا يبدو عليهم أنهم يعرفون ذلك. سيتكلمون عنك بالطبع معي أنا، وسيقال إنك عشيقي. وسأريك كيف أن المرء لن يهمه ذلك سوى قليل جداً... وخاصة فيما يتعلق بي."

جلس كليفورد محدقاً وقد توردت وجنتاه وراح يضحك. صرح قائلاً: "سيهمني ذلك كثيراً!"

" آه، ليس كثيراً جداً، كما تعرف. سيعتبر ذلك أمراً فظاً. ولكني أمنحك الإذن بأن يهمك الأمر قليلاً. خاصة إن كانت لديك عاطفة تجاه الآنسة أكتون. لنر : فيما يتعلق بذلك الأمر، إما أن يكون لديك أو لا يكون لديك. هذا يسهل قوله إلى حد كبير. كان ينبغي عليك أن تريد مني أن أعرف. إن كان المرء يسعى إلى الزواج، فهو يحكي لأصدقائه."

Twitter: @ketab_n

قال كليفورد: "أوه، أنا لا أسعى إلى أي شيء."

" ألا تنوي الزواج من قريبتك؟"

" حسناً، أتوقع أن أفعل ما أختاره!"

أسندت البارونة رأسها على ظهر كرسيها وأغمضت عينيها وكأنهما متعبتان. ثم فتحتهما مرة أخرى وقالت: " قريبتك فاتنة جداً."

أجاب كليفورد: "إنها أجمل فتاة في هذا المكان."

" بقولك (في هذا المكان) فأنت لا تعطيها حقها. ستكون فاتنة في أي مكان. أخشى أنك واقع في شركها."

"أوه، كلا. لست واقعاً في شركها."

" هل أنتما مخطوبان؟ في سنك هذا هو الأمر نفسه."

نظر كليفورد إلى البارونة ببعض التهور: "هل لك ألا تبلغي أحداً؟"

"إن كان الأمر مقدساً إلى ذلك الحد... كلا."

قال كليفورد: " حسناً إذاً... نحن لسنا مخطوبين."

سألته البارونة بضحكة سريعة: " هذا هو أعظم الأسرار... أنكما لستما مخطوبين، أليس كذلك؟ يسرني أن أسمع ذلك. أنت على أي حال صغير السن. والشاب في مثل مركزك يجب أن يختار ويقارن. عليه أن يرى العالم أولاً. اعتمد على ذلك. عليك ألا تقرر هذه المسألة قبل أن تسافر إلى الخارج وتزورني. هناك أمور عديدة أود أن ألفت انتباهك إليها أولاً."

قال كليفورد: " حسناً، أنا بالأحرى خائف من مثل هذه الزيارة. يبدو لي الأمر وكأني سأذهب إلى المدرسة مجدداً."

Twitter: @ketab_n

نظرت إليه البارونة لبرهة. قالت: "يا طفلي العزيز، لا يوجد رجل مقبول لم يذهب إلى المدرسة في لحظة معينة... وهو يواجه امرأة ذكية... ربما أكبر منه قليلاً. وعليك أن تكون ممتناً حين تتلقى الدروس مجاناً. معي ستتلقاها مجاناً."

في اليوم التالي قال كليفورد لليزي أكتون إن البارونة تعتبرها أجمل فتاة سبق لها أن رأتها.

هزت ليزي رأسها وقالت: ":لا، لم تفعل!"

سألها كليفورد: "وهل تظنين أن كل ما تقوله يجب أن يفهم على أنه الضد؟"

قالت ليزي: " أعتقد ذلك!"

كان كليفورد على وشك أن يقول إنه في مثل هذه الحال فإن البارونة كانت ترغب بشدة أن يتزوج السيد كليفورد ونتويرث من الآنسة اليزابيث أكتون؛ ولكنه قرر على أي حال أن يكبح هذه الملاحظة.

Twitter: @ketab_n

-٩-

بدا لروبرت أكتون بعد زيارة يوجينيا لمنزله أن شيئاً ما قد حصل بينهما جعلهما أكثر حميمية بكثير. كان من الصعب القول ما هو الأمر بالضبط، باستثناء إبلاغه أنها اتخذت قرارها فيما يخص الأمير أدولف. لم يكن لزيارة المدام مونستر أي تأثير على علاقاتهما. كان يأتي لزيارتها مراراً كثيرة، ولكن سبق له وفعل ذلك من قبل. كان أمراً مستساغاً له أن يجد نفسه في غرفة استقبالها الصغيرة، ولكن لم يكن هذا اكتشافاً جديداً. لقد حدث تغيير ما، على أي حال، في هذا المعنى: أنه لو كانت البارونة تحتل حيزاً كبيراً من أفكار أكتون من قبل، فهي لا تغادرها قط الآن. كانت منذ البداية فاتنة كشخص، ولكن هذا الافتنان اصبح فكرياً أيضاً في هذا الوقت. كان يتأمل على الدوام في كلماتها وعواطفها إذ كانت مثيرة للاهتمام شأن العوامل في مسألة من مسائل الجبر. وهذا أمر مهم جداً، فقد كان أكتون مغرماً بالرياضيات إلى حد كبير. وقد سأل نفسه ما إذا كان واقعاً في غرامها، ثم راح يأمل في أنه لم يكن كذلك. و لم يكن يأمل إلى هذا الحد من أجل خاطره هو بل من أجل العاطفة الغرامية نفسها. إذا كان هذا حباً، فقد بولغ في تقدير الحب. كان الحب دافعاً شاعرياً، وكانت حالة مشاعره فيما يتعلق بالبارونة تتصف إلى حد كبير بتلك العاطفة النثرية إلى حد كبير: الفضول. كان من الصحيح أن الفضول حين يدفع إلى نقطة محددة – يتحول إلى عاطفة رومانسية– كما لاحظ أكتون في نفسه حسب عادته المعرفية. وقد فكر بما فيه الكفاية دون شك في هذه المرأة الفاتنة بحيث

Twitter: @ketab_n

أصبح قلقاً وحتى كئيباً بعض الشيء. وكان يحيره ويغضبه أحياناً أن يشعر أنه لم يكن أكثر حماسة. لم يكن ينوي على الإطلاق البقاء عازباً. في سنوات شبابه المبكر كان – وحاول أن يكون– من أصحاب الرأي القائل إن الحياة ستكون "أكثر مرحاً" إن لم يتزوج المرء، وقد أطرى نفسه قائلاً إن وضعه كعازب كان أشبه بالحصن الحصين. كان حصناً، على أي حال، ولكنه كان قد أزال منذ زمن بعيد تحصيناته الخارجية. لقد أبعد المدافع عن الاستحكامات وأنزل الجسر المتحرك عبر الخندق. وكان هذا الجسر قد ترنح تحت خطوات المدام مونستر. فلماذا لا يرفعه مجدداً فتبقى أسيرة لديه؟ كانت لديه فكرة بأنها ستصبح – في الوقت الملائم على الأقل، ومع معرفة وسائل الراحة المتاحة للسيدة – أسيرة صبوراً إلى حد مقبول. ولكن الجسر المتحرك لم يرفع قط، وكانت زائرة أكتون الرائعة حرة في أن تغادر كما كانت حرة في الحضور. كان جزءاً من فضوله يتمثل في معرفة السبب الغريب في أن رجلاً حساساً إلى هذا الحد ليس واقعاً في غرام امرأة فاتنة إلى هذا الحد. ولو كانت فضائلها المتنوعة، كما سبق وقلت، العوامل في مسألة جبرية، فإن الجواب على هذا السؤال هو الكمية المجهولة الأساسية. كان السعي وراء الكمية المجهولة أمراً شديد الاستحواذ؛ ففي الوقت الحاضر كانت ترهق جميع قدرات أكتون.

عندما اقترب منتصف شهر آب (أغسطس)، اضطر إلى مغادرة البيت لبضعة أيام. لقد رجاه صديق قديم كان على صلة به في الصين، أن يسافر إلى نيوبورت ليعوده في مرضهً. تحسنت حالة صديقه، وفي نهاية تحرر أكتون من الواجب تجاه صديقه، وأنا أستعمل كلمة "تحرر" عن عمد، فرغم روابطه مع رفيقه من أيام الصين، إلا أنه كان مجرد زائر تعوزه الحماسة. لقد أحس وكأنه قد استدعي من المسرح في منتصف

Twitter: @ketab_n

عرض مسرحي مثير للاهتمام. كانت الستائر مرفوعة طوال الوقت وكان يفوّت الفصل الرابع. الفصل الرابع الذي سيكون جوهرياً جداً لفهم الفصل الخامس. أو بعبارة أخرى، كان يفكر في البارونة التي بدت، كما كان يراها من هذا البعد، شخصاً متميزاً بالفعل. شاهد في نيوبورت كثيراً من النساء الجميلات وكن بكل تأكيد متميزات بقدر ما كانت الأثواب الجميلة الرقيقة تستطيع أن تجعلهن كذلك. ولكن رغم أنهن كن يتحدثن كثيراً- وكانت نقطة القوة في البارونة قدرتها في الحديث على الأرجح- إلا أن المدام مونستر بدت وكأنها لا تخسر شيئاً بالمقارنة. وقد تمنى لو أنها تحضر أيضاً إلى نيوبورت. أما كان ممكناً، كما قيل، تشكيل فريق لزيارة المصح المائي الشهير ودعوة يوجينيا للانضمام إليه؟ كان صحيحاً أن الرضا الكامل سيكون في إنفاق أسبوعين في نيوبورت مع يوجينيا وحدهما. سيكون أمراً ممتعاً جداً رؤيتها، ضمن صحبة الآخرين، وهي تكتسح كل شيء أمامها ، وهو واثق من أنها ستفعل ذلك. وحين وجد أكتون نفسه وهذه الأفكار تنتابه، فقد بدأ يمشي جيئة وذهاباً ويداه في جيبيه، وقد قطب جبينه قليلاً وهو ينظر إلى الأرض. ما كان معنى ذلك- فلا بد من أن يكون له معنى- هذه الرغبة الحيوية في أن يكون مع المدام مونستر في مكان ما "وحدهما" ، بعيدين عن البقية؟ بدت له مثل هذه الرؤية وبكل تأكيد وكأنها دلالة ضمنية مهذبة على الزواج، بعد أن تكون البارونة قد تخلصت رسمياً من زوجها غير الرسمي. وعلى أي حال، فإن أكتون، وبتحفظه المميز، امتنع عن التعبير عن أي شيء آخر قد يتضمن ذلك، وإن راوي هذه الأحداث غير مضطر إلى أن يكون أكثر تحديداً.

عاد إلى بيته بسرعة، وحين وصل في فترة العصر، لم يضيع أي وقت

Twitter: @ketab_n

وبادر إلى الانضمام إلى تلك الدائرة المألوفة من الأشخاص في دارة آل ونتويرث. لدى وصوله إلى الدارة، وجد الشرفات فارغة. كانت الأبواب والنوافذ مشرعة، ولكن فراغها قد تبين من شعاع المصابيح القادم من البهو. دخل الدارة، فوجد السيد ونتويرث يجلس وحيداً في إحدى الغرف وقد انهمك في قراءة مجلة " نورث أمريكان ريفيو". وبعد تبادل التحيات وبعد أن استفسر منه ابن خالته عن تفاصيل رحلته بتحفظ، سأله أكتون عن أخبار صحبة السيد ونتويرث.

قال الرجل العجوز: " إنهم متناثرون في أرجاء المكان، ويسلون أنفسهم كالمعتاد. لقد رأيت شارلوت قبل وقت قصير تجلس مع السيد براند على الشرفة. كانا يتحادثان بأسلوبهما الحيوي المعتاد. أفترض أنهما قد انضما إلى شقيقتها التي تقوم للمرة المائة باستعراض الحديقة أمام ابن عمتها الأجنبي."

قال أكتون: " أعتقد أنك تعني فيليكس." وحين أجاب السيد ونتويرث موافقاً قال أكتون: " والآخرون؟"

قال السيد ونتويرث: "شقيقتك لم تحضر هذا المساء. لا بد وأنك شاهدتها في المنزل. "

"أجل، لقد عرضت عليها أن تأتي ولكنها رفضت."

قال الرجل العجوز بنوع من المكر الرزين: " كانت ليزي، على ما أفترض، تتوقع زائراً."

"إن كانت تتوقع كليفورد، فهو لم يحضر."

عند سماع السيد ونتويرث لهذه المعلومة، فقد أغلق مجلة " نورث أمريكان ريفيو"، وقال إنه فهم أن كليفورد سيذهب لزيارة قريبته. وقد راح يفكر في أن ليزي أكتون لم يكن لديها أي خبر عن ابنه، وأن

Twitter: @ketab_n

كليفورد لا بد أن يكون قد ذهب إلى بوسطن ليقضي المساء؛ وهذا مسار غير طبيعي لليلة صيفية، خاصة حين تترافق مع مزاعم ماكرة.

قال أكتون ضاحكاً: " لا بد أنك تتذكر أن لديه قريبتين." ثم أضاف بصراحة: "إن لم تكن ليزي هنا، فإن البارونة ليست هنا أيضاً."

حدق السيد ونتويرث لبرهة ثم تذكر الاقتراح العجيب لفيليكس. وللحظة لم يكن يعرف إن كان يتمنى أو لا أن يكون كليفورد قد ذهب إلى بوسطن في نهاية الأمر. قال: " لم تشرفنا البارونة هذه الليلة. لم تحضر منذ ثلاثة أيام."

سأل أكتون: " هل هي مريضة؟"

" كلا، فقد ذهبت لزيارتها."

" ما حكايتها؟"

قال السيد ونتويرث: "حسناً، أظن أنها قد تعبت منا."

تظاهر أكتون بأنه سيجلس، ولكنه كان قلقاً. لقد وجد أنه يستحيل عليه أن يحادث السيد ونتويرث. وبعد عشر دقائق تناول قبعته وقال إنه يعتقد أنه "سيغادر". كان الوقت متأخراً جداً، فقد كانت الساعة هي العاشرة.

نظر إليه قريبه ذو الوجه الهادئ لبرهة. ثم سأله: "هل أنت ذاهب إلى البيت؟"

تردد أكتون، ثم أجاب أنه يقترح أن يذهب ويزور البارونة لبرهة قصيرة."

قال السيد ونتويرث بحزن: "حسناً، أنت صادق، على الأقل."

Twitter: @ketab_n

صاح أكتون ضاحكاً: " وأنت كذلك فيما يخص هذا الأمر! و لم لا يكون عليّ أن أكون صادقاً؟"

فتح الرجل العجوز مجلة "نورث أمريكان" مجدداً، وقرأ القليل من السطور. قال: "لو سبق أن كانت لدينا أي فضيلة فيما بيننا، فالأفضل أن نتمسك بها الآن." و لم يكن يقتبس مما قرأه.

قال أكتون: " لدينا بارونة بيننا. هذا ما علينا أن نتمسك به!" كان نافد الصبر جداً في توقه لمشاهدة المدام مونستر مجدداً بحيث لم يتساءل عما كان السيد ونتويرث يعنيه بكلامه. ومع ذلك، وبعد أن خرج من الدارة وعبر الحديقة والجزء الصغير من الطريق التي تفصله عن سكن يوجينيا المؤقت، توقف لبرهة. وقف في حديقتها الصغيرة. كانت النافذة الطويلة لغرفة الاستقبال في منزلها مفتوحة، واستطاع أن يرى الستائر البيض ونور المصباح يومض من خلالها، وهي تتأرجح برقة مع ريح الليل الدافئة. كان هناك نوع من الإثارة في فكرة مشاهدة المدام مونستر مجدداً. أصبح على وعي بأن قلبه كان يدق على نحو أسرع في الواقع من المعتاد. وكان هذا هو ما جعله يتوقف بدهشة نصف ضاحكة. ولكن خلال لحظة سار على امتداد الشرفة وحين اقترب من النافذة المفتوحة، قرع على عتبتها بعصاه. استطاع أن يرى البارونة في الداخل. كانت تقف في منتصف الغرفة. اقتربت من النافذة وأزاحت الستارة. ثم وقفت وهي تنظر إليه لبرهة. لم تكن تبتسم. بدت جادة.

قالت أخيراً:" هيا ادخل!". مر أكتون عبر عتبة النافذة . وقد تساءل لبرهة عما قد يكون خطبها. ولكن في اللحظة التالية كانت قد بدأت تبتسم وتمد له يدها. قالت: " لأن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي أبداً. لطيف جداً منك أن تأتي في مثل هذه الساعة."

Twitter: @ketab_n

قال أكتون: " لقد عدت للتو من رحلتي."

كررت وهي تنظر فيما حولها لتجد مجلسها: " آه، لطيف جدا، لطيف جداً."

تابع أكتون: " ذهبت أولاً إلى الدارة الكبيرة، وكنت أتوقع أن أجدك هناك."

كانت قد جلست في كرسيها المعتاد، ولكنها نهضت مجدداً وبدأت تتحرك في أنحاء الغرفة. كان أكتون قد أنزل قبعته وعصاه، وكان ينظر إليها، وهو واع بأنه كان هناك في الواقع فتنة كبيرة في مشاهدتها مجدداً. قالت: " لا أعرف إن كان عليّ أن أقول لك أن تجلس، فالوقت متأخر جداً على البدء بزيارة."

صرح أكتون: " كما أن الوقت ما يزال مبكراً لإنهاء الزيارة، وليس علينا أن نكترث بالبداية."

نظرت إليه مجدداً وبعد لحظة عادت لتجلس مرة أخرى في كرسيها، بينما جلس هو إلى القرب منها. سألته: " نحن في المنتصف، أليس كذلك؟ وهل كنا هناك في المنتصف حين سافرت؟ كلا، لم أزر المنزل الآخر."

" لا البارحة ولا اليوم الذي سبقه، أليس كذلك؟"

" لا أعرف كم يوماً."

قال أكتون: " لقد تعبت منه."

اتكأت إلى الخلف في جلستها. كان ذراعاها مطويين. "هذا اتهام مريع، ولكن ليس لديّ الشجاعة الكافية لأدافع عن نفسي."

قال أكتون: " أنا لا أهاجمك. لقد توقعت شيئاً ما من هذا القبيل."

Twitter: @ketab_n

" هذا برهان على ذكاء مفرط. آمل أنك استمتعت برحلتك."

صرح أكتون: " لا إطلاقاً. كنت أفضل بالأحرى أن أبقى هنا معك."

قالت البارونة: " أنت تهاجمني حقاً الآن. أنت تقارن تقلّبي مع إخلاصك."

" أعترف بأني لا أتعب أبداً ممن أحب."

"آه، أنت لست امرأة فقيرة و شريرة وأجنبية ذات أعصاب سريعة التهيج وذهن معقد!"

قال أكتون وهو يغيّر مكان جلوسه: " لقد حدث شيء ما لك منذ أن رحلت."

" إنه رحيلك... هذا ما حدث لي."

سألها: " هل تنوين أن تقولي إنك افتقدتني؟"

" لو كنت قصدت أن أقول ذلك، لما كان ذلك سيستحق أن تلاحظه. أنا كذابة جداً، وإطراءاتي باطلة."

صمت أكتون لبعض اللحظات. ثم قال أخيراً: " لقد أصبتِ بانهيار."

تركت المدام مونستر كرسيها وبدأت تتحرك في أنحاء الغرفة.

" فقط للحظة واحدة. سأتماسك مجدداً."

" الأفضل ألا تأخذي الأمر محمل الجد إلى هذا الحد. إن كنت أصبت بالملل، فلا حاجة إلى الخوف من قول ذلك... على الأقل... قوليه لي."

Twitter: @ketab_n

أجابت البارونة: " ليس عليك أن تقول مثل هذه الأمور مرة أخرى. عليك أن تشجعني."

" أنا معجب بصبرك. هذا أمر مشجع."

" لا ينبغي عليك حتى قول هذا. حين تتكلم عن صبري فأنت لا تكون مخلصاً لأسرتك. الصبر يتضمن المعاناة، وما هو الذي عليّ أن أعاني منه؟"

قال أكتون ضاحكاً: " ليس الجوع وليس الفظاظة بكل تأكيد. وعلى الرغم من كل شيء فنحن نعجب بصبرك."

صرخت البارونة بقوة مفاجئة وهي تدير ظهرها له: " أنتم تحتقرونني جميعكم!"

قال أكتون وهو ينهض: " أنت تصعّبين الأمر فلا تتيحين لرجل أن يقول لك شيئاً رقيقاً." في هذا المساء كان هناك شيء مذهل ومؤثر فيها، رقة غير مألوفة ومظهر يوحي بعاطفة مكبوحة. أحس بنفسه يقدّر فجأة حقيقة أنها قد تصرفت بشكل لبق جداً. لقد وصلت إلى هذا الركن الهادئ من العالم مثقلة بمعاملة مهينة قاسية، وقد عبرت عن الامتنان للراحة التي وجدتها هناك برشاقة وتواضع. لقد انضمت إلى تلك الحلقة البسيطة من الناس الذين تعرفت عليهم، كما ساهمت في الإشاعات البسيطة الريفية، وشاركت في المسرات الهزيلة التي لا طعم لها. وقد حددت المهمة بنفسها، واستطاعت أن تؤديها بصرامة. لقد التزمت بالشروط القاسية للحياة في نيو إنغلند، كما كانت لديها البراعة والجرأة على تحمّلها وكأنها تحبها. أحس أكتون بحاجة مباشرة أكثر من أي وقت مضى ليقول لها إنه معجب بها وإنها تصدمه كامرأة شديدة التفوق. وطوال الوقت وحتى الآن كان يحترس في تعامله

Twitter: @ketab_n

معها. كان حذراً وحريصاً وشكاكاً. ولكن هاهو اندفاع خفيف في دمه يبدو وكأنه يوحي بأن درجة أرق من الثقة في هذه المرأة الفاتنة ستكون هي الجائزة. تابع كلامه قائلاً: " نحن لا نحتقرك. لا أعرف ما تعنينه. وعلى أي حال، أنا أتحدث عن نفسي. لا أعرف رأي الآخرين. من المحتمل جداً أنك تحتقرينهم لهذه الحياة المملة التي يجعلونك تعيشينها. وإني سوف أسر نوعاً ما لو سمعتك تقولين ذلك."

كانت يوجينيا تنظر إلى الباب على الجهة الأخرى من الغرفة. والآن التفتت بعينيها ببطء نحو روبرت أكتون. سألت: " ما الدافع لدى رجل مثلك – رجل شريف– رجل شهم – حتى يقول هذا الكلام الرديء إلى هذا الحد؟"

سأل أكتون بصراحة: " هل يبدو رديئاً جداً؟ أفترض أنه كذلك، وأنا أشكرك لأنك فلت لي ذلك. بالطبع لا أعني ما قلته حرفياً."

وقفت البارونة وهي تنظر إليه ثم سألته: " وكيف تعنيه؟"

كان الرد على هذا السؤال صعباً، وسار أكتون، الذي أحس أنه أحمق قليلاً، نحو النافذة المفتوحة ونظر إلى الخارج. وقف هناك وهو يفكر لبرهة، ثم التفت إلى الخلف. قال: " أنت تعرفين أن الوثيقة التي كنت سترسلينها إلى ألمانيا. تلك التي سميتِها (تخلياً). هل أرسلتها؟"

توسعت عينا المدام مونستر: بدت في منتهى الجدية. " يا له من جواب فريد على سؤالي!"

قال أكتون: "آه، ليس جواباً. لقد رغبت في أن أسألك هذا السؤال مرات عديدة. لقد ظننت أنه من المرجح أن تقولي لي أنت بنفسك. والسؤال، من جهتي، يبدو فظاً الآن، ولكنه سيكون فظاً في أي وقت على كل حال."

Twitter: @ketab_n

صمتت البارونة لبرهة، ثم قالت: " أعتقد أني أخبرتك أكثر مما يجب!"

بدا هذا التصريح لأكتون وكأن له قوة معينة. كان لديه بالفعل حس بأن يطلب منها أكثر مما عرضه عليها. عاد إلى النافذة، وراح يراقب لبرهة نجماً صغيراً كان يتلألأ عبر شعرية الشرفة. كانت هناك على أي حال عروض كافية يستطيع تقديمها، وربما لم يكن هو حتى الآن واضحاً صريحاً بما فيه الكفاية في قيامه بذلك. قال الآن: " أتمنى أن تطلبي مني شيئاً ما. هل يوجد أي شيء أستطيع فعله من أجلك؟ إن كنت لا تستطيعين تحمل هذه الحياة المملة هنا بعد الآن، دعيني أسلّيك!"

كانت البارونة قد غرقت مجدداً في أحد الكراسي، وكانت قد حملت مروحة بيديها كلتاهما، ورفعتها نحو فمها. فوق أعلى المروحة كانت عيناها مثبتتين عليه. قالت ضاحكة: " أنت غريب جداً هذه الليلة."

أجاب وهو يقف أمامها: " أنا مستعد أن أفعل أي شيء في هذا العالم. ألا تودين السفر ومشاهدة بعض أرجاء هذا البلد؟ ألا تذهبين إلى نياغارا؟ عليك أن تشاهدي نياغارا، كما تعلمين."

" أتعني بصحبتك؟"

"سيسرني اصطحابك."

" وحدك؟"

نظر أكتون إليها مبتسماً ومع ذلك بجدية. قال: "حسناً، يمكننا أن نذهب لوحدنا."

Twitter: @ketab_n

أجابت: "لو لم تكن من تكون، لشعرت بالإهانة."

" ما الذي تعنينه بمن أكون؟"

" لو كنت واحداً من أولئك السادة الذين اعتدت عليهم طوال حياتي. لو لم تكن بوسطنياً (من مدينة بوسطن) غريب الأطوار."

قال أكتون: " لو كان السادة الذين اعتدت عليهم قد علموك توقع الإهانات، فأنا سعيد لكوني ما أنا عليه. الأجدر بك أن تأتي إلى نياغارا."

صرحت البارونة: " إن كنت تريد تسليتي، فعليك ألا تتحمل المزيد من النفقات. أنت تسلّيني بشكل فعال جداً."

جلس قبالتها. كانت ما تزال ترفع مروحتها لتغطي وجهها، ولا يظهر سوى عينيها من فوقها. مرت لحظة صمت، ثم قال وهو يعود إلى سؤاله السابق:" هل أرسلت تلك الوثيقة إلى ألمانيا؟"

ومن جديد كانت هناك لحظة صمت. بدت عينا المدام مونستر المعبرتان وكأنهما تكسران نصف هذا الصمت. قالت: " سأقول لك ونحن في نياغارا."

لم تكن قد تكلمت حين فتح الباب في الجانب الآخر من الغرفة: الباب الذي كانت يوجينيا قد ثبتت نظرتها إليه قبل بضع دقائق. وقف كليفورد ونتويرث هناك وقد تضرج وجهه وبدا عليه الاضطراب إلى حد ما. نهضت البارونة بسرعة ونهض أكتون إنما على نحو أبطأ. لم يوجه كليفورد التحية إليه. كان ينظر إلى يوجينيا.

صاح أكتون: "آه، كنتَ هنا؟"

قالت المدام مونستر: "كان في مرسم فيليكس. أراد أن يرى رسماته."

Twitter: @ketab_n

نظر كليفورد إلى روبرت أكتون، ولكنه لم يقل شيئاً، بل راح يروّح بقبعته فحسب. قال أكتون: " لقد اخترت لحظة غير مناسبة، فلم يكن لديك ما يكفي من النور."

قال كليفورد ضاحكاً:" لم يكن لديّ أي نور!"

سألت يوجينيا:"هل انطفأت شمعتك؟ كان عليك أن تعود إلى هنا وتشعلها مجدداً."

نظر كليفورد إليها لبرهة. "هذا ما فعلته... لقد عدت. ولكني تركت الشمعة!"

التفتت يوجينيا بعيداً. " أنت غبي جداً يا طفلي المسكين. الأجدر بك أن تذهب إلى بيتك."

قال كليفورد: "حسناً، ليلتكم سعيدة!"

سأل أكتون: " أليس لديك كلمة ترميها إلى رجل بعد أن عاد سالماً من رحلة خطرة؟"

قال كليفورد: "كيف حالك؟ ظننت... ظننت أنك كنت في ..." ثم توقف عن الكلام ونظر إلى البارونة مجدداً.

"ظننت أني في نيوبورت، أليس كذلك؟ لقد كنت هناك... هذا الصباح."

قالت المدام مونستر من فوق كتفها:" ليلتك سعيدة أيها الطفل الذكي!"

حدق كليفورد إليها ... ولكن ليس كطفل ذكي إطلاقاً. ثم غادر وهو يطلق واحدة من همهماته الهزلية.

Twitter: @ketab_n

سأل أكتون بعد رحيله: "ما مشكلته؟ بدا وكأنه مشوش."

نظرت يوجينيا التي كانت قرب النافذة إلى الخارج، وأصغت لبرهة. أجابت: " المشكلة... المشكلة... ولكنكم لا تقولون مثل هذه الأشياء هنا."

"إن كنت تعنين أنه كان يشرب قليلاً، تستطيعين ذلك."

" لقد توقف عن الشرب. لقد عالجته. وقد وقع في حبي لقاء ذلك."

حان الآن دور أكتون في التحديق. وقد فكر على التو بشقيقته، إلا أنه لم يقل شيئاً عنها. بدأ بالضحك. "لا أتعجب من عاطفته! ولكني أتعجب من تخليه عن صحبتك من أجل فراشي الرسم الخاصة بشقيقك."

صمتت يوجينيا لبرهة. "كان في المرسم. لقد اخترعت ذلك... في تلك اللحظة."

"اخترعت ذلك؟ لأي غرض؟"

قالت يوجينيا بضحكة صغيرة: "كان يفكر في أن يكون رومانسياً. لقد اعتاد على القدوم ليراني في منتصف الليل... فهو لا يمر إلا عبر البستان ثم عبر مرسم فيليكس، وله باب يفتح في هذا الاتجاه. يبدو أن هذا يسليه."

أحس أكتون بدهشة أكبر مما اعترف به، فقد كانت هذه رؤية جديدة لكليفورد، الذي كانت تصرفاته الشاذة خالية تماماً من العنصر الرومانسي. حاول أن يضحك مجدداً، ولكنه شعر بأنه جدي جداً، وبعد تردد دام لبرهة أفصحت جديته عن نفسها. قال: "آمل أنك لا تشجعينه . لا ينبغي أن يكون غير مخلص لليزي المسكينة."

Twitter: @ketab_n

"لشقيقتك؟"

قال أكتون: " تعرفين أنهما على علاقة حميمة جدية."

صاحت يوجينيا وهي تبتسم: "آه، هل هي... هل هي..."

قاطعها أكتون: " لا أعرف ما إذا كانت كذلك. ولكني كنت أفترض دائماً أن كليفورد راغب في أن يجعل نفسه مقبولاً لديها."

استأنفت البارونة الكلام:" آه، مثلاً! ياللوحش الصغير! في المرة التالية التي يصبح فيها عاطفياً سأقول له إن عليه أن يخجل من نفسه."

صمت أكتون لبرهة. " الأفضل ألا تذكري له هذا الأمر."

قالت البارونة: " لقد سبق وقلت له هذا، على أساس عام. ولكن في هذا البلد، كما تعرف، فإن علاقات الشباب استثنائية جداً حتى أن المرء يجد نفسه في حيرة. إنهما ليسا مخطوبين حين تقول إنه ينبغي عليهما أن يكونا كذلك. خذ مثلاً شارلوت ونتويرث وذلك الكاهن الشاب. لو كنت أباها لكنت قد ألححت على أن يتزوجها. ولكن يبدو أنه يظن أن لا ضرورة للعجلة. ومن ناحية أخرى، فأنت تعلم فجأة أن شاباً في العشرين من عمره وفتاة صغيرة لا تزال تحت رعاية مربيتها... أليس لشقيقتك مربية؟ حسناً إذاً، التي لم تبتعد قط عن أمها... شابان صغيران باختصار لم تلاحظوا بينهما أي شيء يتعدى تبادل المزاح الطفولي الذي يميز سنهما؛ تعلم أنهما على وشك أن يصبحا زوجاً وزوجة." تكلمت البارونة بهذر معين مبالغ به كان يتباين مع الكياسة الفاترة التي ميزت سلوكها قبل ظهور كليفورد. بدا لأكتون أن هناك شرارة من الغضب في عينيها... ولهجة سخرية في صوتها (كما جرى حين تحدثت عن كون ليزي لم تبتعد قط عن أمها). لو كانت المدام مونستر غاضبة فإن روبرت أكتون كان محيراً على نحو مبهم. بدأت

Twitter: @ketab_n

بالتحرك في أنحاء الغرفة مجدداً، ونظر إليها دون أن يقول أي شيء. في الوقت الحاضر، أخرجت ساعتها، ونظرت إليها وأعلنت أنها الساعة الثالثة صباحاً، وأن عليه أن يغادر.

قال: " لم أمكث هنا سوى ساعة واحدة وهم ما يزالون ساهرين في الدارة الكبيرة. تستطيعين مشاهدة الأضواء. لم يعد أخوك بعد."

صاحت يوجينيا: " أوه، الدارة الكبيرة. إنهم أشخاص رهيبون! لا أعرف ما الذي يفعلونه هناك. أنا امرأة صغيرة هادئة مملة، ولديّ أحكام صارمة، وأنا أحافظ عليها. من هذه الأحكام ألا أستقبل زواراً بعد متصف الليل... وخاصة الرجال الأذكياء من أمثالك. لذا أتمنى لك ليلة سعيدة!"

كانت البارونة حاسمة بشكل مؤكد، ورغم أن أكتون تمنى لها ليلة سعيدة وغادر المكان، إلا أنه كان ما يزال في حيرة شديدة.

في اليوم التالي، وصل كليفورد ونتويرث ليرى ليزي، وقد لاحظ أكتون، الذي كان في المنزل ورآه يعبر الحديقة ما يجري. كانت لديه رغبة طبيعية في أن يأخذ في الحسبان ما قالته البارونة عن سخط كليفورد. ولكن ألمعيته وقد وجدت نفسها غير كفؤ للمهمة، قررت أن تطلب المساعدة من صراحة الشاب. انتظر حتى رآه ينصرف، ثم خرج وأدركه في فناء الدار.

قال أكتون: " أود كثيراً أن تجيبني على سؤال. ما الذي كنت تفعله الليلة الماضية في منزل المدام مونستر؟"

بدأ كليفورد يضحك ثم تضرج وجهه خجلاً، ولكن ليس إطلاقاً كشاب يخفي سراً رومانسياً. سأله: " ما الذي قالته لك؟"

" هذا بالضبط ما لا أريد أن أقوله."

Twitter: @ketab_n

قال كليفورد: " حسناً، أود أن أقول لك الشيء نفسه، وما لم أكن أعرف ذلك فربما لا أستطيع."

كانا قد توقفا في ممر الحديقة. نظر أكتون بحدة إلى قريبه الشاب المتورد الوجه. "قالت إنك لم تستطع أن تتصور ما حلّ بك. بدا وكأنك قد بدأت تكرهها بشكل عنيف."

حدق كليفورد بينما بدا عليه الانزعاج قليلاً. همهم قائلاً: "هيا، كفى، أنت لا تعني ذلك!"

" وأنك – من أجل اللطف المعتاد– كنت تأتي إلى المنزل أحياناً وتتركها وحيدة وتنفق وقتك في مرسم فيليكس بحجة التفرج على رسماته. "

همهم كليفورد ثانية: " أوه، كفى!"

" هل سبق لك أن عرفتني أتفوه بالأكاذيب؟ "

قال كليفورد وهو يرى مخرجاً من النقاش ينفتح على قدراته التهكمية: "أجل، الكثير منها! " ثم أضاف: "حسناً، ظننتك أبي."

" كنت تعرف أن شخصاً ما كان هناك؟"

" سمعناك تدخل."

فكر أكتون. " أكنت مع البارونة في ذلك الحين؟"

"كنت في البهو. سمعنا خطوتك في الخارج. ظننتك أبي."

سأله أكتون: " وعند ذاك هربت؟"

" طلبت مني أن أغادر... عن طريق المرسم."

فكر أكتون بشكل أكثر حدة. لو كان هناك كرسي متاح له لجلس عليه. " ولماذا لا تريدك هي أن تقابل أباك؟"

Twitter: @ketab_n

قال كليفورد: " حسناً، لا يحب أبي أن يراني هناك."

نظر أكتون شزراً إلى رفيقه وامتنع عن أن يعلق على هذا التوكيد. سأل:" هل قال هو ذلك للبارونة؟"

قال كليفورد:" حسناً، آمل ألا يكون قد قال ذلك. لم يقل مثل هذا صراحة لي. ولكني أعرف أن هذا يقلقه. البارونة تعرفه، وتريد مني أن أتوقف أيضاً."

" أن تتوقف عن الذهاب لرؤيتها؟"

أضاف كليفورد بلهجة العارف خاصته:" لا أعرف إن كان يقصد ذلك، ولكن أن أتوقف عن جعل والدي يقلق. تعرف يوجينيا كل شيء. "

قال أكتون مستفسراً: "آه، هل تعرف يوجينيا كل شيء؟"

" كانت تعرف أن القادم لم يكن أبي."

" إذاً لم اختبأت؟"

تضرجت وجنتا كليفورد وضحك مجدداً. " حسناً، كنت أخشى أن يكون أبي. وعلاوة على ذلك، طلبت هي مني ذلك على أي حال."

سأل أكتون: " هل ظنت هي أني كنت القادم؟"

" لم تقل ذلك."

ومن جديد فكر روبرت أكتون. قال: "ولكنك لم تغادر المكان بل عدت". أجاب كليفورد: " لم استطع الخروج من المرسم. كان الباب مقفلاً، وفيليكس قد ثبت بعض الألواح الخشبية بالمسامير على النصف السفلي من النافذة اللعينة، حتى يصل الضوء من الأعلى. إذن

Twitter: @ketab_n

لم أستطع الخروج. انتظرت هناك فترة طويلة ثم شعرت بالخجل فجأة. لم أكن أرغب في أن أختبئ من أبي. لم أعد استطيع الاحتمال أكثر من ذلك. لذلك خرجت وحين وجدت أنك من كان هناك شعرت ببعض الاضطراب. ولكن يوجينيا احتالت على الأمر، أليس كذلك؟" هذا ما أضافه كليفورد بلهجة شاب فكه لم يتكدر إدراكه بالقلق على نحو دائم.

قال أكتون: " احتالت بشكل جميل! وخاصة حين يتذكر المرء أنك كنت شديد التهور ولا بد أنها كانت منزعجة جداً."

صاح كليفورد بلامبالاة شاب يشعر أنه مهما يكون قد فشل في نيل الغبطة في السلوك، إلا أنه على حق تماماً في انطباعاته. "أوه، يوجينيا لا تهتم بأي شيء!"

تردد أكتون لبرهة، ثم قال أخيراً: " شكراً لأنك قلت لي هذا." ثم وضع يده على كتف كليفورد وأضاف: " قل لي شيئاً واحداً آخر: هل أنت بالمناسبة مغرم بالبارونة؟"

قال كليفورد وهو يهز كتفه ليبعد يد روبرت:" لا يا سيدي!"

Twitter: @ketab_n

-١٠-

شهد الأحد التالي الذي تبع عودة روبرت أكتون من نيوبورت تغيراً في الطقس الصافي الذي كان قد ساد لفترة طويلة. بدأ المطر بالهطول وأصبح الجو بارداً وكئيباً. ارتدى السيد ونتويرث وابنتاه الأحذية المطاطية التي تلبس فوق الأحذية العادية ومضوا إلى الكنيسة، أما فيليكس ينغ فقد ذهب أيضاً إلى الكنيسة دون أن يلبس مثل هذه الأحذية الفوقيةً، وهو يحمل ممطرة فوق رأس غرترود. هذا ويُخشى أن هذا هو الامتياز الوحيد الذي كان يمنحه فيليكس تقييماً عالياً في هذه الشعائر كلها. بقيت البارونة في المنزل. لم تكن في مزاج بهيج ولا ورع. وعلى أي حال، لم تكن هي خلال وجودها في الولايات المتحدة تحضر بشكل منتظم الصلوات في الكنيسة. وفي صباح يوم الأحد هذا الذي بدأت به الكلام فقد وقفت عند نافذة غرفة جلوسها الصغيرة، وراحت تراقب الذراع الطويلة لشجرة ورد كانت قد ربطت بشرفتها ولكن جزءاً منها كان قد تحرر وراح يتأرجح جيئة وذهاباً ويهتزّ ويشبّر أمام الرذاذ الأغبش للسماء. بين الحين والآخر، حين تهب الريح، كانت شجرة الورد ترش نقط الماء على شباك النافذة. بدا وكأن لها حركة تشبه حركة البشر: نية تحذيرية مهددة. كانت الغرفة شديدة البرودة. ارتدت المدام مونستر شالاً وراحت تمشي في أنحاء الغرفة. ثم قررت أن تشعل ناراً. نادت على الزنجية العجوز التي كان التباين بين بشرتها الأبنوسية الصقيلة وعمامتها القرمزية مصدراً لارتياحها في

Twitter: @ketab_n

البداية، فقامت بالترتيبات اللازمة لصنع نار بديعة. كان اسم هذه المرأة العجوز "أرزينا". كانت البارونة قد بدأت تفكر بأن هناك لمسة برية سائغة في كلامها، ومن أجل التسلية فقد كانت تشجعها على الثرثرة. ولكن أرزينا كانت ناشفة ومتزمتة، و لم يكن حديثها أفريقياً قط. وقد ذكّرت يوجينيا بالسيدات العجائز المضجرات اللواتي كانت تقابلهن في المجتمع. كانت تعرف على أي حال كيف تشعل ناراً، فبعد أن وضعت الحطب، تسلت يوجينيا التي كانت تشعر بالملل الشديد لفترة ربع ساعة بالجلوس ومراقبتها وهي تشتعل وتطقطق. كانت تظن أنه من المحتمل جداً أن يأتي روبرت أكتون لزيارتها. لم تكن قد قابلته منذ تلك الأمسية غير السعيدة. ولكن الصباح مضى دون أن يأتي. ظنت مرات عديدة أنها سمعت خطواته على الشرفة، ولكنه كان مصراع النافذة يهتز تحت عصف الريح الماطر. كانت البارونة، منذ بداية ذلك الحدث في حياتها الذي حاولنا أن نقدم له وصفاً سريعاً في هذه الصفحات، تعاني من لحظات كثيرة من الكدر. ولكن كدرها اليوم كان ذا حدة خاصة، فقد بدا وكأنه يغذي نفسه بنفسه. وقد حثها هذا على أن تفعل شيئاً ما؛ ولكن دون خطة مفيدة. لو استطاعت أن تفعل شيئاً على الفور لكانت ستركب باخرة أوربية وتدير ظهرها، مع نوع من النشوة، إلى ذلك الفشل المخزي إلى حد عميق، أي زيارتها لأقربائها الأمريكيين. لم يكن واضحاً تماماً السبب في أنها سمّت هذه المغامرة فشلاً، حيث أنها قد عوملت بأعلى احترام مسموح به في المؤسسات الأمريكية. كان كدرها ناجماً، في العمق، من إحساسها الحاضر دائماً، والذي أصبح حاداً، بأن التربة الاجتماعية على هذه القارة الكبيرة الغامضة لم تكن متكيفة نوعاً ما مع تربية هذه النباتات التي كانت ترفض تنشّق أريجها، والتي كانت تحب أن ترى نفسها محاطة بها: نوع من النبات كانت تحمل منه مجموعة من الشتلات، كما

Twitter: @ketab_n

يمكن أن نقول، في جيبها. لقد وجدت سعادتها الكبيرة في الإحساس بأنها تمارس قوة معينة وتعطي انطباعاً معيناً. والآن، أحست بالانزعاج الذي قد يشعر به السابح القلق الذي حين يقترب من الشاطئ ليجد جداراً صقيلاً ومستقيماً من الصخور بعد أن كان يعتمد على أن يجد شاطئاً نظيفاً راسخاً. كانت قوتها، في الجو الأمريكي، تبدو وكأنها قد فقدت مزايا القدرة على الإمساك والتشبث. فالجدار الصخري الصقيل كان غير قابل للتسلق. قالت في نفسها: "بالتأكيد لست هنا في مكاني الصحيح، حتى أني أسمح للأمور أن تجعلني أشعر بعدم الراحة كون السيد روبرت أكتون لا يشرفني بزيارة!" ومع ذلك فقد كانت مستاءة لأنه لم يأت، وكانت مستاءة من استيائها."

على الأقل، هاهو أخوها يدخل وهو يخبط الأرض بقدميه في البهو وينفض ماء المطر عن معطفه. وقد دخل في لحظة وقد توردت وجنتاه ونصف دزينة من قطرات المطر على شاربيه. قال: "آه، لديك نار موقدة."

أجابت البارونة :""لقد ولت الأيام الجميلة!"

أعلن فيليكس وهو يزرع نفسه أمام المدفأة: " أبداً، أبداً! لقد بدأت للتو." أدار ظهره للنار ووضع يديه خلفه، ثم مدّ ساقيه ونظر بعيداً عبر النافذة وتعبير على وجهه يبدو وكأنه يدل على إحساس باللون الوردي حتى في تدرجات ألوان يوم أحد ماطر.

نظرت شقيقته إليه، من كرسيها، وراحت تراقبه؛ ولكن ما رأته في وجهه لم يكن الامتنان لمزاجها الحالي. لم تكن متحيرة من أمور كثيرة، ولكن مزاج أخيها كان مصدراً متكرراً للتعجب لديها. أقول متكرراً وليس ثابتاً، فقد كانت هناك فترات طويلة كانت تهتم فيها بمسائل أخرى. أحياناً كانت تقول لفي نفسها إن مزاجه السعيد ومرحه

Twitter: @ketab_n

الدائم كانا مصطنعين، مجرد "وضعية للرسم"؛ ولكنها كانت واعية بشكل غامض بأنه خلال الصيف الحالي كان هو ممثلاً كوميدياً فائق النجاح. ليس لديهم تفسير لذلك. لم تكن تعرف الحاجة إلى ذلك. ربما كان فيليكس يتبع الميل إلى عبقريته اللامبالية، وقد أحست أنه ليس في حوزتها أي نصيحة تقدمها إليه وأنه سيفهمها. وبهذا كان هناك دائماً عنصر معين من الراحة فيما يخص فيليكس: الثقة بأنه لن يتدخل. كان رقيقاً جداً، هذا الفيليكس طاهر الذهن. وبالفعل، كان هو أخاها، وشعرت المدام مونستر أن هناك ملاءمة عظيمة في ذلك من كل ناحية من النواحي. صحيح أن فيليكس كان رقيقاً و لم يكن مولعاً بالتفسيرات مع شقيقته. وكان هذا واحداً من الأمور القليلة جداً في العالم الذي لم يكن هو مرتاحاً إليه. والآن هاهو لا يفكر في أي شيء غير مريح.

قالت يوجينيا أخيراً: " يا أخي العزيز، توقف عن أن تنظر بعيون ذابلة إلى المطر."

أجاب فيليكس: " مع السرور، سأوجهها إليك!"

سألت يوجينيا بعد برهة: " كم من الوقت تنوي أن تبقى في هذه البقعة الجميلة؟"

حدق إليها فيليكس: " هل تريدين الرحيل... الآن؟"

" الآن ... هذا أمر لذيذ. لست سعيدة بقدر ما أنت سعيد."

جلس فيليكس على أحد الكراسي وراح ينظر إلى النار. قال بلهجته الخفيفة والواضحة: "الحقيقة هي أني سعيد فعلاً."

" وهل تقترح أن تمضي حياتك وأنت تمارس الحب مع غرترود ونتويرث؟"

Twitter: @ketab_n

أجاب فيليكس وهو يبتسم جانبياً لشقيقته: "أجل!"

ردت له البارونة النظرة على نحو أكثر جدية ثم سألته:" هل تحبها؟"

سأل فيليكس: " وأنت ألا تحبينها؟"

صمتت البارونة لبرهة. " لن أجيبك بالكلمات التي قالها الرجل المهذب الذي سئل إن كان يحب الموسيقى: لا أخافها!"

قال فيليكس: "ولكنها معجبة جداً بك."

" لا يهمني ذلك. لا ينبغي أن تعجب المرأة بامرأة أخرى."

"وهل ينبغي على النساء أن يكرهنك؟"

ومن جديد ترددت المدام مونستر. " ينبغي عليهن أن يكرهنني! هذا هو مقياس الوقت الذي أخسره هنا وهن لا يخسرنه."

قال فيليكس بحكمة نيّرة مثيرة للغيظ قليلاً: " لا يكون الوقت مضيعاً حين يكون المرء سعيداً!"

أجابت شقيقته بضحكة أقسى: "والذي يكون فيه المرء قد ضمن محبة شابة ذات ثروة!"

شرح فيليكس بصراحة شديدة وبجدية: " لقد ضمنت محبة غرترود، ولكني لست متأكداً على الإطلاق من أني ضمنت ثروتها. قد تأتي هذه ... أو قد لا تأتي."

" آه، حسناً، قد تأتي! هذه هي المسألة الهامة."

" يعتمد الأمر على أبيها. إنه غير راض عن مشروع زواجنا. يريدها أن تتزوج من السيد براند."

صاحت البارونة: " لا أعرف أي شيء عن هذا الموضوع! أرجو

Twitter: @ketab_n

أن تضع حطباً جديداً. " استجاب فيليكس لطلبها وجلس يراقب تسارع اللهب. أضافت شقيقته الآن: " وأنت تقترح أن تهرب مع المدموازيل؟"

" ليس على الإطلاق. لا أرغب في أن أقوم بأي فعل يزعج السيد ونتويرث. لقد كان كريماً جداً معنا."

" ولكن عليك أن تختار بين إرضاء نفسك وإرضائه هو."

صاح فيليكس بمرح: "أريد أن أرضي الجميع! لديّ ضمير جيد. لقد قررت منذ البداية أنه لا يجدر بي أن أغازل غرترود."

" إذاً ولتبسيط الأمور، كانت هي من غازلك؟"

نظر فيليكس إلى شقيقته بجدية مفاجئة. "تقولين إنك لا تخشين منها، ولكن ربما كان عليك أن تخشاها قليلاً. إنها ذكية جداً."

صاحت البارونة: " لقد بدأت أرى ذلك!" لم يجب أخوها بل استرخى في كرسيه وساد الصمت طويلاً. وأخيراً وبلهجة معتدلة سألت المدام مونستر سؤالاً آخر: " هل تتوقع الزواج على أي حال؟"

" سأكون خائب الرجاء جداً إن لم يحدث ذلك."

صرحت البارونة: "ستفيدك خيبة رجاء شخصين معاً. وبعد ذلك، هل تريد أن تصبح أمريكياً؟"

" يبدو لي أنه سبق وأصبحت أمريكياً من النوع الجيد جداً. " ولكننا سنذهب إلى أوروبا. فغرترود ترغب بشدة في أن ترى العالم."

" شأني أنا حين أتيت إلى هنا!" قالت البارونة بضحكة صغيرة.

أجاب فيليكس وهو ينظر إلى شقيقته بجدية لطيفة : " كلا، ليس

Twitter: @ketab_n

شأنك أنت." وبينما راح ينظر إليها نهضت هي من كرسيها فنهض هو أيضاً. تابع الكلام قائلاً: " ليست غرترود مثلك على الإطلاق. ولكنها بأسلوبها الخاص ذكية مثلك." توقف للحظة، فقد كانت روحه مترعة بالشعور المتناغم وبالمزاج الحيوي للتعبير عن ذلك. أما شقيقته، حسب رؤيته الروحية، فكانت دائماً أشبه بالقرص القمري حين لا يكون سوى جزء منه مناراً. كان الظل على هذا الجزء المنير يبدو له وكأنه يتوسع ويتباين. ولكن بغض النظر عن نسبته، فقد كان يعجب دائماً بنور القمر. نظر إلى البارونة، ثم قبّلها. قال: " أنا مغرم جداً بغرترود." التفتت يوجينيا مبتعدة وراحت تمشي في أنحاء الغرفة. وتابع فيليكس قائلاً: " إنها مثيرة جداً للاهتمام، ومختلفة جداً عما تبدو عليه. لم يسبق أن أتيحت لها الفرصة. إنها متقدة الذكاء. سنذهب إلى أوروبا ونتسلى."

كانت البارونة قد ذهبت نحو النافذة حيث وقفت وراحت تنظر إلى الخارج. كان اليوم هو الأكثر اكفهراراً على الإطلاق، وقد راح المطر ينهمر بشدة. قالت أخيراً: " أجل، هيا بنا نتسلى. الأجدر بك أن تذهب إلى أوروبا!" ثم التفتت ونظرت إلى أخيها. كان هناك كرسي إلى القرب منها، فاتكأت بيديها على ظهره. " ألا تعتقد أنه أمر طيب جداً من قبلي أن أقطع كل هذه الرحلة الطويلة معك ببساطة لأراك تتزوج زواجاً ملائماً... هذا إن كان الأمر كذلك؟"

قال فيليكس ببعض التحفز: "أوه، سيكون زواجاً ملائماً."

أطلقت البارونة ضحكة صغيرة. قالت: " أنت لا تفكر سوى في نفسك، وأنت لا تجيب على سؤالي: بينما تمتع نفسك مع غرترود الذكية، ما الذي سأفعله أنا؟"

Twitter: @ketab_n

صاح فيليكس (بالفرنسية): " يجب أن تحضري الحفلة."

" شكراً. سأفسدها." نظرت البارونة إلى الأرض لبضع لحظات. سألته: "هل تقترح، على أي حال، أن تتركني هنا؟"

ابتسم فيليكس لها." يا أختي العزيزة، فيما يتعلق بك، أنا لا أقترح أبداً. أنا أنفذ أوامرك."

قالت يوجينيا ببطء: " أعتقد أنك أكثر الأشخاص الأحياء قسوة. ألا ترى أني واقعة في مشكلة؟"

" لاحظت أنك لست مبتهجة فمنحتك بعض الأخبار الطيبة."

قالت البارونة:"دعني أمنحك بعض الأخبار. ربما لن تكتشف الأمر بنفسك. يريد روبرت أكتون أن يتزوجني."

" كلا، لم أكتشف ذلك. ولكني أفهمه تماماً. ولماذا يحزنك هذا؟"

" لأني لا أستطيع اتخاذ قرار."

صاح فيليكس بمرح: " اقبليه، اقبليه! إنه أفضل شخص في العالم."

قالت البارونة: "إنه واقع بشدة في غرامي."

" كما أنه صاحب ثروة كبيرة. اسمحي لي بدوري أن أذكرك بذلك."

قالت يوجينيا:" أوه، أنا على وعي تام بذلك. وهذه ميزة كبيرة له. أنا صريحة إلى حد هائل." ثم تركت مكانها واقتربت من أخيها وهي تنظر إليه بقوة. كان هو يقلّب بعض الأشياء ، وكانت تتساءل عن الطريقة التي يفهمها بها حقاً.

كانت هناك طرق متعددة لفهمها: فهناك ما قالته وما عنته وشيء

Twitter: @ketab_n

ما بين الاثنين هو ليس أحدهما ولا الآخر. من المرجح أنه في التحليل الأخير، كان ما تعنيه أن فيليكس يجب أن يوفر عليها ضرورة التعبير بشكل أدق عن المسألة، وأن يتعهد بمساعدتها بكل الوسائل الشريفة لتتزوج أفضل شخص في العالم. ولكن لم يكن ممكناً اكتشاف ما فهمه فيليكس.

سألها: " ما أن تنالي حريتك، فما هي اعتراضاتك؟"

" حسناً، لا أحبه بشكل خاص."

"أوه، حاولي قليلاً."

قالت يوجينيا:"أحاول الآن. كنت سأنجح بشكل أفضل لولا أنه لا يسكن هنا. لا أستطيع أن أعيش أبداً هنا."

اقترح فيليكس:"اجعليه يذهب إلى أوروبا."

أجابت البارونة:"آه، ها أنت تتكلم عن سعادة مبنية على جهد عنيف. ليس هذا ما أتطلع إليه. لن يعيش أبداً في أوروبا."

قال فيليكس بشهامة:" سيعيش في أي مكان من أجلك!"

كانت أخته ما تزال تنظر إليه، مع شعاع من النفاذ في عينيها الفاتنتين. ثم التفتت مبتعدة من جديد. تابعت القول الآن:" كما ترى، وعلى أي حال، لو قيل عني إني أتيت إلى هنا بحثاً عن الثروة سيقال أيضاً إني وجدتها!"

حضّها فيليكس بجدية مبتسمة:" لا تتخلي عنها."

أعلنت أخته بعد برهة:"أنا ممتنة جداً لك على هذا الاهتمام. ولكن عدني شيئاً واحداً: "لا حماسة! لو طلب السيد أكتون منك أن تتوسط في الأمر لمصلحته، فاعتذر منه."

Twitter: @ketab_n

قال فيليكس: " سأعتذر بكل تأكيد على أساس أن لي طلباً أريد من يتوسط لي من أجله."

تابعت يوجينيا:" إذا ذكرني، على نحو إيجابي، فحذّره من هذا الوهم الخطير. أنا أكره الإلحاح في الطلب. أريد أن أقرر على راحتي، وعيناي مفتوحتان."

قال فيليكس: " سأكون متحفظاً، ولكن ليس معك. سأقول لك: اقبليه على الفور."

كانت قد تقدمت نحو الباب المفتوح، ووقفت تنظر إليه. قالت: " سأذهب لأرتدي ملابسي، وأفكر بالموضوع." وقد سمعها وهي تتحرك ببطء نحو غرفتها.

في أواخر فترة العصر توقف المطر، ثم كان غروب للشمس بعد ذلك من النوع الهائل المتقد والمختلج والمشرشر. جلس فيليكس في مرسمه وراح يرسم. ولكن حين خبا النور الذي كان مومضاً، رمى بفرشاته وخرج إلى شرفة الكوخ الصغيرة. وهنا راح يمشي جيئة وذهاباً لبعض الوقت وهو ينظر إلى التوهج الرائع للسماء الغربية ويقول كما سبق له وقال مرات كثيرة من قبل، إن هذا بلد غروب الشمس بكل تأكيد. كان هناك دائماً شيء ما في تلك الألوان النارية الداكنة الرائعة مما يذكي مخيلته. كان يجد دائماً صوراً ووعوداً في السماء الغربية. كان يفكر بأشياء جيدة كثيرة... التجوال حول العالم مع غرترود ونتويرث. بدا وكأنه يرى مغامراتهما الممكنة ضمن إفريز متوهج بين قضبان الغيوم. ثم ما قالته له يوجينيا للتو. تمنى كثيراً أن تنال المدام مونستر زواجاً مريحاً ومشرفاً. في الوقت الحاضر، مع توسع الغروب وتعمقه، أخذه الخيال لينتبه إلى لون رائع جداً. عاد إلى المرسم وأمسك

Twitter: @ketab_n

بلوح صغير وباليته وفراشيه، ووضع اللوح على حافة النافذة وبدأ يستخدم الألوان بحيوية كبيرة. وبينما كان منهمكاً على هذا النحو، شاهد السيد براند من بعيد وهو يهبط درج دارة السيد ونتويرث، وهو يحمل ممطرة كبيرة مطوية. سار بخطوة مكتئبة وتأملية، بينما كانت عيناه مثبتتين على الأرض. رفع فيليكس فرشاته للحظة وراح يراقبه. ثم وبدافع مفاجئ، وبينما راح السيد براند يقترب، تقدم فيليكس من بوابة الحديقة ولوّح له... وكانت الباليت ورزمة الفراشي تساهم في ذلك التلويح.

توقف السيد براند وأجفل. ثم بدا وكأنه قرر قبول دعوة فيليكس. خرج من بوابة دارة السيد ونتويرث وسار على امتداد الدرب. ثم دخل الحديقة الصغيرة للكوخ. كان فيليكس قد عاد لرسم غروب الشمس، ولكنه رحب بضيفه وهو ما يزال يرسم بسرعة.

قال بلهجة شديدة المودة:" لقد كنت أرغب بشدة في أن أكلمك حتى أني فكرت في زيارتك. على كل حال أنت لا تزورني إلا قليلاً. لقد جئت لتزور أختي، أعرف ذلك، ولكنك لا تأتي لزيارتي، أنا الفنان الشهير. الفنانون حساسون جداً، كما تعرف. وهم يلاحظون تلك الأمور. " ثم التفت فيليكس وابتسم والفرشاة في فمه. وقف السيد براند هناك بعظمة صريحة فارغة، وهو يشد أطراف ممطرته الكبيرة. سأل: " لم ينبغي عليّ أن أزروك؟ لا أعرف شيئاً عن الفن."

قال فيليكس: " سيبدو الأمر شديد الغرور على ما أفترض، لو كنت أقول إنها ستكون فرصة صغيرة جيدة بالنسبة إليك أن تتعلم شيئاً ما. قد تسألني لم عليك أن تتعلم، ولن يكون لدي جواب على ذلك. أفترض أن القس لا حاجة له بالفن، أليس كذلك؟"

Twitter: @ketab_n

قال السيد براند بتصميم: " لا حاجة به للمزاج الجيد يا سيدي."

قفز فيليكس وباليته على إبهامه وبحركة تنم عن أكثر الاستنكارات حيوية. " هذا لأنني أبقيك واقفاً هناك بينما أقوم باستخدام اللون الأحمر! أرجو أن تعذرني ألف مرة! أنت ترى كيف يجعل الفن المرء يتصرف على نحو رديء. وكم أنت محق في إهمالك للفن. وأنا لا أعني أن تبقى واقفاً. الشرفة كما ترى مزينة بمقاعد مصنوعة من القش، رغم أنه ينبغي عليّ بالفعل أن أحذرك من أن فيها مسامير في الأماكن الخطأ. كنت أراقب غروب الشمس ذاك للتو. لم يسبق لي أن شاهدت مثل هذا اللهيب من الألوان الحمراء المختلفة. يبدو وكأن "المدينة السماوية" تلتهب، أليس كذلك؟ ولو كان هذا الأمر صحيحاً، أفترض أنه سيكون من شأنكم أنتم اللاهوتيين أن تطفئوا هذه النار. تصورني– أنا الفنان الآثم– جالساً بهدوء لأرسمها!"

كان السيد براند ينظر إلى فيليكس دائماً على أنه يتصف ببعض الوقاحة، ولكن بدا له أنه في هذه المناسبة فإن وقاحته كانت عظيمة جداً بحيث أصبح تقديم تفسير خاص بها– أو حتى الاعتذار عنها– ضرورياً إلى حد طبيعي. كان فيليكس يتحلى في كل الأوقات بثقة كبيرة في تصرفاته وكانت هذه ببساطة أداة روحه العالية وإرادته الطيبة. ولكن في الوقت الحاضر، كانت لديه خطة خاصة، وكما كان سيعترف بأن الخطة كانت متهورة، فقد كان واعياً بأنه قد استدعى جميع فنون المحادثة لمساعدته. ولكنه كان بعيداً عن الرغبة في إزعاج زائره بحيث كان يتكلم بسرعة وهو يسأل نفسه ما هو الإطراء الشخصي الذي يستطيع قوله للقس الشاب بحيث يرضيه إلى أقصى حد ممكن. لو استطاع التفكير في ذلك لكان مستعداً أن ينطق به. سأله فجأة وهو يضع باليته جانباً: " هل كنت تحضّر إحدى مواعظك

Twitter: @ketab_n

الجميلة اليوم؟" لم يكن هذا ما كان فيليكس يفكر فيه، ولكنه كان نوعاً محتملاً من ملء الفراغ.

عبس السيد براند، بقدر ما يستطيع رجل يتحلى بحاجبين شديدي الشقرة والنعومة وتحتهما عينان شديدتا اللطف والهدوء أن يعبس، وقال: " كلا، لم أعظ أي موعظة اليوم. هل جلبتني إلى هنا لتطرح هذا السؤال؟"

لاحظ فيليكس أنه كان غاضباً، وأسف كثيراً لذلك، ولكنه لم يكن يخشى أن يكون الأمر في النهاية غير مرض للسيد براند. نظر إليه مبتسماً ثم وضع يده على ذراعه. " كلا، كلا، ليس من أجل ذلك. أردت أن أسألك أمراً ما، أردت أن أبلغك شيئاً ما. وأنا واثق أنه سيثير اهتمامك جداً. ولكن بما أنه شيء خصوصي، فالأفضل الدخول إلى مرسمي الصغير. لدي نافذة غربية، ونستطيع من هناك أن نتابع مراقبة الغروب. ثم أردف بالإيطالية: "هيا بنا!" ثم ربت بخفة على ذراع رفيقه.

سبقه إلى الدخول . ولحق به السيد براند بتصلب وهدوء. كان الشفق قد أصبح كثيفاً في المرسم الصغير، ولكن الجدار المقابل للنافذة الغربية كان مغطى بنور قرنفلي داكن. كانت هناك رسمات كثيرة ولوحات قماشية نصف منتهية معلقة في هذا النور المتورد، ولكن زوايا الغرفة كانت مبهمة ومغبرة. رجا فيليكس السيد براند أن يجلس. ثم نظر من حوله وصاح: "وحق جوبيتر! لكم تبدو جميلة!" ولكن السيد براند لم يجلس، بل ذهب واتكأ على النافذة وتساءل ما الذي كان فيليكس يريده منه. في الظل، في الأجزاء الأدكن من الجدار، شاهد وميض ثلاث أو أربع صور بدت رائعة ومدهشة. وبدت كأنها تمثل أجساماً عارية. وقف فيليكس هناك ورأسه مطأطئة وعيناه مثبتتان على زائره

Twitter: @ketab_n

وهو يبتسم بقوة ويداعب شاربه. أحس السيد براند بعدم الراحة. بدأ فيليكس يقول: " الأمر الذي أريد قوله شديد الدقة، ولكني كنت أفكر فيه لبعض الوقت."

قال السيد براند: " أرجو منك قوله بأسرع ما يمكن."

تابع فيليكس القول:" ذلك لأنك قس. لا أعتقد أن عليّ أن أغامر بقوله لرجل عادي."

صمت السيد براند لبرهة. " إن كانت تلك مسألة الاستسلام أمام الضعف أو الاستياء من الضرر، فأنا أخشى أني رجل عادي جداً."

صاح فيليكس: " يا صديقي العزيز، هذا ليس ضرراً. إنه منفعة... خدمة عظيمة! ستحبه كثيراً. إلا أنه أمر شديد الدقة!" ثم تابع ابتسامته القوية في النور وقال: " أنت تعرف أني مهتم جداً بابنتي خالي... شارلوت وغرترود ونتويرث. وهذا واضح جداً من سفري مسافة خمسة آلاف ميل لأراهما." لم يقل السيد براند شيئاً، وتابع فيليكس كلامه فقال:" حين دخلت إلى عالمهما كرجل غريب تماماً، تلقيت انطباعات جديدة وكثيرة، وكان لانطباعاتي عذوبة وحّدة عظيمتان. أنت تعرف ما أعنيه؟"

" لست واثقاً من ذلك. ولكني أريد منك أن تتابع الكلام."

قال مضيف السيد براند: "أعتقد أن انطباعاتي كان فيها دائماً شيء من النضارة، ولكن في هذه المناسبة كان أمراً طبيعياً على نحو خاص– وأنا القادم كما يقال من الخارج– أن أُصدم بأمور مرت دون أن تُلحظ من قبلكم. ثم ساعدتني شقيقتي، وهي ببساطة أكثر النساء قدرة على الملاحظة في العالم." .

قال السيد براند: " لست مندهشاً من أن شخصين ذكيين وجدا

Twitter: @ketab_n

ضمن دائرتنا الصغيرة مادة كافية للمراقبة. وأنا على ثقة من أني اكتشفتها بنفسي ولكن في وقت متأخر."

صاح فيليكس وهو يضحك: "آه، ولكني سأفاجئك بالمزيد بعد! فشقيقتي وأنا مولعان كلانا بابنة خالي شارلوت."

كرر السيد براند: "ابنة خالك شارلوت؟"

" لقد وقعنا في حبها منذ البداية."

همهم السيد براند:"أنتما وقعتما في حب شارلوت؟"

صاح فيليكس بالفرنسية "إنها سيدة! شخص فاتن جداً. وقد تولعت بها يوجينيا على نحو خاص." وقف السيد براند محدقاً، وتابع فيليكس: "العاطفة، كما تعرف، تفتح عيني المرء، وقد لاحظنا شيئاً ما. شارلوت ليست سعيدة! شارلوت مغرمة." ثم اقترب فيليكس أكثر ووضع يده مجدداً على ذراع رفيقه.

كان هناك شيء يقرب من الإقرار بالافتتان في الطريقة التي نظر فيها السيد براند إليه؛ ولكن القس الشاب احتفظ حتى الآن بما يكفي من رباطة الجأش ليتمكن من القول بالكثير من الوقار: " إنها ليست مغرمة بك."

أطلق فيليكس ضحكة خفيفة وأجاب بخفة مغامر بحري يشعر بالريح وهي تدفع شراعه: "آه، كلا. لو كانت مغرمة بي لعرفت ذلك! لست بالأعمى شأنك أنت."

" شأني أنا؟"

" يا سيدي العزيز أنت أعمى تماماً. وشارلوت المسكينة ميتة في حبك."

Twitter: @ketab_n

لم يقل السيد براند شيئاً لبرهة. تنفس ببعض الصعوبة. ثم سأل: " هل هذا ما أردت أن تقوله لي؟"

قال فيليكس: "لقد أردت أن أقوله لك طوال هذه الأسابيع الثلاثة. فهي قد أصبحت في حال أسوأ مؤخراً. لقد قلت لك إن الأمر أصبح في منتهى الدقة."

بدأ السيد براند يقول: " حسناً يا سيدي... حسناً يا سيدي..."

تابع فيليكس: " من المؤكد أنك لم تكن تعرف ذلك. ولكن ألا ترى– أني ما أن ذكرت الأمر لك– كيف تم تفسير كل شيء؟ " لم يجب السيد براند. نظر باحثاً عن كرسي ثم جلس بهدوء. استطاع فيليكس أن يرى أن وجهه كان يتورد. كان ينظر إلى مضيفه مباشرة، وها هو الآن يتفادى النظر إليه. كان التأثير الرئيسي لما سمعه نوعاً من إثارة تواضعه. قال فيليكس: " طبعاً لا اقترح أنا أي شيء. سيكون أمراً يتسم بالوقاحة لو أني نصحتك. ولكني أعتقد أنه لا شك في هذه الحقيقة."

نظر السيد براند بشدة إلى الأرض لبضع لحظات. كان يشعر بالحزن مع خليط من الأحاسيس. كان الشاب البريء لا يشك إطلاقاً باللهيب السري لشارلوت المسكينة. وقد منح هذا الأمر أملاً كبيراً لفيليكس. كان واثقاً من أن السيد براند سيشعر بالإطراء. ظنه فيليكس شديد الشفافية، وكان هو كذلك بالفعل. لم يكن قادراً على التحفيز ولا على عدم التحفيز. قال أخيراً دون أن يرفع بصره عن الأرض: " لا أعرف إلا بالكاد ما أصنع بهذا الأمر." وقد دهش فيليكس من حقيقة أنه لم يكن يبدي احتجاجاً ولا إنكاراً. من الواضح أن فيليكس قد أثار سلسلة من الذكريات... إشراقاً استعادياً. كان هذا يبدو لعيني السيد براند المندهشتين لهيباً جميلاً جداً. كان انفعاله الثاني إشباعاً لغروره.

Twitter: @ketab_n

قال فيليكس:" اشكرني لأني أخبرتك. إنه لأمر جيد أن تعرف."

قال السيد براند:" لست واثقاً من ذلك."

همهم فيليكس بخفة ورقة: "آه، لا تدعها تعاني الضنى!"

قال السيد براند وهو يرفع بصره: " أأنت تنصحني بالفعل إذن؟"

قال فيليكس وهو يبتسم: " بل أهنئك!". كان يظن في البداية أن زائره متفق معه ببساطة، ولكنه رأى أنه كان يتهكم بعض الشيء.

تابع القس الشاب كلامه: " هذا من مصلحتك. لقد تدخلت في أموري."

ظل فيليكس واقفاً وهو يبتسم. أضحت الغرفة الصغيرة أعتم، كما خبا الوهج القرمزي، ولكن السيد براند كان يستطيع رؤية التعبير اللامع لوجهه. قال فيليكس أخيراً: "لن أتظاهر بمعرفة ما تعنيه، ولكني لم أتدخل حقاً في أمورك. فيما توجب عليك خسارته –مع شخص آخر– فأنت لم تخسر شيئاً. وانظر إلى ما ربحتَه!"

أعلن السيد براند: "يبدو لي أنني الحكم الصحيح على كلا الجانبين." نهض وأمسك بحافة قبعته أمام فمه وحدق إلى فيليكس في العتمة.

قال فيليكس" "لقد خسرت وهماً!"

" ما هو الذي تدعوه وهماً؟"

تابع فيليكس: " الاعتقاد بأنك تعرف فعلاً... أنك قد سبق لك وعرفت... غرترود ونتويرث. ثق بهذا. لا أعرفها أنا بعد، ولكني لا أحمل أي أوهام. لا أدعي ذلك."

Twitter: @ketab_n

تابع السيد براند التحديق من فوق قبعته. قال بوقار: "كانت دائماً ذات طبيعة شفافة صافية."

"كانت دائماً ذات طبيعة نائمة. كانت تنتظر وسيلة اختبار. ولكنها بدأت الآن بالاستيقاظ."

قال السيد براند برجفة صغيرة في صوته: "لا تمدحها أمامي! إن كنت قد تفوقت عليّ فهذا ليس من كريم الخصال."

صاح فيليكس:" يا سيدي العزيز، أنا أذوب ! ولست أمدح ابنة خالي. أنا أحاول ببساطة أن أقدم تعريفاً علمياً لها. إنها لا تهتم بالأفكار التجريدية. والآن أعتقد عكس ما كنتَ تتوهمه: أي الأساس الذي كنتَ تبني عليه. إنها مشغولة جداً بالملموس. وأنا أهتم بالملموس أيضاً. ولكن غرترود أقوى مني. إنها تدوخني."

نظر السيد براند لبرهة إلى قمة قبعته. "إنها طبيعة مثيرة جداً للاهتمام."

قال فيليكس: " هذا صحيح. ولكنها تنفر... تنفر مثل حصان هارب. والآن، أحب شعور الحصان الهارب. ولو كنت سأقذف خارج العربة فلا يهمني هذا. ولكن لو قذف بك أنت، يا سيد براند"... وهنا توقف فيليكس عن الكلام للحظة ثم قال: " فإن شخصاً آخر سيعاني أيضاً من الحادث!"

" من الشخص الآخر؟"

"شارلوت ونتويرث؟"

نظر السيد براند إلى فيليكس لبرهة نظرة جانبية، ثم تجولت عيناه في أنحاء السقف. كان فيليكس واثقاً من أنه قد عانى سراً من رومانسية الوضع. همهم القس الشاب: " أعتقد أن هذا ليس من شأننا."

Twitter: @ketab_n

"ولا هو من شأني، ربما... ولكنه من شأنك بكل تأكيد."

تمهل السيد براند وهو ينظر إلى السقف. كان من الواضح وجود شيء يريد أن يقوله. ثم سأل فجأة: "ما الذي تعنيه بأن الآنسة غرترود قوية؟"

قال فيليكس بتأمل: "حسناً، أعني أنها تتحلى بقدر كبير من رباطة الجأش. هاهي تنتظر ... منذ سنوات. حتى لو بدا عليها– على الأرجح– أنها تعيش في الوقت الحاضر. كانت تعرف كيف تنتظر. كان لديها هدف. هذا ما أعنيه بأنها قوية."

" ما الذي تعنيه بهدفها؟"

"حسناً... الهدف هو أن ترى العالم!"

نظر السيد براند إلى ناقل الخبر الغريب هذا شزراً من جديد. ولكنه لم يقل شيئاً. وأخيراً، التفت بعيداً كأنه يريد الإذن بالرحيل. بدا مضطرباً على أي حال، فبدلاً عن أن يذهب إلى الباب انتقل إلى الزاوية المقابلة من الغرفة. وقف فيليكس وراح يراقبه لبرهة، وهو يتحسس طريقه في الغسق. ثم قاده إلى الباب بحركة لطيفة وأخوية تقريباً. سأل السيد براند: " هل هذا هو كل ما تريد أن تقوله؟"

"أجل، هذا هو، ولكنه سيتطلب الكثير من التفكير."

مضى فيليكس معه نحو بوابة الحديقة وراح يراقبه وهو يمشي ببطء مبتعداً في الشفق الآخذ بالاسوداد وبتيبس مسترخ راح يحاول أن يقوّمه. قال فيليكس في نفسه: :"إنه يشعر بالإهانة والاستثارة والحيرة والاضطراب. هذا مزيج خطير."

Twitter: @ketab_n

-١١-

منذ تلك الزيارة التي قامت بها البارونة مونستر للسيدة أكتون والتي وصفناها في مرحلة سابقة من هذه الحكاية، فإن الاتصالات بين هاتين السيدتين لم تكن كثيرة ولا حميمة. لم يحدث أن السيدة أكتون قصرت في تقدير مفاتن المدام مونستر؛ بل العكس هو الصحيح، حيث أن إدراكها لرشاقة سلوك زائرتها الألمعية وحديثها كان شديد الحدة. كانت السيدة أكتون، كما يقال في بوسطن، شديدة "الانفعال" وانطباعاتها أكثر مما تستطيع تحمله. كان وضعها الصحي يتطلب كبت الانفعال، ولهذا ، وبينما كانت لا تستقبل في كنبتها الأبدية سوى القليل من الزوار، حتى من النوع المحلي الهادئ المتزن، إلا أنها اضطرت إلى التقليل من عدد مقابلاتها مع سيدة كان زيها وسلوكها يستدعيان لمخيلتها- كانت مخيلة السيدة أكتون أعجوبة- كل ما كانت قد قرأته عن الفترات التاريخية شديدة الإثارة. ولكنها كانت قد أرسلت إلى البارونة كثيراً من الرسائل بأسلوب عتيق الطراز، وكثيراً من باقات الزهر الصغيرة من حديقتها، وسلالاً من الفاكهة الجميلة. كان فيليكس يلتهم الفواكه والبارونة ترتب الزهور وتعيد السلال مع رسائل. في اليوم الذي تبع ذلك الأحد الماطر الذي ذكرناه سابقاً، قررت يوجينيا أن تذهب وتقوم بـ "زيارة وداع" للسيدة العاجزة الخيّرة. هكذا قيّمت مشروعها بينها وبين نفسها. ويمكن أن نلاحظ أنها لم تتلق تلك الزيارة المتوقعة من روبرت أكتون مساء الأحد ولا صباح الاثنين. فيما يخص مشاعره، فقد كان من الواضح أنه كان

Twitter: @ketab_n

"يبتعد"، وكانت البارونة من جانبها تبتعد عن خالها، حيث كان فيليكس، منذ عدة أيام، يلعب دور الحامل غير المحرج للاعتذارات والتأسفات لغيابها، ولكن رغم ذلك فإن الحظ هزم القدر. لقد احترم السيد ونتويرث وابنتاه عزلة يوجينيا. لقد بدت لهم فترات معينة من العزلة الغامضة جزءاً طبيعياً من الحركة الرشيقة الإيقاعية لحياة شديدة الروعة. كانت غرترود تتعامل مع مثل هذه الفترات باحترام، وتتساءل ما الذي كانت المدام مونستر تفعله في مثل هذه الأوقات، ولكنها لن تسمح لنفسها أن تتساءل بكل هذا الفضول.

كان المطر الذي هطل طويلاً قد أنعش الهواء، وكانت الشمس الساطعة لاثنتي عشرة ساعة قد جففت الطرق. وهكذا اقترحت البارونة في عصر ذلك اليوم السير إلى منزل السيدة أكتون دون أن تعرض نفسها لأي متاعب. وقد مشت بخطوتها المتموجة الفاتنة على امتداد الهامش المعشب النظيف من الطريق، تحت أغصان البساتين التي مالت من ثقلها، عبر هدوء الزمن والمكان واليناعة الغنية للصيف، راحت تشعر بنوع من الحزن المترف. كانت البارونة تعاني من ضعف محبب يتمثل في تعلقها بالأمكنة... حتى حين تكون البداية مشوبة بالقليل من الكره. والآن وقد أصبح السفر متوقعاً، فقد راحت تشعر شعوراً رقيقاً تجاه هذا الركن المغطى بغابات كثيرة من عالم الغرب، حيث غروب الشمس جميل جداً وطموحات المرء شديدة النقاء. كانت السيدة أكتون قادرة على استقبالها، ولكنها حين دخلت إلى الغرفة الواسعة والمعطرة حديثاً لهذه السيدة ، لاحظت البارونة أنها كانت تبدو مريضة جداً. كان لون بشرتها أبيض وشفافاً إلى حد عجيب، وفي كنبتها المغطاة بقماش مورد، لم تبذل أي محاولة للتحرك. ولكن وجنتيها احمرتا قليلاً، شأن فتاة صغيرة، كما فكرت البارونة،

Twitter: @ketab_n

وقد ركزت عينيها الصافيتين المبتسمتين على عيني زائرتها. كان صوتها خفيضاً ورتيباً، كصوت لم يسبق له أن عبّر عن أي عواطف بشرية.

قالت يوجينيا: " جئت لأودعك. سرعان ما سأرحل."

"متى سترحلين؟"

"قريباً جداً.. في أي يوم."

قالت السيدة أكتون:" أنا آسفة جداً. كنت آمل أن تبقي على الدوام."

سألت يوجينيا: "على الدوام؟"

قالت السيدة أكتون بنبرتها اللطيفة الواهية: "حسناً، أعني لفترة طويلة. أخبروني أنك مرتاحة جداً، ولديك منزل صغير جميل."

حدقت يوجينيا... أي أنها ابتسمت . فكرت في كوخها الفقير وتساءلت إن كانت مضيفتها تمازحها. قالت: " أجل، منزلي رائع ولكن لا يمكن مقارنته بمنزلك."

أضافت السيدة أكتون: "وابني مولع بزيارتك. أخشى أن ابني سيفتقدك."

قالت يوجينيا بضحكة صغيرة: " آه يا سيدتي العزيزة. لا أستطيع البقاء في أمريكا من أجل ابنك!"

" ألا تحبين أمريكا؟"

نظرت البارونة إلى مقدم ثوبها. "لو أحببتها... فهذا لا يعني البقاء من أجل ابنك!"

Twitter: @ketab_n

حدقت السيدة أكتون بعينيها الرقيقتين الجديتين وكأنها لم تفهم تماماً. وجدت البارونة أخيراً شيئاً مثيراً للحنق في التحديقة اللطيفة العذبة لمضيفتها. ولو لم يكن المرء مضطراً إلى أن يكون رحيماً مع المرضى العاجزين الكبار لكانت ستصفها ذهنياً بالمغفلة. قالت السيدة أكتون: "أخشى إذن أني لن أراك مرة أخرى. تعرفين أني أحتضر."

همهمت يوجينيا: "آه، يا سيدتي العزيزة."

"أريد أن أترك ولديّ مرحين وسعيدين. ربما ستتزوج ابنتي من قريبها."

قالت البارونة بلهجة غامضة:" يا لهما من شابين مثيرين للاهتمام." لم تكن تفكر في كليفورد ونتويرث.

استأنفت السيدة أكتون كلامها فقالت: " أشعر بالهدوء فيما يخص نهايتي. ستأتي بسهولة كبيرة، وهذا أكيد." ثم توقفت وراحت تحدق بلطف إلى يوجينيا.

كانت البارونة تكره التذكير بالموت. ولكنها حتى في حضوره الوشيك فيما يتعلق بالسيدة اكتون، فقد حافظت على سلوكها الجيد. قالت: "آه يا سيدتي، أنت مريضة فاتنة جداً."

ولكن رقة هذا الجواب لم تصل إلى مضيفتها وكان ذلك واضحاً إذ أنها تابعت الكلام بصوتها الخفيض المعتدل: "أريد أن أترك ولديّ سعيدين ومرتاحين. تبدين لي سعيدة جداً هنا، كما أنت الآن. لذلك أتمنى لو أنك تبقين هنا. سيكون الأمر مرضياً جداً لروبرت."

تساءلت يوجينيا ما الذي عنته بأن الأمر سيكون مرضياً لروبرت. ولكنها شعرت أنها لن تعرف أبداً ما الذي يمكن أن تعنيه مثل هذه المرأة بمثل ذلك الكلام. نهضت، وكانت تخشى أن السيدة أكتون

Twitter: @ketab_n

ستقول لها مجدداً إنها كانت تحتضر. قالت: " وداعاً يا سيدتي العزيزة. عليّ أن أتذكر أن صحتك ثمينة جداً."

أمسكت السيدة أكتون بيدها واستبقتها لبرهة. قالت: " حسناً، لقد كنتِ سعيدة هنا، أليس كذلك؟ وأنت تحبيننا، أليس كذلك؟ أتمنى لو أنك تبقين في منزلك الصغير الجميل."

كانت قد قالت ليوجينيا إن وصيفتها ستكون في الردهة لتصحبها إلى الطابق السفلي، ولكن منبسط الدرج أمام بابها كان فارغاً، فوقفت يوجينيا هناك وهي تتطلع فيما حولها. أحست بالاستياء، فالسيدة المحتضرة لم تكن تتمتع بـ "اليد الخيرة". هبطت ببطء إلى الطابق السفلي وهي ما تزال تتطلع فيما حولها. كان للدرج العريض انعطافة كبيرة، وفي الزاوية كانت نافذة عالية تطل على جهة الغرب ولها منصة عميقة مغطاة بصف من النباتات المزهرة في أصص صينية زرقاء قديمة وغريبة . كان نور العصر الأصفر يدخل عبر الأزهار ويتراقص قليلاً على الكسوة الخشبية البيضاء للجدران. توقفت يوجينيا لبرهة، فقد كان المنزل هادئاً تماماً، باستثناء دقات ساعة جدارية كبيرة في مكان ما. كانت الردهة السفلية تمتد نحو أسفل الدرج وقد غطي نصفها بسجادة شرقية قديمة. تمهلت يوجينيا قليلاً وهي تلاحظ أموراً كثيرة. قالت في نفسها: "لكم هذا جميل!"كان المنزل يوحي لها بأنه يشير إلى أساس وجود كبير متين خال من العيوب. ثم فكرت في أن السيدة أكتون سرعان ما ستنسحب منه. وقد رافقتها هذه الفكرة بقية الوقت الذي استغرقها وهي تهبط الدرج إلى الطابق السفلي حيث توقفت مجدداً، وهي تقوم بالمزيد من الملاحظة. كانت الردهة واسعة جداً، وعلى كل جانب من جانبي الباب الأمامي كانت نافذة واسعة عميقة ترمي بظلال كل شيء على المنزل في الداخل. كانت هناك مقاعد ذات

Twitter: @ketab_n

ظهر عال على امتداد الجدار ومزهريات شرقية كبيرة على المناضد، وعلى كل جانب خزانة كبيرة ذات واجهة زجاجية تحوي الكثير من التحف الصغيرة التي تومض على نحو باهت. كانت البوابة مفتوحة باتجاه البهو المعتم والمكتبة وغرفة الطعام. بدت جميع هذه الغرف فارغة. مرت يوجينيا عبرها وتوقفت لبرهة على عتبة كل واحدة منها. همهمت مجدداً: "لكم هذا جميل!" كانت قد فكرت بمثل هذا المنزل بالضبط حين قررت المجيء إلى أمريكا. فتحت الباب الأمامي بنفسها – لم تكن خطوتها الخفيفة قد نبهت أياً من الخدم– وعلى العتبة نظرت نظرة أخيرة. في الخارج كانت ما تزال في مزاج التأمل الفضولي. لذلك وبدلاً عن أن تذهب مباشرة إلى البوابة، فقد تجولت باتجاه الحديقة التي كانت تمتد على يمين المنزل. لم تكن قد ابتعدت إلا ياردات قليلة على العشب حتى توقفت بسرعة. لاحظت شكل رجل يتمدد على الخضرة المستوية تحت شجرة. كان قد سمعها قادمة وبقي مستلقياً هناك على ظهره ويداه مشبكتان تحت رأسه، وهو يحدق إلى السماء. لذلك كان لدى البارونة مهلة كافية لتفكر بمسألة هويته. كان ذلك شخصاً فكرت فيه كثيراً مؤخراً. ولكن دافعها الأول على أي حال كان الالتفات بعيداً. كان آخر شيء تتمناه هو أن يكون لها هيئة من جاء ينشد رؤية روبرت أكتون. لم يترك لها الرجل المستلقي على العشب وقتاً للتفكير على أي حال. لم يكن قادراً على البقاء مطولاً في حالة تجاهل لوجود لطيف إلى ذلك الحد. قلب عينيه وحدق وصرخ مندهشاً ثم قفز ناهضاً. وقف برهة وهو ينظر إليها.

قال: "اعذريني على هذه الوضعية المضحكة."

" ليس لدي أي حس بما هو مضحك في هذه اللحظة. ولكن في حال كنت كذلك، فلا تتخيل أني جئت لأراك."

Twitter: @ketab_n

قال أكتون: " انتبهي كيف تضعين هذا الكلام في رأسي! فقد كنت أفكر فيك."

قالت البارونة:" مهنة الراحة المفرطة! أن تفكر بامرأة وأنت في تلك الوضعية لا يوحي بالإطراء."

أكد لها أكتون وهو يبتسم:" لم أقل إني كنت أفكر جيداً!"

نظرت إليه ثم التفتت بعيداً. قالت: "رغم أني لم أحضر لرؤيتك، ولكن تذكر على الأقل أني ما زلت ضمن بابك."

" أنا مسرور.. يشرفني ذلك! ألن تدخلي إلى المنزل؟"

" لقد خرجت منه للتو. كنت أزور أمك. كنت أودعها."

سألها أكتون: " تودعينها؟"

قالت البارونة: " أنا راحلة." ثم التفتت بعيداً من جديد وكأنها تريد أن توضح ما عنته.

سألها أكتون وهو يقف لبرهة في مكانه: " متى سترحلين؟" ولكن البارونة لم تجب، فلحق بها.

قالت وهي تسير نحو البوابة فوق العشب: "جئت من هذه الجهة لأرى حديقتك. ولكن عليّ أن أذهب."

مشى معها وهو يقول:" دعيني أماشيك على الأقل." وسارا دون أن يقولا أي شيء حتى وصلا البوابة. كانت مفتوحة ونظرا نحو الطريق الذي كان قد أصبح معتماً مع ظلال طويلة من ظلال الأشجار. ثم سألها أكتون: " هل عليك الذهاب إلى البيت مباشرة؟"

ولكنها لم تجبه. قالت بعد برهة: " لَمَ لم تعد لزيارتي؟" لم يقل شيئاً. فمضت تقول: " لم لا تجيبني؟"

Twitter: @ketab_n

اعترف أكتون: "كنت أحاول أن أخترع جواباً."

"أليس لديك جواب مسبق؟"

قال: "ليس لدي جواب أقوله لك، ولكن دعيني أسير معك الآن."

"يمكنك أن تفعل ما تشاء."

تحركت ببطء على امتداد الطريق، وسار أكتون معها. قال لها الآن: "لو فعلت ما أحب لكنت قد أتيت لزيارتك مرات عديدة."

قالت يوجينيا: "هل ابتدعت هذا الكلام؟"

"كلا، بل هو طبيعي. لقد بقيت في البيت لأن..."

"آه، هاهو السبب وقد أتى إذا!"

"لأني كنت أريد أن أفكر فيك."

قالت البارونة: "لأنك أردت أن تستلقي أرضاً! لقد شاهدتك مستلقياً- تقريباً- في غرفة استقبالي."

توقف أكتون على الطريق، وبحركة بدت وكأنه يرجوها أن تتمهل قليلاً. توقفت هي أيضاً. نظر إليها لبرهة. فكر في أنها شديدة الفتنة. قال:" أنت تمزحين، ولكن إن كنت راحلة بالفعل فهذا أمر خطير جداً."

"لو بقيت"، وهنا أطلقت ضحكة صغيرة ثم تابعت تقول: " سيكون الأمر أشد خطراً!"

"متى سترحلين؟"

"بأسرع وقت ممكن."

Twitter: @ketab_n

"ولماذا؟"

" لماذا عليّ أن أبقى؟"

"لأننا جميعاً معجبون جداً بك."

"ليس هذا سبباً. أنا أيضاً محط الإعجاب في أوروبا." ثم تابعت السير باتجاه بيتها مجدداً.

سأل أكتون: " ما الذي أستطيع فعله لأجعلك تبقين؟" كان يريد أن يستبقيها، وكان قد فكر فيها لمدة أسبوع حقاً. كان واقعاً في حبها الآن. كان مدركاً لذلك، أو كان يفكر بأنه كذلك. وكان السؤال الوحيد في ذهنه هو إن كان يستطيع الوثوق بها.

كررت السؤال: "ما الذي تستطيع أن تقوله لتستبقيني هنا؟ بما أني أرغب جداً في الرحيل فليس من مصلحتي أن أقول لك. وعلاوة على ذلك، لا أستطيع أن أتخيل."

سار معها في صمت. كان أكثر تأثراً بما قالته له مما بدا عليه. منذ تلك الأمسية حين عاد من نيوبورت أصبحت لصورتها سلطة رهيبة ترهقه. وما حكاه له كليفورد ونتويرث كان قد أثر فيه أيضاً ولكن بمعنى مضاد. ولكن ذلك لم يحرره من القلق من سحر ليس لذكائه صبر عليه. راح يهمهم في نفسه: "إنها ليست صادقة، ليست صادقة." هذا ما كان يقوله لسماء الصيف قبل عشر دقائق. ولسوء الحظ، لم يكن قادراً على أن يقولها بشكل نهائي ومحدد. والآن وهو قريب منها بدا له أن ليس للأمر سوى أهمية ضئيلة ويا للعجب. قال في نفسه: " إنها امرأة مستعدة للكذب". وبينما راح يسير ذكّر نفسه بهذه الملاحظة. ولكن ذلك لم ينجح في إخافته كما حدث من قبل. وقد تمنى تقريباً أن يستطيع جعلها تكذب ثم يدينها بذلك، حتى يرى كيف سيكون رأيه

Twitter: @ketab_n

في ذلك. ظل يفكر بهذا وهو يسير إلى جانبها، بينما راحت هي تتقدم بوقارها الرشيق الجميل. كان قد جلس معها من قبل، كما ركب معها في العربة، ولكن لم يسبق له أن مشى معها.

قال وهو يلاحظها جانبياً: " بحق جوبيتر، لكم هي كما يجب! " وحين وصلا إلى الكوخ في البستان مرت عبر البوابة دون أن تطلب منه أن يلحق بها. ولكنها التفتت، وهو واقف هناك، لتتمنى له ليلة سعيدة.

قال: " طرحت عليك سؤالاً في تلك الليلة ولكنك لم تجيبي عليه. هل أرسلت الوثيقة التي تحررك."

ترددت للحظة واحدة، بشكل طبيعي جداً، ثم قالت ببساطة: "نعم." التفت مبتعداً وتساءل إن كانت تلك هي الكذبة التي كان يريدها. ولكنه شاهدها مجدداً في ذلك المساء، فقد عادت البارونة للظهور في دارة خالها. وعلى أي حال، فهو لم يبادلها سوى القليل من الكلام، فقد وصل رجلان من بوسطن في عربة لزيارة السيد ونتويرث وابنتيه، وكانت السيدة مونستر موضوعاً لاهتمام استحواذي من قبل كلا الزائرين. لم يقل لها أي منهما أي كلمة، بل جلس وراح يراقب بجدية شديدة وهو ينحني نحو الأمام بوقار، وقد شنّف إحدى أذنيه (الكبيرتين جداً) وكأنه أصم، كلما تلفظت بملاحظة ما. من الواضح أنه كان متأثراً بفكرة نكساتها وحظها العاثر. لم يبتسم قط. أما رفيقه فتحلى بأسلوب أرشق. فقد جلس أقرب ما يكون إلى المدام مونستر وحاول أن يغريها بالكلام بحرية وكان يقترح كل بضع لحظات موضوعاً جديداً للحوار. كانت يوجينيا أقل استجابة حيوية من المعتاد، و لم تتكلم حسب ما اشتهرت به وما توقعه محاورها بشأن الفضائل النسبية للمؤسسات الأوروبية والأمريكية. ولكنها كانت

Twitter: @ketab_n

بعيدة عن منال روبرت أكتون الذي تجول في أنحاء الشرفة ويداه في جيبيه، وهو يتسمع منتظراً صرير عجلات العربة من بوسطن والتي يجب أن تقترب من الباب الجانبي. ولكن عبثاً. وأخيراً فقد صبره. اقتربت شقيقته منه ورجته أن يصحبها إلى البيت، فمضى معها. لاحظته يوجينيا وهو يغادر الدارة مع ليزي. وفي مزاجها الحالي بدت الواقعة مساهمة في قناعتها المحنقة بأنه يتميز بصفات ثمينة عديدة. فكرت: "حتى تلك الفتاة الصغيرة غير المهذبة تستطيع أن تجعله يفعل ما تريده."

كانت تجلس في واحدة من النوافذ الطويلة التي تنفتح على الشرفة، ولكن سرعان ما نهضت فجأة بعدما غادر أكتون، تماماً حين كان الرجل الثرثار من بوسطن يسألها عن رأيها في "الطابع الأخلاقي" لتلك المدينة. على الشرفة قابلت كليفورد ونتويرث وهو قادم من الجانب الآخر من الدارة. أوقفته وقالت له إنها ترغب في أن تكلمه.

سألته: " لم لم تصحب قريبتك إلى منزلها؟"

حدق كليفورد وقال:" لماذا، وقد اصطحبها روبرت إلى هناك."

"بالضبط. ولكنك لا تترك هذا الأمر له في العادة."

قال كليفورد: " أوه، أريد أن أكون مع هذين الرجلين حين يرحلان. إنهما لا يعرفان القيادة."

"إذن لم تتشاجر مع ابنة خالتك؟"

فكر كليفورد لبرهة، ثم قال ببساطة تتصف بصفة محيرة بشكل فريد: " أوه كلا. لقد تصالحنا!"

نظرت إليه لبضع لحظات ، ولكن كليفورد كان قد بدأ يخشى

Twitter: @ketab_n

نظرات البارونة، وحاول الآن أن يبتعد عن مدى نظراتها. سألته: " لمَ لم تعد لزيارتي قط؟ هل أغضبتك؟"

قال كليفورد ضاحكاً: "أغضبتني؟ حسناً، لا أعتقد ذلك!"

" لم توقفت عن زيارتي إذاً؟"

"حسناً، لأني أخشى أن أُحبس في تلك الغرفة الخلفية."

ظلت يوجينيا تنظر إليه. "أعتقد أن عليّ التفكير في أنك تحب ذلك."

صاح كليفورد: "أحبه!؟"

"كنت سأفعله لو كنت شاباً يزور امرأة فاتنة."

"ليست المرأة الفاتنة ذات فائدة كبيرة لي حين أكون محبوساً في تلك الغرفة الخلفية!"

قالت المدام مونستر " أعتقد أني لست ذات فائدة كبيرة لك في أي مكان! ومع ذلك فأنت تعرف ما عرضت أن أكونه."

قال كليفورد كجواب: " هاهي العربة قد أتت."

" لا تهتم بالعربة. هل تعرف أني راحلة؟

"أتقصدين الآن؟"

" أعني خلال أيام قليلة. سأغادر هذا المكان."

" هل ستعودين إلى أوروبا؟"

"إلى أوروبا حيث ستأتي لزيارتي."

قال كليفورد: "أجل، سأذهب إلى هناك."

Twitter: @ketab_n

صرحت يوجينيا: " ولكن قبل ذلك، عليك أن تأتي وتزورني هنا."

أجاب قريبها الشاب البسيط: "حسناً، سأبقى بعيداً عن الغرفة الخلفية!"

صمتت البارونة لبرهة. "أجل، عليك أن تأتي صراحة ... وبجرأة. سيكون هذا أفضل بكثير. أرى ذلك الآن."

قال كليفورد: " أرى ذلك!" ثم قال بعد برهة: " ما حكاية تلك العربة؟" كانت أذنه المتمرسة قد كشفت على ما يبدو صريراً غير طبيعي في عجلات العربة الخفيفة التي جيء بها إلى الرواق ذي الأعمدة، وهرع ليتفحص ذلك الأمر غير السوي.

سارت البارونة إلى بيتها، وحيدة، في نور النجوم، وهي تطرح سؤالاً على نفسها. أهي لم تكسب شيئاً... أهي لم تكسب شيئاً؟

كان لغرترود ونتويرث مكان صامت في الدائرة الصغيرة المتجمعة من حول الرجلين القادمين من بوسطن. لم تكن مهتمة بالزائرين. كانت تراقب المدام مونستر كما كان دأبها دائماً. كانت تعرف أن يوجينيا لم تكن مهتمة أيضاً، وأنها كانت تشعر بالسأم. وكانت غرترود منهمكة في دراسة مسألة كيف أن يوجينيا، رغم عدم اهتمامها وقلة انتباهها، استطاعت أن تتحلى بذلك الأسلوب الفاتن. كان ذلك هو الأسلوب التي تمنت غرترود أن تتحلى به، فقررت أن تطوره، وتمنت– لتتحلى بالفتنة– أن تشعر غالباً بالسأم في المستقبل. وبينما كانت منهمكة في تلك البحوث، كان فيليكس يَنغ يبحث عن شارلوت التي كان يريد أن يسر لها بشيء ما. كان لديه الآن منذ بعض الوقت ما يسره لشارلوت، وفي هذا المساء كان حسه بملاءمة القيام بحوار خاص معها قد وصل إلى نقطة الدافع: لقد تحول إلى رغبة حادة وممتعة. تجول عبر

Twitter: @ketab_n

الغرف الفارغة في الطابق الأرضي من الدارة، ووجدها أخيراً في غرفة صغيرة سميت لأسباب غير واضحة بشكل مباشر بـ "مكتب السيد ونتويرث": غرفة شديدة النظافة وخالية من الغبار مع مجموعة كبيرة من كتب القانون المغلفة بجلد الخروف الداكن.بمرور الزمن مصفوفة على أحد الجدران. وكانت هناك خارطة كبيرة للولايات المتحدة على الجدار الآخر محاطة من كلا جانبيها بلوحة حفر فولاذية لواحدة من "مادونات" رافائيل. وعلى الجدار الثالث عدة أوان زجاجية تحوي عينات من الفراشات والخنافس. كانت شارلوت جالسة قرب مصباح وهي تطرز خفاً. لم يسأل فيليكس لمن كان ذلك الخف، فقد لاحظ أنه كبير جداً.

حرك كرسياً نحوها وجلس وهو يبتسم كعادته، ولكنه لم يتكلم أولاً. راقبته وقد رفعت إبرتها وبعينيها بنظرة خجلة مستثارة معينة كانت تبدو في عينيها كلما اقترب منها. كان هناك شيء ما في سلوك فيليكس يسرع في حيائها وخجلها. لو مُنحت الخيار المطلق لما كانت ستفضل قط أن تكون وحيدة في صحبته. وفي الواقع، ورغم أنها كانت تراه شخصاً شديد الذكاء والتميز وحسن النية، إلا أنها كانت تمارس كثيراً من السلوك الهياب أكثر مما كان هو يتوقعه لتجنب حصول حوار حميم بينها وبينه. لم تكن شارلوت المسكينة قادرة على الاهتمام بالمسألة التي ما كانت ستبدو ظالمة لنفسها ولقريبها الأجنبي. كانت تستطيع فحسب أن تقول – أو بالأحرى، ما كانت ستقولها قط – إنها لا تحب كثيراً عشرة الرجال بكثرة وفي وقت واحد. لم تكن مطمئنة، وفقاً لذلك، حين بدأ وهو يشدد على كلماته بنوع من التألق المعجب. "يا ابنة خالي العزيزة، أنا مفتون لأني وجدتك وحدك."

قالت شارلوت:" أنا وحدي في أغلب الأحيان. " ثم أضافت بسرعة: "لا أعني أني وحيدة!"

Twitter: @ketab_n

قال فيليكس: " المرأة الذكية شأنك لا تكون وحيدة قط. لديك صحبة عملك الجميل." ثم نظر إلى الخف كبير الحجم.

صرحت شارلوت ببساطة: " أحب العمل."

قال رفيقها: "وأنا كذلك! وأحب أن أتكاسل أيضا. ولكني لم آتي باحثاً عنك لأتكاسل. أريد أن أقول لك شيئاً شديد الخصوصية."

همهمت شارلوت: " حسناً، بالطبع لا بد أنك..."

قال فيليكس: " يا ابنة خالي العزيزة، ليس ما أريد قوله أمر لا ينبغي لسيدة شابة أن تستمع إليه. على الأقل أفترض أنه ليس كذلك. ولكن لنر . ستحكمين بنفسك. أنا مغرم إلى حد رهيب."

قالت الآنسة ونتويرث بجدية: "حسناً يا فيليكس"، ولكن بدت جديتها وكأنها تحدّ من تطور جملتها.

"أنا مغرم بشقيقتك، ولكني مغرم يا شارلوت... مغرم!" هكذا واصل الشاب كلامه. كانت شارلوت قد وضعت عملها في حضنها ويداها قد أطبقتا عليه بشدة. كانت تحدق إلى السجادة. قال فيليكس: "باختصار، أنا مغرم يا سيدتي العزيزة. والآن أريد منك العون."

سألت شارلوت وهي ترتجف: " أساعدك؟"

" لا أعني مع غرترود، فهي وأنا متفاهمان تماماً. وآه، لكم هي قادرة على فهم الناس! أعني مع أبيك ومع العالم عموماً، بما في ذلك السيد براند."

قالت شارلوت ببطء ولكن ببساطة جعلت من الواضح لفيليكس أن القس الشاب لم يكرر على مسمع الآنسة ونتويرث الحديث التي جرى مؤخراً بينهما: " ياله من مسكين السيد براند!"

Twitter: @ketab_n

"آه، هيا لا تقولي السيد براند (المسكين)! لا أشفق على السيد براند إطلاقاً. ولكني أشفق على أبيك قليلاً، ولا أريد أن أزعجه. لذلك، كما ترين، أريد منك أن تتوسلي لأجلي. أنت لا تعتقدين أني شديد الرثاثة، أليس كذلك؟"

" شديد الرثاثة؟" هكذا صاحت شارلوت برقة، فقد كان فيليكس يمثل بالنسبة إليها أكثر ما تكون عليه صفات البشر من صقل وتلوّن.

استدرك فيليكس ضاحكاً: "لا أعني في مظهري"، فقد كانت شارلوت تنظر إلى حذائه. "أعني في سلوكي. لا تعتقدين أن في هذا إساءة لروح الضيافة."

سألت شارلوت: " أتعني... اهتمامك بغرترود؟"

"أن أكون قد عبرت بصدق عن نفسي. لأني عبرت فعلاً عن نفسي يا شارلوت. عليّ أن أقول لك الحقيقة كلها: يجب علي ذلك! بالطبع أريد أن أتزوجها... وهنا تكمن الصعوبة. لقد نأيت بنفسي أطول مدة استطعتها. ولكنها شخص فاتن إلى حد هائل! إنها مخلوقة غريبة. لا أعتقد أنك تعرفينها." تناولت شارلوت التطريز مرة أخرى ومن جديد أبعدته عنها. استأنف فيليكس الكلام: "أعرف أن أباك لديه وجهات نظر أسمى. وأعتقد أنك تشاطرينه إياها. كنت تريدين تزويجها من السيد براند."

قالت شارلوت بجدية شديدة: "أوه، كلا. لقد كان السيد براند معجباً بها دائماً. ولكن لم نكن نريد أي شيء من هذا النوع."

حدق فيليكس. "لا شك أنكما اقترحتما عليهما الزواج."

"أجل، ولكننا لم نرغب في إجبارها على ذلك."

Twitter: @ketab_n

"في الوقت الملائم! هذا غير آمن إطلاقاً، كما تعرفين. في هذه الزيجات المدبّرة غالباً ما يكون للشيطان ثمن يتلقاه."

قالت شارلوت: " أوه يا فيليكس، لم نكن نريد (زواجاً مدبرا)."

" يسعدني سماع ذلك. لأنه في مثل هذه الحالات- حتى حين تكون المرأة مخلوقاً جيداً بكل ما في الكلمة من معنى- فلا تستطيع سوى أن تتطلع إلى تعويض. يأتي شخص فاتن وينتهي الأمر! جلست شارلوت وهي تحدق إلى الأرض، ثم أضاف فيليكس : "هيا تابعي العمل بالخف. أحب مشاهدتك وأنت تعملين."

رفعت شارلوت الكنفا الملون وبدأت ترسم خيوطاً زرقاء مبهمة في وردة مستديرة كبيرة. قالت: "إن كانت غرترود شديدة... شديدة الغرابة، فلماذا تريد الزواج منها؟"

" آه، هذا هو الأمر يا عزيزتي شارلوت! أحب النساء غريبات الأطوار. وقد أحببتهن على الدوام. اسألي يوجينيا! غرترود رائعة. وهي تتلفظ بأجمل الأشياء!"

نظرت شارلوت إليه، للمرة الأولى تقريباً، وكأن المعنى الذي تريده يتطلب أن يكون شديد الحدة. " لك تأثير عظيم عليها."

قال فيليكس: " نعم ولا! كان لي في البداية، على ما أعتقد، ولكن الوضع متعادل الآن بيننا والتأثير متبادل. إنها تؤثر بي بقوة... فهي قوية. لا أعتقد أنك تعرفينها. طبيعتها جميلة."

" أوه، أجل يا فيليكس. لطالما ظننت أن طبيعة غرترود جميلة."

صاح الشاب: " حسناً، إن كنت تعتقدين ذلك الآن، فانتظري وسترين! إنها وردة مغلقة. دعيني أقطفها من الشجرة الأم وسوف ترينها تتفتح. أنا واثق من أنك ستستمتعين بذلك."

Twitter: @ketab_n

همهمت شارلوت: "لا أفهمك"، لا أستطيع يا فيليكس."

"حسناً، تستطيعين فهم ما يلي: أني أرجوك أن تقولي عني كلاماً طيباً أمام أبيك. إنه يراني، كما أعتقد أنا بشكل طبيعي، أني شخص شديد الخفة، بوهيمي، وذو شخصية غير مخالفة للقواعد والأصول. قولي له إني لست كل هذا. ولو كنت كذلك، فقد نسيته. أنا مغرم بالمتعة... أجل، ولكن بالمتعة البريئة. الألم كله واحد، ولكن في المتعة، كما تعرفين، فإن هناك فروقاً هائلة. قولي له إن غرترود وردة مغلقة وأني رجل جدي!"

نهضت شارلوت من كرسيها، ولفت الكنفا ببطء . قالت: " نعرف أنك لطيف جداً مع الجميع، ولكنا آسفون جداً فيما يخص السيد براند."

"طبعاً أنتم كذلك... وأنت على وجه الخصوص! لأنك... " وهنا أضاف فيليكس بسرعة: " امرأة. ولكني لا أرثي لحاله. لا شك أنه يكفي أي رجل أن تبدي اهتمامك به."

قالت شارلوت ببساطة: " لا يكفي هذا للسيد براند." ثم وقفت هناك لبرهة، وكأنها تنتظر كما يملي الضمير ما سيقوله فيليكس.

قال فيليكس الآن: " السيد براند لم يعد شديد الحماسة للزواج كما كان سابقاً. إنه خائف من شقيقتك. لقد بدأ يظن أنها شريرة."

نظرت شارلوت إليه الآن بعينين جميلتين متوسلتين... عينين رأى فيهما الدموع وقد بدأت تنبثق. صاحت: "أوه فيليكس، فيليكس! ما الذي فعلته بها؟"

"أعتقد أنها كانت نائمة. وأنا أيقظتها!"

Twitter: @ketab_n

ولكن شارلوت كانت تبكي بالفعل على ما يبدو. خرجت مباشرة من الغرفة. أما فيليكس، الواقف هناك وهو يتأمل، فقد تمتع بقسوة جلية جعلته يشعر بالرضا من دموعها.

في وقت متأخر من تلك الليلة، اقتربت منه غرترود في الحديقة وهي في حالة من الصمت والجدية. كان ذلك موعداً من نوع خاص. بدت غرترود وكأنها تحب المواعيد. قطفت حفنة من زهور نبتة رقيب الشمس، ووضعتها في صدار ثوبها، ولكنها لم تقل شيئاً. سارا معاً على امتداد أحد الممرات، ونظر فيليكس إلى الدارة الكبيرة المربعة المضيافة التي كانت تبدو بشكل مبهم تحت نور النجوم، وقد أضحت جميع نوافذها معتمة.

قال: "ضميري يؤنبني قليلاً. ما كان عليّ أن أقابلك على هذا النحو حتى أنال موافقة أبيك."

نظرت غرترود إليه لبعض الوقت." لا أفهمك."

قال:" غالباً ما تقولين ذلك. نظراً لقلة فهمنا الواحد للآخر، فإنه لأمر عجيب أننا نتفاهم إلى هذا الحد!"

" لم أفعل أي شيء سوى أن نلتقي منذ أن وصلت إلى هنا... ولكننا نتقابل وحدنا. أول مرة شاهدتك فيها كنا وحدنا." ثم تابعت غرترود قائلة: " ما الفرق الآن؟ هل لأن الوقت ليل؟"

قال فيليكس وهو يخطو نحو الممر: " الفرق يا غرترود، الفرق هو أني أحبك أكثر... أكثر من قبل!" ووقفا هناك، يتحدثان، في السكون الدافئ وأمام الدارة المعتمة. " لقد تكلمت مع شارلوت... كنت أحاول أن أجعلها تمدحني أمام أبيك. لديها نوع من العناد السامي. هل هناك امرأة تصر إلى هذا الحد على قطع رأسها بالذات؟"

Twitter: @ketab_n

قالت غرترود: " أنت شديد الاحتراس، كثير الدبلوماسية."

صاح الشاب: " حسناً، لم أحضر إلى هنا لأسبب التعاسة لأي شخص."

نظرت غرترود فيما حولها لفترة قصيرة في العتمة العطرة. قالت: "سأفعل أي شيء تريده."

سألها فيليكس وهو يبتسم: " مثلاً؟"

" سأرحل من هنا. سأفعل أي شيء يرضيك."

نظر فيليكس إليها بإعجاب رزين. قال: " أجل، سنرحل من هنا، ولكن سنصنع السلام أولاً."

نظرت غرترود من حولها مجدداً، ثم قالت بانفعال: " لماذا يحاولون أن يجعلوا الشخص يشعر بالذنب؟ لماذا يصعبون الأمر إلى هذا الحد؟ لماذا لا يفهمون؟"

قال فيليكس: " سأجعلهم يفهمون!" جذب يدها ووضعها تحت ذراعه، ثم راحا يتجولان في أرجاء الحديقة، وهما يتحادثان لمدة ساعة.

Twitter: @ketab_n

-٢١-

أعطى فيليكس لشارلوت المهلة الكافية لتتوسط له مع أبيها. ثم في اليوم الثالث، طلب مقابلة خاله. جرى ذلك في الصباح. كان السيد ونتويرث في مكتبه، ولدى دخوله إلى هناك وجد فيليكس أن شارلوت كانت في تلك اللحظة تحادث أباها. لقد كانت باستمرار إلى جواره منذ لقائها مع فيليكس! كانت قد صممت على أنه من واجبها أن تكرر حرفياً المناشدة العاطفية لابن عمتها. لقد كانت تلاحق السيد ونتويرث كظله وذلك لتجده في المتناول حين تكون قد استجمعت ما يكفي من الهدوء لتتكلم. فقد كانت شارلوت المسكينة تفتقر إلى الهدوء بشكل طبيعي في هذا المجال، خاصة حين كانت تفكر في بعض تلميحات فيليكس. لم يكن أمراً مبهجاً في أفضل حالاته الاستمرار في الضربات الصغيرة بالمطرقة على تابوت كان المرء قد أضجع فيه، في سبيل الدفن، الابن غير المعترف به لقلبه سيئ التصرف. و لم تكن المهمة أكثر إزعاجاً بسبب أن شبح الحلم المخنوق قد تم استدعاؤه من ظلال الكلمات الغريبة الجريئة لشاب أجنبي ثرثار. ما الذي عناه فيليكس بقوله إن السيد براند لم يكن شديد الحماسة للزواج؟ بالنسبة إليها لم يكن طالب ود شقيقتها المكتئب عن حق قد أبدى أي علامة على تردده. كانت شارلوت ترتعد بأجمعها حين كانت تسمح لنفسها أن تصدق لوهلة بين الحين والآخر، بينها وبين نفسها، أن السيد براند قد تردد. وبما أنه بدا وكأن ذلك يؤكد على كلمات فيليكس التي يريد منها أن تكررها أمام أبيها، فقد كانت تنتظر حتى تكون قد وطدت

Twitter: @ketab_n

نفسها على أن تكون شديدة الهدوء. ولكنها كانت قد بدأت الآن تقول للسيد ونتويرث إنها كانت شديدة القلق . كانت على وشك أن تطور هذه الفكرة لتعدد أسباب قلقها، حين دخل فيليكس.

جلس السيد ونتويرث هناك بساقين متصالبتين، وهو يرفع وجهه المتحفظ الصافي عن صحيفة "بوسطن أدفرتايزر". دخل فيليكس مبتسماً، وكأنما لديه شيء خاص يقوله، ونظر خاله إليه وكأنه يتوقع ويستنكر هذا الحدث. لقد أصبح فيليكس الذي يعبر عن نفسه بحيوية شخصية رائعة في نظر خاله الذي لم يصل بعد إلى وجهة نظر محددة ولا إلى الأسلوب الصحيح. فلأول مرة في حياته، كما قلت، يتهرب السيد ونتويرث من المسؤولية. كان يرغب بشكل جدي ألا يتم إلزامه بتحديد كيفية التعامل مع العروض الألطف لابن أخته. كان يعيش في خوف من أن يخدعه فيليكس فيوافق على استمالاته المريبة، وكان ضميره يملي عليه أن أفضل شكل من أشكال الحذر هو تجنب النقاش. كان يأمل أن تمر المناسبة السارة المتمثلة في زيارة ابن أخته دون أي زلل في موقفه الثابت.

نظر فيليكس إلى شارلوت نظرة تفاهم، ثم نظر إلى السيد ونتويرث، ومن ثم إلى شارلوت مجدداً. ثنى السيد ونتويرث حاجبيه الدقيقين باتجاه ابن أخته وربت على الصفحة الأولى من صحيفة "الأدفرتايزر". قال فيليكس ضاحكاً: " كان ينبغي عليّ إحضار باقة من الورد. في فرنسا يفعلون ذلك على الدوام."

قال السيد ونتويرث بوقار: " لسنا في فرنسا"، بينما نظرت شارلوت إليه بجدية.

"لا، لسنا في فرنسا لحسن الحظ، حيث كنت سأجد الأمر

Twitter: @ketab_n

هنـاك أصعب مـن هنا. عزيزتـي شارلوت هل أديـت لي تلك الخدمة المبهجـة؟" ثم انحنى فيليكس لها وكأن شخصـاً ما كان يعرّفه عليها. نظرت شارلوت إليه بعينـين خائفتين تقريباً، وظن السيد ونتويرث أن ذلـك قد يكون بداية نقاش. سأل كمن يريـد أن يغير الموضوع: "لماذا باقة الورد؟"

حدق فيليكس إليه وهو يبتسم. قال: "من أجل المناسبة ". ثم سحب كرسياً وجلس وقبعته في يده، بنوع من الوقار الخجول.

التفت الآن إلى شارلوت مجدداً. همهم: "يا شارلوت الطيبة، يا شارلوتي المثيرة للإعجاب. لم تغشيني... لم تقفي ضدي، أليس كذلك؟"

نهضت شارلوت وهي ترتجف بشدة، رغم أن ذلك لم يكن واضحاً. قالت: "عليك أن تخاطب والدي بنفسك. أعتقد أنك ماهر بما فيه الكفاية."

ولكن فيليكس الذي نهض راح يرجوها أن تبقى. صرح قائلاً: " أستطيع الكلام بشكل أفضل أمام جمهور!"

قال السيد ونتويرث: "آمل ألا يكون هناك ما مزعج!"

قال فيليكس: " إنه شيء مبهج لي!" ثم وضع قبعته جانباً وشبك يديه قليلاً بين ركبتيه. قال: " يا خالي العزيز، أرغب بجدية كبيرة أن أتزوج ابنتك غرترود." عادت شارلوت لتجلس مجدداً في كرسيها ، وجلس السيد ونتويرث محدقاً، بينما التمع نور في وجهه كان يمكن أن يكون قد انعكس من جبل جليدي. حدق وحدق، و لم يقل شيئاً. استند فيليكس إلى الخلف في جلسته ويداه متشابكتان. قال: " أنت لا تحب ذلك كما أعتقد!" تضرج وجهه بشدة ولاحظت شارلوت ذلك،

Twitter: @ketab_n

وهي تقول في نفسها إنها المرة الأولى التي تراه فيها وقد تضرج وجهه. بدأ وجهها بالتضرج هي أيضاً، وفكرت في أنه مغرم بشدة.

قال السيد ونتويرث أخيراً: " هذا مفاجئ جداً".

سأل فيليكس: "ألم تشك به قط يا خالي العزيز؟ حسناً، هذا يبرهن على مدى تكتمي. أجل، لقد فكرت في أنك قد لا تحب ذلك."

قال السيد ونتويرث: "هذا أمر في غاية الجدية يا فيليكس."

صاح فيليكس وهو يبتسم مجدداً: "أنت تعتقد أنه سوء استغلال للضيافة!"

كرر خاله ببطء شديد: " الضيافة؟ سوء استغلال؟"

قالت شارلوت بما يوحي به الضمير: "هذا ما قاله لي فيليكس."

تابع فيليكس: " بالطبع أنت تظن كذلك. لا تدافع عن نفسك! هذا سوء استغلال بشكل واضح. وأكثر ما أستطيع أن أدعيه أنه من النوع الممكن غفرانه. لقد وقعت ببساطة في الغرام وبقوة، ولا يستطيع المرء مغالبة ذلك. ورغم أنك والد غرترود فلا أعتقد أنك تعرف كم هي جذابة. يا خالي العزيز، إنها تضم جميع عناصر الفذاذة، بل ويمكنني أن أقول إنها امرأة فاتنة!"

قال السيد ونتويرث: "لقد كانت على الدوام موضعاً لاهتمامي الشديد. وقد رغبنا دوماً في سعادتها."

صرح فيليكس: "حسناً، هذا هو الأمر! سأجعلها سعيدة. وهي تعتقد ذلك أيضاً. ما رأيك، ألم تلاحظ ذلك؟"

قال السيد ونتويرث بلهجة بدت نوعيتها غير المعبرة وغير الانفعالية لفيليكس وكأنها تعكس معارضة عميقة: "لقد لاحظت أنها تغيرت كثيراً. وربما لأنها تتحول إلى ما تسميه بالمرأة الفاتنة."

Twitter: @ketab_n

قالت شارلوت برقة شديدة وهي تثبت عينيها على أبيها:"غرترود شديدة الجدية والصدق في أعماقها."

صاح فيليكس: " أشعر بالسرور حين تمتدحينها!"

قال السيد ونتويرث:" لها مزاج غريب جداً."

أجاب فيليكس: "آه، حتى هذا أعتبره مديحاً! أعرف أني لست الرجل الذي كانت تتطلع إليه. فليس لدي منصب ولا ثروة. لا أستطيع أن أمنح غرترود أي مكان في هذا العالم. مكان في العالم ... هذا ما يجب أن تناله هي. هذا هو ما سيقدمها إلى المجتمع."

قال السيد ونتويرث ملاحظاً: "مكان تقوم فيه بواجبها!"

صاح فيليكس بوجه متوهج: "آه، لكم تقوم بأداء واجبها بأسلوب ساحر! يا له من مفهوم رائع ذلك الذي لديها عن ذلك الواجب! ا ولكنها تنجح في ذلك بصدق يا خالي العزيز." نظر كل من السيد ونتويرث وشارلوت إليه وكأنهما يراقبان كلباً سلوقياً يرتد على عقبيه. تابع فيليكس كلامه فقال: " بالطبع وهي معي ستتواضع قليلاً. وأنا هو السبب! أعرف أنك تحبني... وقد برهنت على ذلك بكل تأكيد: ولكنك تعتقد أني عابث ومفلس ورث المظهر. لقد عشت حياة طليقة متحررة، وكنت شخصاً عابثاً وممثلاً. ولكن يمكنني أن أقول: أولاً أتخيل أنكم تبالغون. أنتم تمنحونني من الصفات ما لا أملكه. كنت بوهيمياً... أجل. ولكن في بوهيميا غالباً ما كنت أعتبر جنتلماناً. أتمنى لو استطعتم أن تروا بعض رفاقي القدماء... كانوا سيخبرونكم عني! لقد أحببت الحرية، ولكن ليس انتهاز الفرص! خطاياي كانت كلها هفوات، وغالباً ما احترمت أملاك جاري... وزوجة جاري. هل ترى ذلك يا خالي العزيز؟" كان يمكن للسيد ونتويرث أن يرى هذا، فقد كانت عيناه الزرقاوان الباردتان مثبتتين بإصرار. " ثم انتهى

Twitter: @ketab_n

كل شيء! انتهى! أستطيع تدبير أموري. أما الآن فإني أسير بتؤدة. أجد أني أستطيع أن أكسب قوت يومي... على نحو جيد جداً... بالتجول في أنحاء العالم ورسم بورتريهات سيئة. ليست هذه بالمهنة المجيدة، ولكنها محترمة تماماً. لن تنكر ذلك، أليس هذا صحيحاً؟ التجوال في أنحاء العالم، كما أقول؟ ليس عليّ إنكار ذلك، فأنا أخشى أني سأنشد دوماً أن أجد أشخاصاً مستعدين للموافقة على أن يجلسوا حتى أرسمهم. وحين أقول مستعدين للموافقة ، فأنا أعني أنهم يتقبلون الإطراء الرقيق ومستعدون للدفع الفوري. تصرح غرترود أنها راغبة في مشاركتي جولاتي ومساعدتي في جعل موديلاتي يتخذون الوضعية الملائمة للرسم. وهي تعتقد أن هذا سيكون أمراً فاتناً، وهذا يوصلني إلى النقطة الثالثة. غرترود تحبني. شجعها قليلاً وسوف تقول لك ذلك."

من الواضح أن لسان فيليكس كان يجري بأسرع من مخيلة مستمعيه. كانت فصاحته أشبه باهتزاز قارب في بحيرة عميقة ملساء وقد تسبب في موجات من الصمت. وقد بدا أنه ما يزال يناشد ويثرثر بابتسامته التواقة المضيئة وحاجبيه المرفوعين وفمه المعبّر بعد أن توقف عن الكلام. وبينما كانت نظرته تنتقل بسرعة بين الأب والابنة، فقد جلس ينتظر تأثير مناشدته. قال السيد ونتويرث بعد فترة من التكتم الشديد: "لا يتعلق الأمر بنقص مواردك المالية."

" إنه لأمر مبهج أن تقول ذلك! ولكن لا تقل فحسب إنني أعاني من نقص في ميزاتي الشخصية. لأن لدي شخصية متميزة... أؤكد لك أنني أتمتع بذلك، بشخصية صغيرة، ضئيلة، ولكنها محسوسة."

سألت شارلوت بلطف متناه: " أليس عليك أن تقول له يا أبي إن الأمر يتعلق بالسيد براند؟"

Twitter: @ketab_n

صرح السيد ونتويرث بوقار:" لا يتعلق بالسيد براند فحسب." ثم نظر إلى ركبته لفترة طويلة. قال: "من الصعب أن أشرح لك." من الواضح أنه كان يرغب في أن يكون عادلاً جداً. "الأمر مبني على أسس أخلاقية كما يقول السيد براند. إنها مسألة ما إذا كان هذا هو الأفضل لغرترود."

أجاب فيليكس بإلحاح وهو ينهض من شدة إلحاحه ويقف أمام السيد ونتويرث: "ما هو أفضل ... ما هو أفضل، يا خالي العزيز؟" كان خاله ما يزال ينظر إلى ركبته، ولكن حين تحرك فيليكس فقد نقل تحديقته إلى مقبض الباب الذي كان يواجهه. صاح فيليكس: "إنه في العادة أمر جيد جداً أن تتزوج الفتاة من الرجل الذي تحب!"

بينما كان يتكلم رأى السيد ونتويرث مقبض الباب وقد بدأ يتحرك. فتح الباب وبقي منفرجاً قليلاً حتى أنهى فيليكس كلامه البديهي المرح الذي ذكرناه للتو. ثم فتح الباب بالكامل وكانت غرترود تقف هناك. بدت مستثارة وكانت هناك شرارة في عينيها الحلوتين الكابيتين. دخلت ببطء إنما بتصميم وأغلقت الباب برقة وهي تنظر إلى الأشخاص الثلاثة الموجودين هناك. مضى فيليكس نحوها بشهامة مترعة بالحنان وهو يمد يده إليها، ووسعت لها شارلوت مكاناً على الكنبة التي كانت تجلس عليها. ولكن غرترود وضعت يديها خلف ظهرها و لم تحاول الجلوس.

قال فيليكس: " نحن نتحدث عنك."

أجابت:"أعرف ذلك. هذا هو السبب في مجيئي." ثم ثبتت عينيها على أبيها الذي بادلها النظر بثبات. كان في عينيه الزرقاوين الباردتين نوع من النور المتوسل المتفكر.

Twitter: @ketab_n

قال السيد ونتويرث:"من الأفضل أن تكوني حاضرة، فنحن نناقش مستقبلك."

سألت غرترود:"ولماذا تناقشونه؟ اتركوا الأمر لي."

صاح فيليكس: "أي ولي أنا أيضاً!"

قال الرجل العجوز:" سأتركه في آخر ما يتذرع به إلى حكمة أكبر بكثير من حكمتنا."

فرك فيليكس جبينه بلطف. قال لغرترود:"ولكن في انتظار آخر ما يتذرع به سيكون والدك قد فقد الثقة."

"أليس لديك ثقة بفيليكس؟" كانت غرترود عابسة. كان هناك شيء ما فيها لم يسبق لأبيها وشارلوت أن شاهداه من قبل. نهضت شارلوت واقتربت منها، وكأنها تريد أن تلفها بذراعها، ولكنها بدت فجأة وكأنما تخشى أن تلمسها.

لم يكن السيد ونتويرث خائفاً على أي حال. قال:"كان لديّ من الثقة بفيليكس أكثر ممّا بك."

" أجل، لم يسبق أن كان لك أي ثقة بي ... أبداً... ابداً! ولا أعرف السبب في ذلك."

همهمت شارلوت:"أوه يا أختي، يا أختي!"

صرح السيد ونتويرث:" لقد كنتِ دائماً في حاجة إلى النصح. مزاجك كان وما يزال صعباً."

" لم تسميه صعباً؟ ربما كان سهلاً لو سمحت له بذلك. لم تكن تتيح لي الفرصة لأكون على طبيعتي. لا أعرف ما كنت تريد مني أن أكون. والسيد براند كان أسوأ ما في الأمر."

Twitter: @ketab_n

وأخيراً أمسكت شارلوت بشقيقتها. وضعت كلتا يديها على ذراع غرترود. قالت بصوت يكاد يكون همسا:"إنه يهتم كثيراً بأمرك."

نظرت غرترود إليها بإمعان لبرهة ثم قبّلتها. قالت:"كلا، ليس الأمر كذلك."

قال السيد ونتويرث بلهجة غاضبة مخففة بالمبادئ السامية:"لم يسبق لي أن رأيتك شديدة الانفعال إلى هذا الحد."

قالت غرترود:"آسفة إن كنت قد أمعضتك."

" أنت تمعضينني، ولكني لا أظنك آسفة."

قالت شارلوت:"أجل يا أبي، إنها آسفة."

اعترض فيليكس قائلاً: "أود أن أذهب بقولي أكثر يا خالي العزيز، فأود أن أسأل ما إذا كانت قد أمعضتك حقاً؛ وكيف يمكنها ذلك؟"

لم يجب السيد ونتويرث على هذا السؤال مباشرة. ثم قال بعد لحظة: "هي لم تربح كما أملنا."

صاح فيليكس:" تربح؟ هكذا إذاً "

شحب وجه غرترود إلى حد كبير. وقفت هناك وهي تنظر إلى الأرض. قالت:"لقد قلت لفيليكس إني مستعدة للرحيل معه."

صاح الشاب:"آه، لقد قلتِ بعض الأشياء المثيرة للإعجاب!"

سألتها شارلوت:"ترحلين يا أختاه؟"

"بعيداً ... بعيداً.... إلى بلد ما غريب."

قال فيليكس وهو يبتسم لشارلوت:"هذا لإخافتك."

Twitter: @ketab_n

سألت غرترود وهي تلتفت لبرهة نحو فيليكس:"إلى ... ما الاسم الذي ذكرتَه؟ حسناً، إلى بوهيميا."

سأل السيد ونتويرث وهو ينهض: "هل تقترحين التخلي عن الترتيبات الأولية؟"

صاح فيليكس: " يا خالي العزيز أنت ممزح! يبدو لي أن هذه هي الترتيبات الأولية."

التفتت غرترود نحو أبيها. " لقد ربحتُ حقاً. كنت تريد مني أن استكمل تشكيل شخصيتي. حسناً، لقد تشكلت شخصيتي... حسب سني. أعرف ما أريد. لقد اخترت ما أريد. أنا مصممة على الزواج من هذا السيد."

قال فيليكس بلطف شديد: " الأجدر بك أن توافق يا سيدي."

أضاف صوت مختلف جداً:"أجل يا سيدي، الأجدر بك أن توافق."

أجفلت شارلوت، والتفت الآخرون باتجاه المكان الذي أتى منه الصوت. كان ذلك صوت السيد براند الذي دخل من النافذة الطويلة التي كانت مفتوحة على الشرفة. وقف وهو يربت على جبينه بمنديل جيبه. كان متورداً جداً وقد بدا على وجهه تعبير غريب.

كرر السيد براند وهو يتقدم:"أجل يا سيدي ، الأجدر بك أن توافق. أعرف ما تعنيه الآنسة غرترود."

همهم فيليكس وهو يربت بيده على ذراع القسيس الشاب: " يا صديقي العزيز!"

نظر السيد براند إليه، ثم إلى السيد ونتويرث، وأخيراً إلى

Twitter: @ketab_n

غرترود. ولكن عيني شارلوت الجادتين كانتا مثبتتين على وجهه. كانتا تطرحان سؤالاً هائلاً عليه. و لم يمكن ممكناً للجواب على هذا السؤال أن يأتي فوراً. ولكن بعض عناصره كانت هناك. كان أحد هذه العناصر أن السيد براند كان متورد الوجه جداً، وكان يرفع رأسه عالياً جداً، وكانت عيناه لامعتين ومستثارتين وكان يتحلى بهيئة الجرأة المحرجة... هيئة رجل اتخذ قراراً ولكنه يخشى أن يفشل في تنفيذه، ليس بسبب قلة وسائله الأخلاقية بل الشخصية. فكرت شارلوت في أنه بدا عظيماً جداً، وقد كان إحساس السيد براند بالعظمة أمراً لا يقبل الجدل. وكانت تلك في الواقع أعظم لحظة في حياته، وكان من الطبيعي أن تحوي مثل هذه الفرصة فرصاً للارتباك فيما يخص شاباً ضخم الجسم وبديناً وخجولاً.

قال السيد ونتويرث بتلويحة حادة من يده: "ادخل يا سيدي. من الملائم جداً حضورك."

استأنف السيد براند الكلام فقال:"أعرف ما تتحدثون عنه. لقد سمعت ما قاله ابن أختك."

صاح فيليكس وهو يربت على ذراعه:" وقد سمع ما قلته!"

قال السيد ونتويرث الذي كانت الحدة في صوته كما في إيماءاته:" لست واثقاً من أني أفهم."

كانت غرترود تنظر بقوة إلى خاطب ودها السابق . كانت في حيرة، شأنها شأن أختها. ولكن مخيلتها كانت تتحرك على نحو أسرع من مخيلة شارلوت. قالت لأبيها:"لقد طلب السيد براند أن تسمح لفيليكس بأن يأخذني بعيداً من هنا."

نظر إليها القسّ الشاب نظرة غريبة، ثم صرح بلهجة كأنما قصد منها الدعاية:" ليس لأني لا أريد أن أراك بعد الآن."

Twitter: @ketab_n

أجابت غرترود بلطف:" لا أعتقد أنك تريد ألا تراني بعد الآن."

وقف السيد ونتويرث محدقاً، ثم سأل: "أليس في هذا تغيير بالأحرى؟"

"أجل يا سيدي، ثم راح السيد براند ينظر في كل مكان، ولكن ليس باتجاه شارلوت. كرر قائلاً:"أجل يا سيدي." ثم رفع منديله إلى شفتيه لبضع لحظات.

سأل السيد ونتويرث الذي كان يعتقد دائماً أن السيد براند هو الزوج الملائم لابنته الصغرى ذات المزاج الغريب:"أين حججنا الأخلاقية؟"

اقترح فيليكس:"يكون التغيير أحياناً أخلاقياً إلى حد كبير."

كانت شارلوت قد ابتعدت عن أختها بحركة رقيقة. اقتربت بلطف من أبيها ودست الآن يدها في ذراعه. كان السيد ونتويرث قد طوى صحيفة "الأدفرتايزر" محولاً إياها إلى بوصلة صغيرة على نحو مدهش، وها هو يرفع اللفافة بيد ويمسكها بالأخرى بجدية. كان السيد براند ينظر إليه، ومع ذلك، ورغم أن شارلوت كانت قريبة جداً، إلا أن عينيه أخفقتا في الالتقاء بعينيها. كانت غرترود تراقب أختها.

قال السيد براند :" الأفضل ألا يجري الحديث عن التغيير. بمعنى من المعاني لا يوجد تغيير. كان هناك شيء كنت أرغب فيه... شيء ما طلبته منكم... ولا يزال هناك شيء أرغب فيه... وأود أن أطلبه منكم." ثم توقف عن الكلام لبرهة. بدا السيد ونتويرث محتاراً. "أود بصفتي قساً أن أوحّد بين هذا الشاب وهذه الشابة."

لاحظت غرترود، التي كانت تراقب أختها، أن وجه شارلوت تضرج بشدة، وأحس السيد ونتويرث بها وهي تضغط على ذراعه.

Twitter: @ketab_n

همهم السيد ونتويرث:"يا للقوى السماوية!" وكانت هذه أكثر عبارة تلفظ بها في حياته اقتراباً من انتهاك المقدسات.

صاح فيليكس:"هذا لطيف جداً. هذا مليح جداً!"

قال السيد ونتويرث:"لا أفهم"، رغم أنه كان جلياً أن كل شخص آخر فهم ما يجري.

قالت غرترود وهي تتفوق على فيليكس:"هذا جميل جداً يا سيد براند."

" أريد أن أزوجكما. سيمنحني هذا الكثير من السرور."

قال فيليكس:":كما قالت غرترود، هذه فكرة جميلة."

كان فيليكس يبتسم، ولكن السيد براند لم يكن يحاول حتى أن يبتسم. كان هو نفسه يعتبر اقتراحه أمراً شديد الجدية. لذا أكد قائلاً:"لقد فكرت في الأمر وأود أن أقوم به."

كانت شارلوت تقف في هذه الأثناء بعينين مفتوحتين على آخرهما. لم تكن مخيلتها، كما قلت سابقاً، سريعة بقدر مخيلة أختها، ولكنها قامت الآن بعدة قفزات صغيرة. همهمت:"وافق يا أبي!"

سمعها السيد براند، ثم أشاح ببصره. لم يكن السيد ونتويرث يتحلى بأي مخيلة إطلاقاً. بدأ يقول ببطء:"لقد كنت أعتقد دائماً أن شخصية غرترود تتطلب حظاً معيناً من التطور."

كررت شارلوت:" وافق يا أبي".

وأخيراً نظر السيد براند إليها. أحس أبوها بها وهي تتكئ على نحو أثقل على ذراعه المطوي أكثر مما سبق لها أن فعلت قط. وقد جعله هذا، مع ضعف عذب في صوتها، يتساءل في نفسه: ما الحكاية

Twitter: @ketab_n

يا ترى؟ نظر إليها، ورأى التقاء تحديقتها بتحديقة القسيس الشاب. ولكن حتى هذا لم يعلمه بأي شيء، فبقي محتاراً. وعلى أي حال، قال أخيراً: " أنا موافق طالما يوصي السيد براند بذلك."

قال السيد براند بنوع من البساطة الجدية:"أود أن أؤدي بشعائر الزواج في وقت قريب جداً."

صاح فيليكس بأسلوب يخلو من البراعة:" هيا هيا، هذا فاتن!"

جلس السيد ونتويرث في كرسيه. قال بقسوة خليقة بقاض من القضاة:" "لاشك في ذلك، ولكن حين تفهمه."

اقتربت غرترود من أختها وقادتها إلى الخارج، ومرر فيليكس ذراعه تحت ذراع السيد براند وخطا الاثنان خارجين من النافذة الطويلة؛ بينما ترك الرجل العجوز جالساً هناك في حيرة ضبابية.

لم يعمل فيليكس في ذلك اليوم. ففي فترة بعد العصر، ركب هو وغرترود أحد الزوارق وراحا يطفوان به فوق البحيرة بمجدافين كسولين. تحدثا كثيراً عن السيد براند رغم أن هذا لم يكن موضوعهما الوحيد.

قال فيليكس:"كان ذلك عملاً فذاً وجميلاً. كان بطولياً حقاً."

جلست غرترود تتأمل وعيناها تحدقان إلى المويجات. "كان ذلك ما أراده أن يكون. أراد أن يقوم بعمل طيب."

قال فيليكس:"لن يشعر بالراحة حتى يزوجنا أنت وأنا. وهذا لصالحنا."

استأنفت غرترود:" لقد أراد أن يكون شهماً. أراد أن يستمتع بلذة أخلاقية جميلة. أعرفه جيداً جداً." نظر إليها فيليكس. كانت تتكلم

Twitter: @ketab_n

ببطء وهي تحدق إلى الماء الصافي. "لقد فكر جيداً في الأمر، ليل نهار. وقد اعتقد أن الأمر سيكون جميلاً. وأخيراً حزم أمره على أن واجبه يفرض عليه أن يفعل هذا بالضبط، وليس ما هو أقل منه. إنه يشعر بالمجد والسمو. هكذا ينبغي أن يشعر. هذا أفضل له مما لو كنت قد أصغيت له."

ابتسم فيليكس قائلاً:"هذا أفضل لي. ولكن هل تعرفين- فيما يخص التضحية- أني لا أعتقد أنه كان معجباً بك حين اتخذ هذا القرار بقدر إعجابه قبل أسبوعين؟"

" لم يعجب بي قط. إنه معجب بشارلوت. كان يشفق عليّ. أعرفه جيداً جداً."

"حسناً إذاً، فهو لم يشفق عليك كثيراً."

نظرت غرترود إلى فيليكس قليلاً وهي تبتسم. قالت:"لا ينبغي أن تسمح لنفسك بأن تبخس من روعة ما فعله." ثم كررت قولها:"إنه معجب بشارلوت."

قال فيليكس ضاحكاً وهو يغط المجدافين في الماء:" هذا فائق الروعة!" لا أستطيع أن أعرف بالضبط إلى أي جزء من جملة غرترود كان يلمح، ولكنه غط مجدافيه مجدداً وبقيا كلاهما طافيين فوق سطح البحيرة.

لم يحضر فيليكس ولا شقيقته في ذلك اليوم وجبة العشاء في منزل السيد ونتويرث. فلقد تعشى ساكنا الكوخ معاً، وأبلغ الشاب رفيقته بأن زواجه أصبح حقيقة مؤكدة. هنأته يوجينيا وأجابت بأنه لو تصرف كزوج معقول كما كان لها أخاً معقولاً، فلن يكون لدى زوجته ما تشتكي منه.

Twitter: @ketab_n

نظر إليها فيليكس لبرهة وهو يبتسم ، ثم قال: "آمل ألا أخيب بسبب معقوليتي."

استأنفت يوجينيا الكلام فقالت:" إنه لصحيح تماماً أن عقل المرء مسطح تماماً. إنه سرير دون فرشة."

ولكن الأخ والأخت عبرا في وقت لاحق من المساء نحو الدارة الكبيرة، إذ كانت البارونة راغبة في تهنئة زوجة أخيها المنتظرة. وقد وجدا المجموعة المعتادة من الأشخاص على الشرفة، باستثناء كليفورد ونتويرث وليزي أكتون. وبينما نهض الجميع كالعادة للترحيب بالبارونة، أعجب الجميع بالطريقة التي قدمت بها يوجينيا التهنئة إلى غرترود.

وقف روبرت اكتون عند حافة الشرفة واتكأ على أحد الأعمدة البيضاء، بحيث وجد نفسه قريباً من يوجينيا، بينما كانت تقوم بحديث صغير متقن موضوعه التهنئة.

قالت: "سيسرني أن أعرفك بشكل أفضل. لم أرك بقدر ما كنت أحب. من الطبيعي، أني أرى الآن السبب في ذلك؟ ستحبينني قليلاً، أليس كذلك؟ أعتقد أني قد أقول إني أكسب من معرفة الناس بي." ثم أنهت هذه الملاحظات التي قالتها بأرق درجات صوتها بأن طبعت قبلة كبيرة رسمية نوعاً ما على جبين غرترود.

لم تقلل الألفة الزائدة، في مخيلة غرترود، من الوقع الغامض البالغ في النفس لشخصية أوجينيا، وشعرت بالإطراء والزهو من هذه الاحتفالية الصغيرة. كما أن روبرت أكتون أعجب بها أيضاً، كما كان معجباً بالكثير جداً من التجليات اللطيفة للمدام مونستر.

كانت هذه التجليات تتميز بأنها جعلته في حالة قلق؛ وفي هذه

Twitter: @ketab_n

المناسبة، راح يمشي مبتعداً بشكل مفاجئ ويداه في جيبه، ثم عاد واتكأ على عموده. كانت يوجينيا تهنئ خالها الآن على خطبة ابنته، وكان السيد ونتويرث يصغي بكياسته البسيطة المعتادة إنما المهذبة. كان من المفروض في هذا الوقت أن يكون إدراكه للعلاقات المتبادلة بين الشبان والشابات المحيطين به قد أصبح أكثر حدة، ولكنه كان ما يزال ينظر إلى الأمر بجدية كبيرة، و لم يكن منشرح الصدر على الإطلاق.

قالت يوجينيا: " سيكون فيليكس زوجاً جيداً لها. سيكون رفيقاً خفيف الروح. إنه ليتمتع بميزة عظيمة... المرح الدائم."

سألها الرجل العجوز:"وهل تعتقدين أن هذه ميزة عظيمة؟"

فكرت يوجينيا وعيناها مثبتتان على عينيه:"أنت تعتقد أن المرء سيتعب منها، أليس كذلك؟"

قال السيد ونتويرث:"لا أعرف أني مستعد لقول ذلك."

"حسناً، سنقول إذن إن الأمر متعب للآخرين ولكنه ممتع للذات. يفترض في زوج المرأة، كما تعرف، أن يكون ذاتها الثانية. لذلك بالنسبة إلى فيليكس وغرترود، سيكون المرح ملكية مشتركة."

قال السيد ونتويرث:"كانت غرترود على الدوام شديدة المرح." كان يحاول متابعة هذا الجدال.

أخرج روبرت أكتون يديه من جيبيه وتقدم قليلاً من البارونة. قال:"تقولين إنك تكسبين من معرفة الناس بك. إن المرء ليكسب حقاً من معرفتك."

سألته يوجينيا:"وما الذي كسبته؟"

"مقداراً هائلاً من الحكمة."

Twitter: @ketab_n

"هذه مزية مشكوك فيها بالنسبة إلى رجل سبق أن كان حكيماً جداً!"

هزّ أكتون رأسه."كلا. كنت مغفلاً كبيراً قبل أن أعرفك!"

"ورغم كونك مغفلاً فقد تعرفت عليّ! أنت شديد الإطراء."

قال أكتون ضاحكاً:"دعيني أستمر في ذلك. آمل، من أجل متعتنا، أن يؤخرك زواج أخيك."

سألت البارونة:"و لم أتوقف من أجل زواج أخي حين لا أتوقف من أجل زواجي أنا؟"

"و لم لا تتوقفين في الحالتين حيث أنك حسب ما تقولين قد فككت ذلك الرابط الميكانيكي الذي يربطك بأوروبا؟"

نظرت البارونة إليه لبرهة. "حسب ما أقول؟ يبدو وكأنك تشك في الأمر."

قال أكتون وهو ينظر إليها بدوره:"آه، هذا من بقايا غفلتي القديمة!" ثم أضاف:" لدينا مصادر أخرى للتسلية. سيكون لدينا زواج آخر."

ولكنها بدت وكأنها لم تسمعه. كانت ما تزال تنظر إليه. قالت:" لم يسبق أن كانت كلمتي موضع شك من قبل."

كرر أكتون وهو يبتسم:"سيكون لدينا زواج آخر."

ثم بدا عليها أنها فهمت. "زواج آخر؟" ونظرت إلى الآخرين. كان فيليكس يثرثر مع غرترود، أما شارلوت المبتعدة قليلاً عنهم، فكانت تراقبهم. كان السيد براند الجالس في زاوية أخرى يلتفت بعيداً عنهم، وقد وضع يديه تحت ذيل معطفه وأمال رأسه الكبيرة إلى جانب وراح يتأمل الهلال الصغير الرقيق. قالت يوجينيا:"لا شك أنه زواج السيد براند وشارلوت، ولكن لا يبدو الأمر كذلك."

Twitter: @ketab_n

أجاب أكتون:" حسناً، عليك أن تحكمي الآن بالنقائض. هناك أكثر مما يبدو عليه الأمر من الظاهر. أتوقع حصول ذلك الاتحاد في يوم من الأيام، ولكن ليس هذا ما قصدته."

قالت البارونة:"حسناً، لا أحزر عشاقي قط، لذلك لا أستطيع أن أحزر عشاق الأشخاص الآخرين."

أطلق أكتون ضحكة صاخبة، وكان على وشك أن يضيف كلاماً جديداً حين اقترب السيد ونتويرث من ابنة أخته. قال الرجل العجوز وقد انتابه توق مؤقت إلى المرح:"سيثير اهتمامك أن تسمعي عن مغامرة زواجية أخرى ضمن دائرتنا الصغيرة."

قال أكتون:"كنت أزف الخبر إلى البارونة."

قالت يوجينيا:" كان من الواضح أن السيد أكتون كان على وشك أن يعلن عن خطبته هو."

زاد مرح السيد ونتويرث فقال:"ليس هذا بالضبط، ولكن الأمر يتعلق بالأسرة. عندما سمع كليفورد هذا الصباح أن السيد براند عبر عن رغبته في عقد مراسم زواج أخته، قرر أن يطلب من صديقنا الطيب أن يقوم بمراسم مشابهة له ولليزي أكتون في الوقت نفسه."

رفعت البارونة رأسها وابتسمت لخالها، ثم التفتت بتوهج أشد نحو روبرت أكتون . قالت:"لكم كنت شديدة الغباء حين لم يخطر لي ذلك." نظر أكتون إلى حذائه وكأنه يظن أنه قد وصل ربما إلى أقصى حدود تجريبه السائغ، ولبرهة لم تقل يوجينيا المزيد. لقد كانت بالفعل صدمة حادة، وكانت في حاجة إلى أن تتماسك مجدداً. وقد جرى هذا على أي حال بالسرعة الكافية. سألت:"أين الشابان؟"

"إنهما يقضيان المساء مع أمي."

Twitter: @ketab_n

"أليس الأمر مفاجئاً جداً؟"

رفع أكتون نظره إلى الأعلى. قال:"مفاجئاً إلى أقصى حد. كان هناك تفاهم ضمني، ولكن خلال يوم أو اثنين، بدا على كليفورد أنه تلقى دافعاً بأن يسرّع الأمر."

قالت البارونة:"كان الدافع مفاتن أختك الجميلة جداً."

"ولكن مفاتن أختي قصة قديمة. لقد عرفها هو دائماً. " كان أكتون قد بدأ بالتجريب مجدداً.

كان من الواضح الآن، على أي حال، أن البارونة لن تمد له يد العون. "آه، لا يمكن للمرء أن يعبر عن الأمر! كليفورد صغير السن ولكنه شاب لطيف."

" إنه شاب يستحق الحب، وسيكون رجلاً غنياً." كانت تلك آخر تجارب أكتون. أشاحت المدام مونستر بوجهها بعيداً عنه.

اختصرت يوجينيا الزيارة واصطحبها فيليكس إلى البيت. في غرفة الاستقبال الصغيرة اتجهت فوراً نحو المرآة الموضوعة فوق رف المدفأة، ورفعت شمعة، وراحت تنظر في المرآة. قالت لأخيها:"لن أنتظر زفافك. غداً سأجعل خادمتي توضب حقائبي."

صاح فيليكس:" "يا أختي العزيزة، سأتزوج على الفور! السيد براند لا يشعر بالراحة إطلاقاً."

ولكن يوجينيا التفتت وهي ما تزال تحمل الشمعة عالياً، نظرت فحسب عبر غرفة الجلوس الصغيرة إلى أشيائها المبهرجة الرخيصة وستائرها ووسائدها. كررت جملتها:" خادمتي ستوضب الحقائب. يا للعناية الإلهية! يالها من قمامة! أشعر وكأني ممثلة جوالة. وهذه ممتلكاتي."

Twitter: @ketab_n

سألها فيليكس: "هل وصلت المسرحية إلى ختامها؟"

نظرت إليه بحدة. "لقد أديت دوري."

قال أخوها:"مع الكثير من التصفيق!"

همهمت:"أوه، التصفيق... التصفيق!" ثم لملمت اثنين أو ثلاثاً من الأقمشة المتناثرة. نظرت إلى القماش المقصب الجميل ثم قالت:"لا أرى كيف استطعت تحمل كل ذلك!"

"تحمليه بعض الوقت أيضاً. احضري زفافي."

"شكراً، هذا شأنك أنت. شؤوني في مكان آخر."

"وأين ستذهبين؟"

"إلى ألمانيا على متن أول سفينة."

"هل قررت عدم الزواج من روبرت أكتون؟"

قالت يوجينيا:"لقد رفضت عرضه."

نظر شقيقها إليها في صمت. أجاب أخيراً:"أنا آسف. ولكني كنت كتوماً جداً كما طلبت مني. لم أتلفظ بأي شيء."

قالت يوجينيا:"إذن أرجو أن تستمر في عدم الإلماح إلى المسألة."

قال فيليكس برصانة:"سأطيع أمرك." ثم تابع:" ولكن ماذا عن وضعك في ألمانيا؟"

"أرجو ألا تذكر أي ملاحظة عن ذلك."

"كنت سأقول فحسب أنني افترضت أنه اختلف."

"أنت على خطأ."

Twitter: @ketab_n

"ولكنني ظننت أنك وقّعت ..."

قالت البارونة:" لم أوقّع!"

لم يحثها فيليكس على قول المزيد، وتم ترتيب الأمر بحيث يقدم لها يد المساعدة لتركب السفينة في أسرع وقت ممكن.

بالفعل كان السيد براند، وكما بدا عليه الأمر، شديد التوق إلى إنجاز تضحيته بالقيام بمباركته للزواج بحيث يتم إخراج ذلك بشكل جميل، ولكن نفاد صبر يوجينيا ورغبتها بالانسحاب من البلد الذي لم تجد فيه الثروة التي جاءت تنشدها، لم يكن أمراً صعباً على الفهم. صحيح أنها لم تبذل أي جهد جدّي، ولكنها بدت وكأنها تشعر بأنها على حق في أن تعمّم... في قولها إن ظروف النشاط في هذه القارة ضيقة في مجال الفكر و لم تكن مؤاتية لنساء متفوقات حقاً. فالعالم القديم كان على أي حال ميدانهن الطبيعي. وكانت المباشرة غير المحرجة التي راحت تطبق بها هذه الاستنتاجات الذكية تبدو للدائرة الصغيرة من المشاهدين الذين ظهروا في حكايتنا مجرد استعراض سام لشخصية أضفت عليها تجربتها في الحياة ليونة غير قابلة للتقليد. كان لها تأثير واضح على روبرت أكتون الذي كان خلال اليومين السابقين على رحيلها كثير القلق والحنق. وقد أمضت آخر أمسياتها في دارة خالها، حيث أبدت من الفتنة ما لم تبده من قبل قط، ولدى وداعها لعروس كليفورد ونتويريث المخطوبة، فقد سحبت من أصبعها خاتماً قديماً غريباً وقدمته لها مع أجمل خطاب وقبلة. كما أن غرترود، وهي أيضاً عروس مخطوبة، والتي كانت مدينة لكرمها اللطيف، قد أعجبت بهذا الحدث الصغير كثيراً. كما تساءل روبرت أكتون إن لم يكن هذا يمنحه الحق، كشقيق لليزي ووصياً عليها، في رد الهدية بأخرى ثمينة إلى البارونة. كان سيسعده كثيراً أن يتمكن من تقديم هدية ثمينة إلى

Twitter: @ketab_n

البارونة، ولكنه امتنع عن هذا التعبير عن عواطفه ، وكانت هذه في النهاية الأقل ارتياحاً. و لم يشاهد البارونة إلا عند نهاية إقامتها... في وقت متأخر من الليل قبل ذهابها إلى بوسطن لتركب السفينة.

قال:" فيما يخصني، أتمنى لو تبقين، ولكن ليس فيما يخصك أنت."

قالت البارونة:" لا فروق كبيرة جداً عندي، فأنا ببساطة آسفة للرحيل."

صرح أكتون:"هذا فرق أعمق بكثير من فرقي أنا، فأنت تعنين أنك بكل بساطة سعيدة!"

ودعها فيليكس على متن السفينة. قال:"سنلتقي غالباً هناك في البعيد."

أجابت:"لا أدري. تبدو أوروبا لي أكبر بكثير من أمريكا."

لم يكن السيد براند بالطبع، في الأيام التي تلت ذلك مباشرة الوحيد ذا الروح التواقة، ولكن يمكن أن يقال إنه من بين جميع الأرواح الشابة المهتمة بالحدث لم يرتق إلى مستوى المناسبة أحد مثله بكل ذلك التوق. غادرت غرترود دارة أبيها مع فيليكس يَنغ، وكانا سعيدين رابطي الجأش، ثم مضيا بعيداً. بحث كليفورد وزوجته الشابة عن سعادتهما ضمن دائرة أضيق، وكان تأثير الزوجة على الزuiوج كبيراً إلى حد يمكن معه تبرير نظرية التأثير الارتقائي للحوار المتبسط مع النساء الذكيات الذي طرحه فيليكس على الرجل العجوز. ابتعدت غرترود لفترة طويلة، ولكنها عادت حين تزوجت شارلوت من السيد براند. وكانت حاضرة في وليمة الزفاف حيث لم يظهر أي تعبير في روح فيليكس المرحة. ثم اختفت غرترود، وكان صدى

Twitter: @ketab_n

مرحها هي، ممتزجاً بمرح زوجها، غالباً ما يرجع إلى البيت الذي عرف سنوات طفولتها الأولى. وقد وجد السيد ونتويرث نفسه أخيراً وهو يصغي إلى مرحها. أما روبرت أكتون، بعد وفاة أمه، فقد تزوج من فتاة شابة ولطيفة بشكل خاص.

النهاية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ولد هنري جيمس في عام (١٨٤٣) في "واشنطن بليس"، ولاية نيويورك، لأبوين من أصل سكوتلندي وايرلندي. كان أبوه لاهوتياً وفيلسوفاً مرموقاً كما أن أخاه الأكبر "ويليام جيمس" كان شهيراً أيضاً كفيلسوف. درس في نيويورك ثم في لندن وباريس وجنيف، ودخل كلية الحقوق في جامعة هارفارد في عام (١٨٦٢). في عام (١٨٦٥)، بدأ يكتب المقالات والقصص (القصيرة في الصحف الأمريكية. في عام (١٨٧٥)، وبعد زيارتين سابقتين لأوروبا، استقر مدة عام في باريس حيث تعرّف على فلوبير وتورغينيف وشخصيات أدبية بارزة أخرى. وفي العام التالي انتقل إلى لندن، حيث أصبح شخصاً يدعى إلى العشاء بشكل متكرر حتى أنه اعترف أنه في عامي ١٨٧٨-١٨٧٩ قبل مائة وسبع دعوات إلى العشاء. مُنح الجنسية البريطانية في عام (١٩١٥) ومنح وسام الاستحقاق وتوفي عام (١٩١٦).

بالإضافة إلى كثير من القصص القصيرة والمسرحيات وكتب النقد والسيرة الذاتية والرحلات فقد كتب عشرين رواية، وأولها كانت "رودريك هودسون" (١٨٧٥). ومن بين رواياته الأخرى: "ساحة واشنطن"، "صورة سيدة"، "أهل بوسطن"، "الأميرة كاساماسيما"، "غنائم بوينتون"، "العصر المحرج"، "جناحا الحمامة"، "السفراء"، "الوعاء الذهبي" و"الأمريكي".

نظر الناقد الإنكليزي المرموق "ف. ر. ليفيز" إلى رواية "الأوروبيون" التي نشرت عام ١٨٧٨ على أنها عمل هام جداً، فقال: "هذان الأوروبيان، ابنا العمة القادمان في زيارة، موجودان ليكونا النقيض المميز الذي يكشف حقيقة الأسرة الأمريكية. كان الغرض الرئيسي لهنري جيمس هو تقديم دراسة في أخلاق وعادات نيو إنغلند... وعلى أي حال، فإن روح التهكم عند جيمس ليست إطلاقاً من النوع القاسي، فهو يرى الكثير مما يثير إعجابه في الأخلاق والعادات التي ينتقدها ليدينها... لا يدين جيمس نيو إنغلند وأوروبا كما لا يؤيدهما... هذه الرواية الصغيرة التي كتبها جيمس في بداية سيرته الأدبية تحفة فنية ذات قيمة كبيرة."

ISBN 284306242-X
9 782843 062421